

طبعة ثانية مزيدة

المهدي المنجرة

قيمة القيم

طبعة ثانية مزيدة

المهدي المنجرة

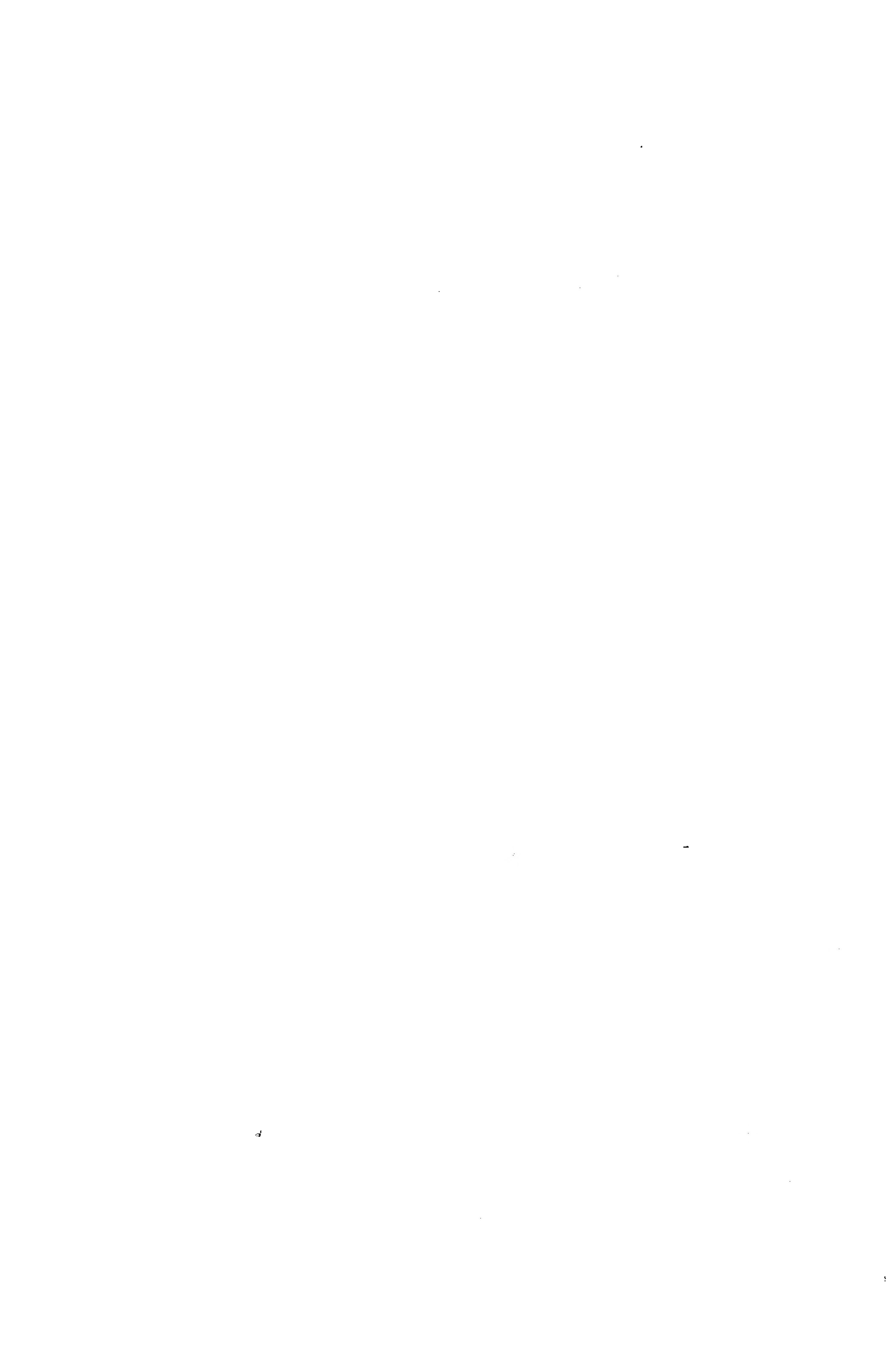
قيمة القيم

الغلاف : للفنان أحمد بن يسف

الطبعة الأولى يناير 2007
الطبعة الثانية مارس 2007

إهداء

إلى روح والديّ ربيعة المريني
ومحمّد المنجرة رحمهما الله
اللذين علماني قيمة القيم



مقدمة

لقد شكل دور القيم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية على الدوام، انشغالا كبيرا في كل أنشطتي وكل كتاباتي.

فهل بسبب السنوات الخمس والثلاثين التي قضيتها في دول الغرب، كطالب في مرحلة أولى وكموظف دولي في مرحلة ثانية ؟

كلّما أكتشفت وأزددت انبهارا وإعجابا بالمكونات والأبعاد المتعددة للثقافة الغربية في غناها وتعددها، ازددت قناعة بأن لها ارتباط وثيق بتاريخ، وذاكرة مشتركة وبيئة جغرافية ـ اجتماعية وثقافية معينة. إشكالية تعالج على مستوى «منظومة القيم» المشتركة التي لا يمكن بدونها أن تفك ألغاز ثقافة ساهمت بقدر كبير في تطور الإنسانية التي أعتبر نفسي شخصيا مدينا لها.

يأتي هذا الاستنتاج، عندما ندْرك أن الثقافة لا يمكن نقلها بشكل أعمى إلى مناطق أخرى من العالم، دون اعتبار واحترام لقيم هذه المناطق. إن الثقافات لا تُستَنسخ، ولا يمكنها أن تتواصل فيما بينها، ولا أن تغني بعضها البعض، إلا إذا اعتبرنا هذه القاعدة الأساسية.

وقد كان لي الشرف عندما كنت نائبا للمدير العام لمنظمة اليونيسكو للعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية والثقافة والفلسفة وحقوق الإنسان، أن أظل على علاقة وثيقة بالهيآت الحكومية منها وغير الحكومية عبر العالم، التي كانت مسؤولة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن كل ما يتعلق بالدراسة وبإنعاش وتطور ونشر الثقافات.

ودون أن أطعن في حسن نية هؤلاء المسؤولين، فقد لاحظت عن كثب بعض التحفظات، عن وعي أو غير وعي، لدى بعض المسؤولين الغربيين، وترددهم في الذهاب نحو «الآخر»، ومرد ذلك هو جهل «الآخر»، إن لم نقل بسبب مركب كبرياء واكتفاء ذاتي.

هذا الاستنتاج البسيط، بحدوده التي يفرضها كل تحليل ذي صيغة شمولية وعمومية، شجعني على الاهتمام أكثر بهذه الثقافات الأخرى، دون أن أتنكر لثقافتي ؛ بل على العكس من ذلك، فإن ثقافتي قد مكنتني من أن أرضية للإنطلاق ومن أن أتنادى خطر الإستيلاب والاستعمار الثقافي، وكل ما من شأنه أن يغتال الإبداع والخلق.

كما كنت أستعين دائما بتلك القولة لفيرناند بروديل Fernand Braudel : «لا نعترف بحضارة إلا من خلال ما ترفض استلافه».

كتبت في مداخلة لي خلال المائدة المستديرة الأولى شمال - جنوب المنظمة بروما ما يلي :

«بذل الشمال جهودا قليلة لكي يتفهم ويتكلم لغة الجنوب، وبالتالي لابد من إعطاء الأسبقية لمنظومة القيم، حتى نعرف بأن الأزمة الحالية بين الشمال والجنوب، هي أزمة النظام العالمي برمته».

وهو استنتاج يبدو لي شخصيا أنه ينطبق على وضعنا العالمي الحالي، أكثر منه على وضعنا السابق. ذلك أن «عولمة» تضم القيم بفعل الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، لم تعمل إلا على تقليص حظوظ التواصل الثقافي المرتكز على احترام متبادل «لأساليب الحياة».

إن تواصل الأفكار وعالم الإبداع لا يخضعان لنفس المساطر ونفس المقاييس التي تطبق على المنتوجات الفلاحية والصناعية. ولا يُحتل الميدان الثقافي كما تُحتل ساحة المعركة. كل ما يمكن أن نتوصل إليه من نتائج، هو تكريس الإثنو - مركزية والهيمنة الثقافية التي تطبع موقف عدد

كبير من الدول الغربية من جهة، وتأجيج مقاومة أغلب الشعوب للإعتداءات ذات الصبغة الثقافية من جهة أخرى.

خلال برنامج خاص حول المستقبلية، بثته التلفزة الفرنسية منذ أكثر من عشرين سنة، ألححت على أن للغرب ثلاثة هواجس أساسية هي : الديموغرافية، الإسلام واليابان («ملفات الشاشة»، على القناة الفرنسية الأولى TF1 يوم 1980/6/24).

أما هواجس وانشغالات وهموم اليوم، فهي التخوف من الهجرة الذي عوض هاجس الديموغرافية، والخوف من الصين الشعبية التي عوضت اليابان ؛ فيما زاد هاجس الإسلام في شكل خوف من الإسلام بوجه مكشوف، يقرن بصفة تلقائية الإسلام بالإرهاب بواسطة الإرهاب اللغوي والإعلامي. علماً أن كلمة «السلام» في العالم الإسلامي، تنطق مليار مرة في الساعة أي 17 مليون مرة كل دقيقة.

كتب أحد المفكرين الفرنسيين مؤخرا : «إن الحروب المقبلة ستكون لغوية». وهذا أمر واقع الآن، كما نرى ذلك في مقال «Soft power» لـ ن. ناي «N.Nye» وف. أونيوس W.onews المنشور في عدد مجلة «الشؤون الخارجية» (Foreign affairs) الصادر في مارس 1966، الذي يؤكد على أن «القدرة على تحقيق الأهداف المتوخاة في الشؤون الدولية، ينبغي أن يتم بواسطة الجذب عوض الإجبار».

حوالي 600 مليون من الدولارات الأمريكية صرفت لهذا الغرض في منطقة الشرق الأوسط خلال السنة الماضية لوحدها (597 مليون دولار بالتحديد). إن الخاسر الأكبر في حرب الكلمات هاته، هو «المجتمع الدولي الذي لم تعد له تقريبا أية مصداقية».

إن حرب العراق هي قبل كل شيء حرب ضد القيم غير اليهودية المسيحية. ويكفي لتقتنع، أن تتوقف مليا عند الدور الكبير الذي يلعبه المحافظون الجدد في التوجه الإيديولوجي والعسكري لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

كنت أتوقع هجوما على العراق من طرف الولايات المتحدة الأمريكية منذ سبتمبر 1990، ذلك أن أبواق الدعاية الأمريكية، كانت تركز على «القيم الديموقراطية» قبل أن تنتقل إلى «أسلوب حياة» الأمريكيين، كما عبر عن ذلك الرئيس ويليام بوش William Bush، سنة 1990 أثناء استجواب له مع الإذاعة الفرنسية الدولية يوم 27 شتنبر حين صرح قائلا : «إن مناصب الشغل لدينا، ونمط حياتنا، وحريتنا وأيضا حرية الدول الصديقة لنا عبر العالم، ستتأثر سلبيا إذا ما سقط أكبر مخزون للنفط في العالم بين يدي صدام حسين».

إن الهجوم الجوي على نيويورك في سبتمبر 2001، ذلك الهجوم الذي لا يمكن إلا التنديد به، قد دشن عهد «الفوبقراطية» ؛ حيث أصبح الحكم بالخوف ؛ الخوف الذي نؤدي عليه ثمنا غاليا، حين يتعلق الأمر بالدفاع عن الحريات. الخوف الذي تحول إلى استثمارات ضد ما يسمى «الإرهاب» ؛ وهو ما يساوي 400 مليار دولار سنويا تصرف عبر العالم ضد هذا الإرهاب الذي لم يخضع لحد الساعة لأي تفسير أو تحديد قانوني دولي مقبول، هذا «الإرهاب» الذي يستثني الإرهاب الآخر، أي إرهاب الدولة الذي يخلق أكبر الخسائر في الأرواح، ويدمر البنيات التحتية والمعدات.

فوراء هاته الحرب المفتوحة ضد الإرهاب، تظهر حرب أخرى ضد منظومة القيم.

إن احترام قيم الآخرين شرط أساسي من أجل الوصول إلى فهم نسبية مفهوم «القيم الكونية»، التي تمكن من تسهيل عملية التواصل الثقافي بين الشعوب، بدل الإلحاح على «التكييف» بتقاليد «كونية» مفبركة ومختزلة على مستوى الزمان والمكان في التاريخ البشري.

في اليوم الذي ستتساوى فيه حياة أمريكي وحياة إسرائيلي مع حياة أي مواطن من ساكنة العالم الثالث بصفة عامة، وحياة عربي ومسلم بصفة خاصة ؛ سنقترب حتما من هذه الكونية التي يتبجّحون بها ؛ لكن الاعتداءات الوحشية الإسرائيلية، تبين المسافة البعيدة التي تفصلنا عنها.

إني أومن بالكونية، تلك التي تكون نتاج تداخل وتفاعل للاختلافات، تلك التي يرتكز «لوغاريتمها» على العدالة والإنصاف المطبق بدون تمييز عرقي، أو عقائدي، أو جنسي أو اجتماعي. أومن بكونية الجمال والحب كما نحس بها فرديا، أومن بكونية الإبداع والخلق حين نطلق لها العنان.

أومن بكونية الروحانية التي يتجاوز الإنسان نفسه من خلالها بكل حرية، أومن بكونية البحث والدراسة وطلب العلم، وأومن بالمصير المشترك للإنسانية، وكل هذه القناعات تدفعني إلى رفض كونية سريعة مسيرة بروح النزعة المركزية، وبالإيديولوجيا السياسية والهيمنة.

وكما شرح ذلك ليدوبج ڤون بيرتالانفي Ludwig Von Bertalanfy، منذ عدة سنوات في كتابه «حول النظام» (on system - 1942)، ليس هناك نظام إن لم تكن له غاية، فالقيم هي في آن واحد مصدر ونتاج تلك المقاصد. ولذلك استنتجت في خاتمة كتابي حول نظام منظمة الأمم المتحدة الصادر سنة 1979، بأن النظام الأممي لن يكون فعّالا، إلا حين يتم التوصل إلى اتفاق حول مقاصده على أسس قيم مختلفة تماما عما جاء في ميثاق سان فرانسيسكو سنة 1945، عندما كانت شعوب العالم غير معبأة سياسيا. ولقد تجسّد غياب الفعالية منذ أكثر من عقدين في تواطؤ مع الميكًا امبرالية وحلفائها، مدعّمة بالصمت الرّهيب واللامقبول للحكام العرب، كما تبين لنا الأحداث الأخيرة بلبنان وفلسطين. تواطؤ صرّح به رسميا رئيس الجمعية العامة بلبنان، والذي يتهم فيه رسميا إسرائيل بالإبادة ؛ بلاد تسمح لنفسها علانية بخرق القواعد الأساسية للقانون الدولي والاستهزاء بالقيم الإنسانية الأساسية وقتل مئات الأشخاص بوحشية وتدمير البنيات التحتية بهمجية تعرّض حياة ملايين الأبرياء للخطر. وهكذا فقدت قيم ميثاق الأمم المتحدة نهائيا كل مصداقيتها في عيون ملايين البشر...

لقد أصبح العالم واعيا بأهمية الدور الذي يلعبه البعد الثقافي للحكم على المستوى الوطني وأيضا في العلاقات الدولية. ورأينا الأهمية التي أصبحت

تحظى بها هذه المسألة من خلال الاستفتاء حول مشروع الدستور الأوروبي، وأيضا خلال الحملات الانتخابية بالولايات المتحدة وأوروبا. هناك العديد من الشخصيات السياسية بفرنسا وبالكثير من البلدان الأوروبية التي لا تُخفي مراهنتها على الخوف من الإسلام لتمهيد انتخابها في المؤسسات التمثيلية.

حين كنت أتحدث عن الحرب الحضارية ابتداء من سنة 1991 ، كان ذلك بشكل وقائي،لأقول إنه من الواجب إعطاء الأهمية للقيم، لأن هذه القيم ستكون أحد الأسباب الرئيسية للحروب القادمة للنزاعات والصراعات، وأن الحل الوحيد لضمان السلام، هو تحسين التواصل الثقافي بين الشعوب والحضارات. في نفس السنة أسست صندوق التواصل الثقافي شمال - جنوب، الذي يمنح جائزة سنوية مموّلة بمداخيلي من حقوق التأليف.

يعترف هنتينغتون Huntington في الفصل العاشر من كتاب «صدام الحضارات» (Le choc des civilisations)، أنني كنت أول من استعمل عبارة «الحرب الحضارية» ؛ فهو لا يكتفي بالاعتراف بدور القيم الثقافية في اندلاع الأزمات والحروب المقبلة، بل إنه يسمي الأمور بأسمائها ويحدد المناطق التي ستدخل قيمها في صراعات مع القيم اليهودية المسيحية، والتي تمثل في نظره خطرا على المستقبل، وفي رأيي فإن «حرب القيم» لا تعني بالضرورة «حربا بين الديانات».

الكثير من الأشخاص الذين يدافعون على نظم القيم الحضارية، ليسوا بالضرورة ممارسين لديانات تلك الحضارات ؛ ولسنا بحاجة إلى ذكر أوالتذكير بتصريحات مسؤولين كبار في العديد من الدول الغربية، والذين لا يترددون في الإساءة إلى النظم والقيم الأخرى، كما فعل ذلك رئيس الحكومة الايطالي الأسبق سيلفيو برلسكوني، الذي كان يقول في أكتوبر 2001، بعد انتقاده اللاذع والمثير للجدل حول الإسلام، ودون أدنى احترام لأكثر من مليار ونصف من مسلمي العالم : «بحكم تقدمه الكبير، فإن الغرب مؤهل لتغريب (Occidentaliser) وغزو شعوب جديدة».

صحيح أن قبل برلسكوني، كانت السيدة مادلين أولبرايت، كاتبة الدولة الأمريكية للشؤون الخارجية قد صرحت في بداية سنة 1991، بأن الولايات المتحدة الأمريكية «الأمة الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها... إننا في درجة عالية، وبالتالي، فإننا نرى أبعد مما تراه الأمم الأخرى».

مؤخرا، في 21 مارس 2006، صرح رئيس الحكومة البريطانية طوني بلير : «إذا لم نستطع أن نعبّر عن سياسة مشتركة، مبنية على القيم المشتركة التي نتقاسمها، فإننا سنصبح مهددين، ليس فقط بالفوضى، ولكن أيضا في استقرارنا الاقتصادي والسياسي، إذا لم تكن لنا القدرة على مواجهة التشدد والتطرف، ومواجهة الأزمات والحروب والمظالم».

إن النصوص المدونة في هذا الكتاب، يعود معظمها إلى الفترة ما بين 1977 و2005، وقد حرصت على حذف النصوص التي نشرت في كتبي السابقة. والوقت هو خير شاهد وخير حَكَم في مجال التنبوءات المستقبلية، لأنه يسمح بالتأكّد من درجة الخطأ بين التنبوء والواقع المعاش.

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ؛ الأول مخصص بالدرجة الأولى للقيم والمجتمع، والثاني يلح على ربط علاقة بين القيم والإبداع ؛ أما الجزء الثالث والأخير، فإنه يركز على مكانة الذاكرة بوصفها قيمة لا تقبل النسيان أو التناسي. إنها شهادة تقدير للعديد من الأشخاص الذين أغنتني صداقتهم ونزاهتهم وحسن نيتهم وتألقهم وجنوحهم إلى الشراكة والاقتسام.

الذاكرة هي إحدى القيم التي تعطي للزمن انسجامه واكتماله وتفاعل بين ماض يتجدد، وحاضر عابر ومستقبل مفتوح إلى الأبد ؛ إننا لا «نقوم بطي الصفحات» بل نعيد قراءتها بانتظام.

وفي ظرف الإهانة التي يعيشها العالم العربي والإسلامي بصفة خاصة، تصبح الذاكرة سلاحا أكثر فعالية لتوثيق الماضي، وفهم الحاضر وبناء المستقبل. إذ يمكن أن تدمَّر البنيات التحتية، لكن يستحيل تدمير ذاكرة

شعب، مثلما يعمل أولئك الذين يقومون اليوم بالتطهير الإثنى في إسرائيل؛ لقد فقد العالم الإسلامي ما يقرب من 12 مليوناً من الأرواح منذ الحرب العالمية الثانية أثناء النزاعات المُدَبَّرة بالنيابة، والمسيّرة من طرف قوات التحالف باسم استعمار يوشك على الموت. وفي اليوم الذي سيتوفر العالم الإسلامي على بنك للمعطيات لجميع ضحايا هذه النزاعات، آنذاك يمكن له أن يتحدث عن الذاكرة كقيمة للبقاء.

أن يكون الإنسان واعيا بقيمة القيم، فإن ذلك قيمة في حد ذاتها. لقد كتب ڭريڭوري باتيسون Gregory Batisson : «الخبر هو الفرق الذي يصنع الفرق». نستطيع أيضا أن نقول بأن «القيم هي الفرق الذي يُكوِّن الفرق»؛ حين نخطيء في تقدير دور قيم الآخرين، فإن ذلك في حد ذاته منظومة قيم تنمّي الجهل وتغذي الإستيلاب. لهذه الأسباب أعيد كل مرة قولة المهاتما غاندي : «أريد أن تهب كل ثقافات الأرض قرب منزلي، بكل حرية إن أمكن ذلك، لكنني أرفض أن أنقلب من جراء رياحها العاتية».

إن القيم تتحرك على سلم زمني مختلف تماما عما نعيشه في حياتنا اليومية، وهي تشكل بذلك أحسن وسيلة للدفاع عن الشعوب المغلوبة على أمرها، داخلها وخارجها. وتاريخ حركات التحرير يقر ذلك بشكل كبير. وبالتالي، أملنا على المستوى المستقبلي، أن لا يتحول الذين يهينون الشعوب في عصرنا، إلى مهانين في العصور المقبلة، بعد عقد أو عقدين، في فترة لا يكون الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، هو أكبر تجمع اقتصادي عالمي، وعندما سيفقد جزءا كبيرا من قوته السياسية والثقافية وخصوصا مصداقيته الأخلاقية التي بدأت تتدهور.

وكما هي حالة كل عد عكسي، فإن حروب الاحتلال الأمريكية الأخيرة كانت كلها خاسرة منذ حرب الڤيتنام حتى حرب العراق مرورا بالصومال وأفغانستان، وفي انتظار الحروب المقبلة المبرمجة، والتي ستكون أيضا خاسرة ضد إيران، وسوريا ودول أخرى، إذا ما ألحت الحماقة الإنسانية

على التعجيل بشنها. ومن تم، فقد أصبح من الضروري أن يتحسن التواصل الثقافي الذي سيبعد النفاق والكذب وسياسة الكيل بمكيالين التي تعيشها والتي تمارسها علينا الدول الغربية وبلدان أخرى، يدعي بعضها الدفاع عن حقوق الإنسان وعن الديموقراطية التي تخرق بانتظام على أرض الواقع؛ والتي تشتم الأخلاقيات التي تتشدق بها، خاصة عندما يتعلق الأمر بشعوب اختارت بحرية قادتها الذين يحاربون الإهانة والرشوة والإستعمار الجديد والتبعية للإمبريالية والإستيلاب. أعتقد أنه ليس من المبالغة أن نقول، بأن مستقبل الإنسانية اليوم، رهين بدرجة الإعتبار الذي نعطيه للروح الإنسانية، وبالإحترام المتبادل للقيم، تلك القيم التي تشكل أساس استمرار الحياة في ظل الكرامة. ومن تم، القيمة المتصاعدة للقيم في أيامنا العصيبة هذه، حيث أصبحت اللامبالاة بمعاناة الآخرين أمرا مقبولا.

لقد كتبت هذه السطور لتردّ وفي الحين على حرب قاسية للقيم، والتي ليست إلا امتدادا وحشيا وملازما «للحرب الحضارية الأولى». ودون شك، فإن مستقبل الإنسانية سيكون رهينا بالثمن المخصّص للحياة البشرية بدون أي تمييز ؛ والاحترام المتبادل للقيم : روح البقاء البشري في ظل الكرامة. «ومن تم قيمة القيم» ؛

﴿سيعلمون غدا من الكذّاب الأشر﴾ صدق الله العظيم.



I

القيم والمجتمع

1

المنظمات الدولية والتنمية(*)

إنه لشرف عظيم أشعر به اليوم وأنا بينكم، وإنني لا أزعم أنني أحمل لكم الجديد حول موضوع التنمية، وهو بالسعة والتعقيد بمكان.

لكن أملي الوحيد، أن تثير مداخلتي هذه اهتماما ومواقف تؤدي إلى التفكير في الموضوع. إن وعينا بمشاكل التنمية لازال ضعيفا، وترتبط التنمية بالإنسان، وعندما يحاول هذا الأخير أن يفهم أو يحكم على الأشياء التي منه وإليه، يصبح التفكير صعبا جدا. إن درجة اللاموضوعية كبيرة واحتمال الخطإ وارد أيضا.

إنه موضوع يستوجب كثيرا من التواضع والليونة الفكرية مع الاستعداد الدائم لتصحيح وملاءمة التصور.

لكن إذا تعصّبنا وتمسّكنا بأفكارنا، فلا أمل في التنمية بمعناها الشامل والمندمج.

وبما أنكم تعملون بالحقل الدبلوماسي، فإنكم تخشون هذه التنمية على المستوى الوطني، حيث نجد عدة عوامل معقّدة، منها ما يرتبط بالسياسة والإديولوجيا والبنيات والغايات الوطنية لبلد ما. وتحليل التنمية من هذه الزاوية، يهتم أساسا بالمشاكل السياسية الاقتصادية والسوسيوثقافية ؛ ولكي نفهم مخطط التنمية في بلد ما، وندرك الأولويات وخطة العمل التي رسمت

(*) مؤسسة إيطالية بالمنظمة الدولية ـ معهد دبلوماسي وزارة الشؤون الخارجية روما 21 شتنبر 1977.

لهذا الغرض، يجب التفكير في القضية على المستوى الوطني، دون أن ننسى أنه مقيّد بعلاقات دولية وبالرتبة التي يحتلّها هذا البلد في النظام الدولي.

هذا مع العلم، أن التنمية أولا وقبل كل شيء، تبقى ظاهرة ذاتية تعتمد بالأساس على المجهود الوطني.

ورغم كثرة البرامج الدولية للتنمية، لاسيما في أفقر الدول، حيث يزداد الاهتمام الدولي، فإن المساهمة الوطنية نادرا ما تمثل أقل من 70% من المجموع. وتبقى المساعدة الدولية التي تنتج عن هذا التعاون، ضعيفة من ناحية الكمّ. إذن يصبح من الضروري، القيام بمقاربة منظومية في التحليل لتقييم جودة التفاعل الثابت بين المستوى الوطني والمستوى الدولي. والمهم في هذه المساعدة الخارجية، هي الأفكار والتصورات الناتجة عنه والتجارب الصادرة منه.

إن برنامج الأمم المتحدة للتنمية لا يقوم بتمويل أي مشروع، إلا إذا كان منسجما مع بعض التعاليم أو الأهداف المقرّرة من طرف مجلسه الإداري، وهذا الأخير بدوره، لا يمكنه اتخاذ مثل هذه القرارات دون اعتبار التوجّهات السياسية العامة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي، والذي بدوره لا يستطيع أن يتبنّى أي قرار للتنفيذ من طرف مجلس الإدارة دون موافقة الجمع العام (في شكل قرار). ويكون هذا القرار قبل المصادقة عليه موضوع مناقشات من طرف لجن اقتصادية إقليمية ومناقشات داخل وكالات متخصصة.

هذه التدابير كلها، تؤدي إلى خلاصة يصعب أحيانا إدراكها، ما لم يتحقق هذا المنهج المعقد لأخذ القرار. ورغم كل الشكوك في التعاون الدولي فهناك أمر لا ريب فيه ؛ وهو اتفاقنا على مستوى المفاهيم. ومع الأسف فإن هذا الاتفاق لا يحصل إلاّ بعْد مناقشات طويلة ومضنية، تأخذ منا الوقت الكثير. وفي غالب الأحيان، عندما نقترب من الإجماع، فإن المشاكل تكون قد تطورت، لدرجة أن الاتفاق الأول يصبح متجاوزا بفعل الأحداث.

ولنأخذ مثلا، القرارات المتعلقة بالنظام الاقتصادي العالمي الجديد. لقد كان لنص قرار الجمع العام حول النظام الاقتصادي الدولي معنى خاصا سنة 1973، و74 و75 بالنسبة لدول العالم الثالث، التي كانت تطالب بهيكلة جديدة للنظام العالمي من أجل عملية توزيع جديد على المستوى الدولي.

لقد اعترضت بعض الدول، وفي الأخير امتنعت عن التصويت على القرار، رافضة مبدئيا استعمال مصطلح "النظام العالمي الجديد" في القرارات المتَّخذة من طرف مؤسسات دولية أخرى. ومن ضمن هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية. لكن، بمجرّد وصول الرئيس كارتر إلى الحكم في يناير، وفي إحدى خطاباته الموجّهة للبعثة الأمريكية لدى هيئة الأمم المتحدة، أكّد هذا الأخير على ضرورة قبول مصطلح "النظام العالمي الجديد". وفي رأيي، كان هناك تأخيرٌ ملموسٌ، حيث انطلاقة 1973 والحوار بين الدول المتقدمة والدول النامية، قد انكسرت، مما انعكس سلبا على الحوار بين الشمال والجنوب.

بالنسبة لبعض الدول، فإن هذا النظام العالمي الجديد أصبح متجاوزا، لأنّ أسسه تعتمد على فرضية تعاون دولي وتضامن إنساني فعلي. وفي الواقع، لم يظهر هذا المنطق في أي موقف من مواقف جل الدول المتقدمة. وإذا كان هذا النظام قائما عند مسيري العالم الثالث، فإنه موضوع جدال عند عدد متصاعد من الجامعيين والسياسيين ونسبة كبيرة من الجيل الجديد في الجنوب.

وبما أن بعض الدول أدركت خطورة المشكل بعد وقت طويل، فإن هذا التأخير خلق مشكلا جديدا، استوجب طريقة جديدة لعلاجه. ولهذا، فإن المقاربات الجدية التي يتم التفكير فيها حاليا من طرف العالم الثالث، هي منهج "الاعتماد على النفس".

إن "الاعتماد على النفس" كالاعتماد الجماعي على النفس، خيارات نابعة من الاقتناع بأن المرهونين يفضلون الاحتفاظ بثرواتهم بأي ثمن، عوض تقاسمهم إياها لتسهيل تقدم الآخرين. والفكرة، هي أنه من الأفضل أن

يعتمد المرء على نفسه بدل قبول الفضلات، لأنه في حالة قبول هذه الفضلات، نؤخر التحولات الجذرية للنظام العالمي، الذي يملك طاقة محدودة لتحمل الاختلالات الكبيرة. وستكون بذلك الوسيلة الوحيدة لتغيير النظام الدولي وليس فقط لتكيفه مؤقتا.

ومن الطبيعي أن يكون مصطلح "الاعتماد على النفس" غير مفهوم. ففي الخمس السنوات القادمة، ستظهر ثماره ؛ وفي ذلك الوقت، ربّما ستقبل الدول المتقدمة هذا المصطلح وستفهم تبعاته. لقد كان هناك دائما تفاوتٌ بين ظهور أشكال جديدة للتعاون، وقبولهم من طرف الدول المتقدمة. ولقد قدمت المثالين السابقين، لإظهار العلاقة بين مشاكل التنمية على الصعيد الوطني من جهة، والقيود المفروضة عليهم على الصعيد الدولي من جهة أخرى.

على الصعيد الدولي، علينا أولا وبسرعة، اعتبار التطور الذي حدث في مجال التنمية. لقد ظهرت ـ وبصفة رسمية ـ فكرة المساعدة التقنية والتعاون التقني سنة 1949 مع تبنّي قرار من طرف الجمع العام لخلق برنامج للمساعدة التقنية. وبعد عدة مشاكل، وصلنا إلى برنامج موسّع للمساعدة التقنية، وفي أواخر سنة 1950، توصلنا إلى اتفاق لإنشاء صندوق خاص سنة 1958، تطلّب انشاؤه أكثر من أربع سنوات من المناقشة داخل اللجنة الثانية للجمع العام بهيئة الأمم المتحدة.

ومن 1963 إلى 1965، تناقشنا طويلا حول ذوبان البرنامج الموسع للمساعدة التقنية والصندوق الخاص، والذي تولّد عنه برنامج هيئة الأمم المتحدة للتنمية PNUD. ولكن لحد الآن لازلنا فقط في فترة ما قبل الاستثمار. وعندما نتحدث عن مشكل صندوق الاستثمار، نلاحظ تعارض المبادئ اللامعقولة عند الدول العظمي، والتي يفضّل بعضها أن تنحصر هذه القضية في إطار مجموعة البنك الدولي، الذي يعطي ضمانات (تصْويت نسبي Pondéré) تصْدُر من مراكز القرار، لا نجدها داخل هيئة الأمم المتحدة.

إن برامج ما قبل الاستثمار متعددة نسبيا، لكن متفاوتة الأهمية من حيث الموارد المالية. وأهمّها برنامج هيئة الأمم المتحدة للتنمية (PNUD) والذي أشرنا إليه سابقا.

إن السيد بول مارك هنري Paul Marc Henry، والذي سيكون بينكم غدا، أكثر تأهيلا للحديث عن هذا الموضوع، نظرا لخبرته الطويلة في هذا البرنامج. هناك أيضا برنامج التغذية العالمية، والذي سيتحدث عنه السيد عزيز سرتاج SARTAJ Aziz، وكذلك خبراء في اليونسيف وكذلك المندوبية السامية الدولية للاجئين، فضلا عن برامج التعاون لجميع الوكالات المتخصّصة وجميع المؤسسات التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

إن القيمة الحقيقية لهذه البرامج، لا تكمن في المبلغ المالي المرصود لها؛ ومن تم يفضل البحث عنها في الطرق التي تؤدي إلى تحديد الغايات في إطار استراتيجية عامة، حيث يحاول كل قطاع أن يندمج في قالب سياسة عامة للتنمية. إنني أعلم أن هذه نظريات غالبا ما تتطلب مناقشات طويلة داخل الفروع التابعة للمؤسسات الدولية، كما أنّها تتسم ببيروقراطية ثقيلة تعطل العمل. إن هذه العرقلة الإدارية غير متكافئة مع ضآلة المجهود المالي للمجتمع الدولي.

على أي حال، يبقى الجانب الإيجابي قابلا للتحديد. إنه يكمن في التعاون وتبادل الأفكار التي تؤدي إلى مصادقة هذا البرنامج. كما نجده أيضا في التحليل، وفي دراسة المشاكل التي تساعد على تحديد المشاريع.

وهنا تظهر الاستراتيجيات والأهداف الدولية، وهو أمر ليس بالهين عندما ندرك الصعوبات الناجمة عن هذا العمل على الصعيد الوطني، والذي بدونه يكون مصير كل عمل دولي هو الفشل.

إن البرمجة القطاعية (Par secteur) من طرف المؤسسات المتخصّصة وتحضير استراتيجيات قطاعية (Sectorielles) عالمية، لها حدود مادام أنه ليس بإمكاننا التطرق إليها مجتمعة.

إن وضع أمريكا الوسطى يختلف عن الوضع في إفريقيا الشمالية، والوضع في افريقيا الغربية ليس هو وضع آسيا جنوب الشرقية. وتصور استراتجيات ميدانية يضع عدة تحدّيات، لأن الوصول بواسطة هذه الأخيرة إلى رؤية شاملة للتنمية صالحة للتطبيق للعالم بأكمله، لهي غاية فكرية محمودة ومقاربة نافعة، بشرط أن تعترف بتنوع المقاربات، بمعنى أن الحل الأحادي غير وارد.

وسيكون من الخطأ الاعتقاد بإمكانية التحكّم في مقاولة من هذا الحجم باستعمال مجموعة من الأفكار المحورية والنماذج والمعادلات الرياضية والإحصائية. إننا ننسى أن كل بلد له الحق في تصوره الخاص للتنمية، وبداخل كل بلد، لكل شخص أيضا، الحق في تصوره الخاص.

إنني أتحدث عن التنمية بكل معنى الكلمة. فإذا أخذنا قطاع الصحة، نجد أن المنظمة العالمية للصحة تقترح وسيلة للقضاء على الملاريا في جهة ما من العالم، حيث يكون بإمكاننا ؛ بل يتوجب علينا أن نطبّق تعاليمها. ونفس الشيء بالنسبة لجل الآراء الظرفية الصادرة عن مجموعة من الوكالات لهيأة الأمم المتحدة، كل حسب ميدان تخصّصه.

ولكن لا يعقل أن نحاول فرض وصفات شاملة موحّدة لحل مشكل التنمية، والذي لا يقبل بحلول نهائية ؛ باعتبار أن أحد أسباب الوجود لدى الإنسان، هي البحث الدائم عن سبب الأشياء، ولأن المعايير تتغير والقيم الاجتماعية الثقافية، وهي محور غائب عند بعد الاقتصاديين في نماذجهم، والتي تلعب دورا أساسيا.

وتختلف القيم والأهداف والحاجيات، من جيل لآخر. ولذلك، لا حق لنا في فرض منظومة القيم التي سينتج عنها تصور جامد للتنمية. وهذا الجانب الأخير للمشكل، يرتبط بالجودة والخلق والخيال واللاموضوعية والعاطفة. ولا يمكن لنا إدماجه في منهج محدّد ولا حتى الاستفادة من استراتيجية التنمية في قالب رياضي محض.

وهذا البحث الدائم حول التنمية، لا ينحصر فقط عند مستوى منظومة القيم، ولكن على المستويات الجيوسياسية والجيوثقافية داخل نفس البلد، بين الدول المجاورة أو داخل دول من نفس القارّة. حيث قد نبحث هنا عن انسجام سياسي، وهناك عن انسجام ثقافي، وفي منطقة أخرى، عن اندماج اقتصادي ؛ هذا إن لم يتم البحث عن الثلاثة في الوقت نفسه.

إن التنمية ظاهرة جد مركبة، وتستوجب انفتاحاً فكرياً واسعاً لفهم حركيتها ؛ وهذه الحركية تكمن في التفاعلات الدائمة بين مختلف مستويات التحليل التي سبق التطرق إليها. وبدون الوعي بهذه الأمور، هناك تخوّف من العمل على أساس نماذج جامدة التي قد لا تسمح بأي تكييف منتظم، تفرضه استراتيجية التنمية. إنّه تكيّف يجب إدراجُه مسبّقا، حتى وإن لم ندرك طبيعته بالضبط، عوض مواجهته بطريقة عشوائية.

إن الإنسان مرادف للتطور والتغيير. والتطور الذي يثيره أو يخلقه من خلال تراكم التحولات، لا يمكن فهمه نوعيا إلا كطفرة ؛ وهذه الطفرة عندما تحدث تشكّل محطّات كبرى في تاريخ الحضارات.

ولماذا التأكيد على الجوانب ما بين القطاعات (intersectoriels)، وما بين الاختصاصات (interdisciplinaires)، والسوسيوثقافية للتنمية ؛ بينما لا أحد يجهل أهمية الجانب العلمي والتقني والتكنولوجي للتنمية ؟ وأمام هذا الجمع من الدبلوماسيين ذوي التجارب، المطالبين بالقيام بمهمّات عالية عبر العالم، والذين سيواجهون مشاكل مرتبطة بالتنمية كيفما كانت طبيعة عملهم ومقرّ تعيينهم، ارتأيت إثارة هذه المناقشة حول مقاصد هذه التنمية.

هناك ميل قوي للتخلّي عن المقاصد، لأن تعقد المشاكل والغياب المتزايد للتفكير المعمّق يؤديان إلى التخصيص (sectorisation) والتجزيء (segmentation)، لكي لا أقول التقطيع الذي يفرضه هذا التخصّص. حيث نصل أحيانا إلى درجة من الانقسام، تجعلنا في عزلة عن الروابط الأفقية

الضرورية لإدراك ماهية عملنا وانفتاح فكرنا ؛ وبدون هذا الانفتاح لن نصل إلى رؤية شاملة ولا حتى إلى خلاصة أو استيعاب ديناميكية ومقاصد التنمية، وتظهر هنا ضرورة المستقبليات.

تجربتي باليونسكو كمسؤول مستقبلي وكمسؤول حاليا على الأشغال بالفدرالية العالمية للدراسات المستقبلية ـ التي يوجد مقرّها بعاصمتكم الجميلة ـ أقنعتني بالدور الأساسي الذي تلعبه رؤية المستقبل في أية استراتجية أوسياسة تنموية. إن المعيار المستقبلي ضروري، وهو يختلف عن التخطيط الذي يقوم على تحليل المعطيات بمقاييس وخيارات تسمح بإسقاطات ميكانيكية شيئا ما. إنه تمرين صعب وجد نافع، ولا نية لي بالتقليل من أهميته ؛ لكنه غير كاف. إن المنهج المستقبلي الذي يغطي فترة أطول (من 20 سنة ما فوق)، يكمّل ويصحّح التوقّع ؛ لكن إسقاطاته ليست خطيّة، لأنها تأخذ بعين الاعتبار التغيّرات النوعية والطفرات المهمّة.

إن المستقبليات ليست حكرا على المثاليين أو الحالمين ـ وهي أبعد ما تكون مخجلة ـ فعلى عكس ذلك، فإن دورها يتحول إلى أداة للقرار والعمل، لأنه في كثير من المجالات، يجب أن نكون على استعداد حتى نصل إلى حلّ صالح للبقاء. إذ من غير المعقول ومن غير الممكن لأي إصلاح في مجال التربية مثلا أن يعطي نتائج مقنعة قبل 15 أو 20 سنة على الأقل.

إن جميع وزراء التعليم في جميع أنحاء العالم ـ وأثناء مأموريتهم والتي حسب المقياس العالمي لا تتعدى 24 شهرا خلال الثلاثين سنة الماضية ـ يرغبون في إصلاح مناهج التعليم ويريدون جني ثمرة إصلاحهم في فترة تقل عن سنتين. فما الذي يفعلونه ؟ إنهم يقومون بإنشاء بنايات تدشّن ببهرجة، ويُرقّعون البرامج، ويقومون بعملية تغيير رؤساء المصالح. وإذا سمحت لهم فترة تفويضهم كوزراء، فإنهم ينظمون بعض الندوات الوطنية لتقييم نتائج ما سموه "بإصلاحهم".

إن أي إصلاح في التعليم، يستوجب أساسا الاهتمام بعقلية أولئك الذين سيطبّقونه. وتبدأ الانطلاقة في التفكير على الأمد البعيد لفترة تعادل 20 سنة

منذ بداية العملية (أعني الطور الابتدائي/الثانوي/الجامعي). ذلك أن الأشخاص الذين سيدرِّسُون حوالي عام 2020 سيدخلون إلى المدرسة هذه السنة، وإلى حد ما، يكون قد فات الأوان على إصلاح سنجني ثمرته في الحاضر القريب.

فإذا علمنا أن 70% من الميكانزمات للتعلّم عند الإنسان تكتسب قبل سن السّابعة سوف ندرك بسهولة، دور المكوّنين وذوبان المناهج التربوية، الذي يفرض نفسه على جميع المستويات. ذلك أن غياب كل إصلاح جديد بهذا الإسم وغياب رؤية على المدى البعيد، من الأمور التي تفسر لماذا لم نستطع استعمال أكثر من 10% من قدراتنا الذهنية.

إذا كانت المستقبليات تفترض توقع الخطأ، فلأنها تبحث عن "المرغوب فيه" ولا تقتصر على "الممكن"، وتُعِدّ مكانزمات تقويمية احتسابا لتطوير الأوضاع. إنها منظومة منفتحة وديناميكية، تنطوي على أفكار غير جامدة يبقى فيها عامل الزمن مفتوحا.

إنني أؤكّد دوما، أنه بدون مستقبليات، قد يكون من الصعب التحدّث عن إشكالية التنمية، لأن المستقبليات تدمج التنمية وتعتبرها كظاهرة باطنية، لها أهداف ومقاصد قبل ظهورها بوقت طويل. وفي تحليل المنظومات، ندرك أنه لا جدوى من أي منظومة إلا إذا كانت لها مقاصد.

وهذا المقصد في حالة النظام العالمي، لا همّ له إلاّ السلام ؛ إنه الهدف الرئيسي لجميع المؤسسات التابعة لهيئة الأمم المتحدة. إن حدة المشاكل التي تمسّ البقاء وأبسط شروط العيش لمئات الملايين من الناس، تعطي اليوم لكلمة السلام معنى الأولوية. إنه إشباع الحاجيات الأساسية لجميع الناس، مع توفير العدالة الاجتماعية وضمان حقوق الإنسان، والتي بدونها لن تكون هناك أي تنمية. والمؤسسات الدولية تعي اليوم هذه الأمور جيدا. لأنها تشكّل في الواقع خطوة أولية لمجتمع الغد، لكنّها تعاني من احتياط النظام الدولي ؛ حيث بعض الدول العظمى لا زالت تحافظ على عقلية الماضي ولم تغير عقليتها القديمة.

هل بإمكاننا أن نكون متفائلين بالنسبة للمنظمات الدولية ومساهمتهما الفعّالة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبشرية جمعاء ؟ بالنسبة لي، ليس لديّ خيار آخر لحد الآن. ولا أعتقد أن هناك مؤسسة أخرى تستطيع القيام به. إن الأزمة التي تمر منها الآن هذه المنظمات في نظري، لهي من أحسن الدلالات على بداية نجاحهم ونضجهم ؛ وهذه الأزمة ما هي إلا نتيجة لتخوّف عدد كبير من الدول، أمام الدور المتصاعد الذي تلعبه المؤسسات الدولية على مستوى إقرار القواعد الدولية في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتجميع وتحليل المعطيات، وابتكار أفكار جديدة من خلال عدد من المؤتمرات والمنتديات المتواصلة، والأنشطة العملية، التي انخفض معدّل نموّها منذ بضعة سنوات.

إن أكبر أزمة يجب التغلب عليها، هي أزمة الهوية. والدول التي خلقت المؤسسات الدولية تخشى أن تُعرّض سيادتها للخطر، لو حققت تلك المؤسسات الدولية أهدافها. وهذا مشكل صُوري، لأن ما هو عُرضة اليوم للخطر هو بقاء البشرية.

لقد سمحت إشكالية التنمية للمنظمة الدولية بتحقيق قفزة كبيرة نحو الأمام، لأنها أثبتت بوضوح أن قدر البشرية من الآن فصاعدا، متعلق كليا بإعادة التنظيم، وبتضامن بشري كوكبي.

وفي الختام، ندرك أن المنظمة الدولية للتنمية، ما هي إلا صرخة أمل أولا؛ وبالتالي فهي فعل إيمان.

2

مستقبل القيم الاجتماعية الثقافية لدول البحر الأبيض المتوسط(*)

سيداتي سادتي،

يغمرني إحساس قوي، وأنا أتحدث إليكم اليوم في إطار السلسلة الأولى من المحاضرات التي ينظمها المعهد الوطني للمستقبليات بالتعاون مع وزارات الشؤون الخارجية والدّفاع. فبعد مرور ستة أشهر بالضبط، وعلى مقربة يومين من 20 ماي 1977، كان الملك خوان كارلوس، يستقبل المشاركين في ندوة حول المستقبليات الاجتماعية المنظمة تحت رعاية المعهد الوطني للمستقبليات.

وأثناء هذه الجلسة، سمحت لنفسي ـ بصفتي رئيس الفدرالية العالمية للدراسات المستقبلية ـ بإبراز الأهمّية التي يجب أن نوليها للدراسات المتعلقة بمستقبل البحر الأبيض المتوسط، وخصوصا على المستوى الاجتماعي والثقافي ؛ مع التوضيح، أن المنظمة التي حصل لي الشرف برئاستها، كانت مستعدّة لتنظيم مؤتمر دولي في هذا الموضوع.

كان موقف صاحب الجلالة جد إيجابي، ولكن ما أريد أن أسجل، هو السرعة والفعّالية، التي نظّم بها المسؤولون على المعهد الوطني للمستقبليات (والذين كانوا حاضرين في هذه الجلسة) هذه السلسلة من المحاضرات، وهي بداية ممتازة لمشروع دولي مهم للمحاضرات والأبحاث والمقالات، التي يجب تخطيطها.

(*) نص المحاضرة التي ألقيت في الطور الأول من المحاضرات حول مستقبل البحر الأبيض المتوسط تحت رعاية المعهد الوطني للمستقبليات (رئاسة الحكومة) بمدريد، يوم 18 نونبر 1977.

إنها أحد أسباب سروري. والسبب الآخر هو كوني مغربي، وبالنسبة إلى المغربي ؛ فإن تواجده بالديار الإسبانية هو دائما مصدر فرح وإلهام.

وهذا الوجدان الفكري لكي لا أقول الروحي، لازم المغاربة والإسبان، عبر التاريخ، باستثناء فترات عصيبة جدا وكذا فترات الصراعات. وهو ما ينطبق على العلاقات بين مجموعة من دول البحر الأبيض المتوسط، وهذا لا يعني أن العلاقات بين هذه الدول لم تعرف نزاعات أو حتى حروباً ؛ مع العلم أن التواصل، بمفهومه الواسع والكامل، لم يتوقف أبدا بين هذه الدول وشعوب هذه المنطقة. لماذا ؟ برأيي أن الجواب يكمن أساسا في منظومة القيم وخصوصا القيم الاجتماعية الثقافية.

وقبل التطرق إلى مستقبل القيم الاجتماعية الثقافية لدول حوض البحر الأبيض المتوسط، يبدو من المفيد ذكر نقطتين باختصار :

1 - إن إحدى القضايا الأساسية بالنسبة لدول حوض البحر الأبيض المتوسط، تتعلق بمستقبل ثقافاتهم ؛ لأن هذا المستقبل مرتبط بجميع الجوانب الأخرى للتنمية : الاستراتجية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الخ. أضف إلى ذلك، أن هذا المستقبل غير قابل للانقسام، لأن هناك ثقافة متوسطية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني سامية.

2 - إن الفرضية السابقة، قد يظهر فيها شيء من المبالغة بالنسبة لأولئك الذين لا يهتمون بالماضي ولا بالاطلاع على كتب التاريخ. وحسب تجربتي، فإنني أدرك أنه كلما ازددت اهتماما بالدراسات المستقبلية، زادني ذلك شعورا بالحاجة لترسيخ رُؤيتي على أسس تاريخية صلبة.

إن ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط بالأساس، هي رؤية المستقبل ؛ وتاريخ هذه المنطقة عبارة عن تاريخ الإرادات الجماعية لتحقيق المستقبل والأهداف على المدى البعيد. وقد لقّنت الديانات الكبيرة التي تؤمن بالله والتي لها علاقة وطيدة بالبحر الأبيض المتوسط، لساكنيها عظمة المستقبل خاصة من الناحية الروحية، بإقناعهم بحياة أخرى في الآخرة. وهذا أيضا

شجع على خطّة مستقبلية تهدف إلى تحسين العالم المقبل. فلا أثر للحضارة، إلاّ إذا كان هناك بعد للنظر وإيمان وراء هذه الرؤية.

وبما أن هذه المنطقة كانت دوماً مهدا لعدد كبير من الحضارات، فمن البديهي أن تُصبح المستقبليات، الخاصية الثانية لهذا المهد.

إن القدر الأعمى، والذي لا علاقة له بالإيمان، لم يظهر إلا في عصر الانحطاط. وكخاتمة لهذه الملاحظات التي سبق ذكرها، سأقول ان ماضي هذا الحوض يكمن في مستقبله ؛ وبما أننا بصدد ثقافات متحركة ومستقبلية، فإن ماضيها لا يمكن استيعابه، إلا إذا أدركنا أنه جزء من المستقبل.

لنرى الآن، أين نحن من القيم الاجتماعية الثقافية، وإلى أي اتجاهات سيقودنا المستقبل. فإذا كان هناك من أمر غير مشكوك فيه في الدراسات حول هذه المنطقة ؛ فهو ذلك الانسجام الجيوثقافي لهذه المنطقة في العالم. هذا الانسجام الذي ساعد على تنوّع القيم الاجتماعية الثقافية، التي تكمّل بعضها البعض ؛ كما أنّه ساعد أيضا على انفتاح فكري واسع، وعلى التسامح بين الناس، الذي قلّص الفترات المؤقّتة من التعصّب عند الحكّام. وبفضل هذه الخاصّيات، استطاعت هذه المنطقة أن تحافظ على الانفتاح الذاتي أولا، والانفتاح على العالم ثانيا.

هناك فترات يؤدي فيها الانفتاح التلقائي، وليس الانتقائي ؛ إلى غزو كبير وإضعاف أعزّ ما للإنسان : هويته الثقافية، وهي الخلاصة وسبب وجود منظومة القيم. أما بخصوص الأسئلة التي تطرح نفسها - في رأيي - بالنسبة للحوض على هذا المستوى، فهي التالية :

1 - هل وصلت الضغوطات السياسية والاقتصادية والثقافية اللا متوسطية إلى درجة من الحدة ؟

2 - ما هي حاليا قدرة منظومة القيم المتوسطية على المقاومة ؟

3 - ما هي قدرة ثقافة المتوسط على التكيف والتطور أمام التطورات الداخلية والخارجية التي تفرغ وتتحمّل في نفس الوقت في عالم يزداد اعتماده على التضامن ؟

4 - ما هي درجة وعي سكّان المنطقة وحكّامها، بالمشاكل وأولوية التفكير في حلول مستقبلية ؟

في نظري، إن هذه الأسئلة الأربعة، لا علاقة لها بأي حزب سياسي أو مذهب إيديولوجي ؛ فأنا لا أناصر القومية المتوسطية المتعصبة. إن اهتمامي من نوع آخر :

لدينا إرث نستهين به، وهو الذي يخبرنا أنه ليس إلا خلفية أو مرجعية (soubassement) للحضارة، والتي كي تحافظ على نفسها، يجب أن تتطوّر وتتغيّر بانتظام. إن ديمقراطية الغد، تدعو إلى عدم رهن مستقبل الشعوب، وإلى إشراكهم في اختيار الفروع الثقافية التي تحدّد مستقبل منظومة قيمهم. أنا لا أتحدث هنا عن قومية ضيقة، ولكن عن حركة لتحرير المستقبل، للمحافظة على دفع الماضي إلى الأمام وتفادي الانسلاخ الثقافي : وهو سبب جزء كبير من أمراض هذا العالم الحديث.

والآن لنرجع إلى الأسئلة الأربعة التي ذكرناها سابقا - أعتقد أن الضغوطات اللا متوسطية قد وصلت إلى مرحلة سيئة على المستوى الثقافي وذلك بسبب غياب رؤية متوسطية. إن الطبيعة لا تحب الفراغ، ناهيك عن الثقافة. من الواضح أن مستوى التواصل الثقافي بين دول البحر الأبيض المتوسط أضعف مما كان عليه بين القرن 18 والقرن 16 - ويكفيكم تصفّح الدراسة التي قام بها فرناند بروديل Fernand Braudel، «البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليپ Philippe»، لتقتنعوا بالأمر. وأحد الحلول الناجعة تكمن في تعزيز التبادل الثقافي بين دول هذه المنطقة. من جهة أخرى، ابحثوا في التحاليل الإحصائية حول أصل البرامج التلفزية،

والأفلام السينمائية والأسطوانات الموسيقية التي تذاع في دول البحر الأبيض المتوسط، وستطّلعون على بقية الأدلة، إذا دعت الضرورة.

وفي هذا الباب، سأذكر لكم جملتين جد مناسبتين لبروديل Braudel :

«إن الحضارات الحيّة هي القادرة على تصدير خيراتها من بعيد وهي القادرة على التنوير. إذ لا يمكن تصور حضارة ما لا تُصدّر أشخاصا، ونماذج للتفكير أو العيش».

ولنقم بتقييم ثقافي لسنة 1977، حتّى نتبين مدى خسارة هذه المنطقة. إن مستوى هذه الخسارة، هو الذي يشير إلى النقطة الحساسة.

أما بالنسبة للسؤالين 2 و3 المتعلّقين بقدرة الحوض على التكيف، فأعتقد أنها كبيرة، ولكن الكل متعلق بعامل الزمن. إن التاريخ يظهر لنا من جديد أن الحضارات المتوسطية، قاومت وباستمرار التأثيرات الخارجية. ونستطيع دائما أن نحافظ على منظومة قيمنا بعد ركود ثقافي. والسؤال المهم، هو ضبط المدة الزمنية. والجواب يرتبط بعملنا اليوم كاستثمار للغد، لأن الغد متأخّر بالنسبة لما بعد الغد. إن كل يوم مفقود يؤخر بيومين. وإذا مررنا إلى العمل بسرعة، وأعني قبل نهاية العقد الحالي، سيكون لنا أمل في الحصول على توازن بين العطاء الثقافي الخارجي والإبداع الداخلي في أواخر القرن - أعني الوقت الكافي لجيل - إذا كنا متفائلين.

إن الكمال ليس من طبيعة هذا العالم، وخصوصا فيما يتعلّق بمنظومة القيم، حتى ولو كانت متوسطية. لذلك، يجب الاستعداد لبعض التحولات، عندما يتعلق الأمر بتكيّف وتطور القيم في المستقبل ؛ وأهمّها ربّما، تلك التي تمسّ بنية الأسرة. إننا نلمس توجها كبيراً في معظم دول البحر الأبيض المتوسط بخصوص مفهوم العائلة وتبعاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وبدون الدخول في الاعتبارات التاريخية، سواء لنقد أو تبرير ظاهرة ما، نلاحظ أن وضع المرأة، هو الذي أدّى الثمن ؛ وكل تحسين حقيقي لهذا الوضع، لن يتحقق إلا بتغيير حقيقي لمنظومة القيم الناتجة عن بنية الأسرة.

إن التغيير بطيء لكنّه آت. إنه مجال يستحق الاهتمام ويستوجب دراسات مستقبلية جدية، لأن له تأثيرات مباشرة على مجموعة من القيم الثقافية الأخرى.

بعد مرور 7 سنوات (وفي سنة 1970)، نظمت وزارة التعليم بإسبانيا وتحت الرعاية السامية لجلالة الملك خوان كارلوس، لقاء دوليا حول موضوع «التربية سنة 2000». حيث إن الوعي بمشاكل القيم، مثل مشاكل المستقبل، كانت موضع اهتمام دائرة ضيقة جدا، والتي كانت أحيانا تحظى بالاحترام نظرا لقناعاتها، إن لم أقل تحمّسها ؛ لكن نادرا ما تؤخذ على محمل الجد. ومع ذلك، فخلال هذه السبع السنوات الأخيرة، فقد قطعنا شوطا كبيرا جدا. كان هناك اهتمام ملموس عند مختلف طبقات المجتمع ناتج عن اكتراث متصاعد بالمستقبل وتطلّع إلى ما هو جديد أيضا.

وعلى مستوى الحكّام، أصبحت أهمّية المستقبليات مقبولة فكريا، لكونهم يدركون على أن إطارها الزمني يفوق وبكثير الدورة السياسية التي لا تتعدى عادة 6 سنوات، ومخططات التنمية التي لا تتجاوز 5 سنوات على الأكثر. فالمستقبليات ليست إذن إجرائية على المستوى السياسي، بمفهومها الضيق والأكثر أهمية.

إنها ظاهرة إنسانية، وهي في حد ذاتها خلاصة منظومة قيم اجتماعية وثقافية متطورة ؛ لأننا ندرك شيئا فشيئا، أن المشاكل أصبحت معقّدة لدرجة يستحيل حلّها دون تصوّر على المدى البعيد من جهة، ودون إعطاء مكانة خاصة للعوامل والقيم الاجتماعية والثقافية من جهة أخرى. إن مستقبليات القيم الاجتماعية والثقافية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط، تشكّل تحدّيا على مستوى الدراسة والعمل. وليست المستقبليات بمجال محايد، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بالقيم. إنها قضية إيمان بقدرة الإنسان على تحسين وضعه، إن هو أخذ بزمام الأمور في وقت مبكّر. ويتعلق الأمر بطريقة مفتوحة تساعد على إبراز عناصر التوقع وتعدّد الخيارات. إذ عادة ما نصبّ اهتمامنا في إشكالية، بدل المشاكل الشخصية، حيث يتطلب الأمر مقاربة شاملة ومتعددة الاختصاصات.

وهكذا، فإن مستقبليات القيم الاجتماعية والثقافية لدول البحر الأبيض المتوسط، لا تهتم بالقيم الشخصية (التسامح، الإيمان، حسن الاستقبال، الشرف، الكرامة، الارتباطات العائلية والرحمة...)، بقدر ما تهتم بالقيم ذات التصور الشامل للإنسان. لأن ما هو موضع خطر في المستقبل، هو : البقاء، والتكيّف والتطور البشري للمنطقة التي تفوق التنوع الديني والإيديولوجي، وخصوصيات كل منطقة على حدة. ومن هذه الرؤية للإنسان، تصدر «مناهج التفكير والعيش» على حد كلمات بروديل ؛ وهي ما نسميها اليوم بطرق العيش أو أساليب الحياة.

من جهتي، فأنا متفائل بالنسبة للبقاء، وحتى بالنسبة لمستقبل جديد للإنسانية المتوسطية ولمنظومة قيمها. وهذا التفاؤل الحالي، مبني أساسا على ماضي دول البحر الأبيض المتوسط وعلى قليل من الحاضر. والسؤال الذي يطرح نفسه، هو : كم من الوقت سيستغرق ؟ أما السؤال المرتبط بهذا السؤال ، فهو : كم من الوقت نحتاج إلى إدراك الإشكالية ؟ إن المركز الوطني للمستقبليات، بتنظيمه لهذه السلسلة من المحاضرات، يكون قد أعلن عن مبادرة مناسبة، أتمنّى أن تُطَبّقَ في باقي دول الحوض المتوسطي. إن الاتحاد الحقيقي المتوسطي، كان دائما متجسّدا في حركة الأشخاص والأفكار، وليس في الخيرات المادية ؛ إنه قدر جماعي يحمل أخطاره، لكنه يتطلب كثيرا من الخيال، والحلم والأمل والحبّ.

3

التعلم من المهد إلى اللحد وتحديات المستقبل(*)

... إن حلول المعضلة العالمية، تمثل نهاية عهد كان التعلم فيه غير متاح لمجموعة من البشر، دون أن تكون هناك عواقب وخيمة لذلك. ولم يعد من العملي أن نركن إلى نظم تعليمية، حين أصبح الناس يشعرون شعورا متزايدا بحقوقهم وبقدرتهم على دعم، أو على إعاقة ما يفرض عليهم من نظم فوقية. وبغض النظر عما يتصف به أي تجديد للتعلم على أساس العرق أو الجنس أو الثقافة أو الجنسية، من دونية ولا أخلاقية ؛ فإن الإنسان لم يجد الطريق لإحداث صيغ عالمية للتفاهم أو التعاون أو المساهمة أو التشارك من جانب الجماعات الناقدة الساخطة في الوقت القصير الذي يتطلبه ذلك غالبا. ويمكن النظر إلى التعلم عن طريق الصدمات، على أنه نتيجة من نتائج الاستعلاء والتكنوقراطية والتسلطية، وأنه يأتي عادة بعد عهد من الثقة الزائدة في حلول، يتوصل إليها أهل الخبرة والتكنوقراطيين ويجعلونها تستمر في ظروف لا تصلح لها. فإذا جاءت الصدمة العالمية، يصبح الكثير من إنجازات العلم والتكنولوجيا مرفوضا، ويكون هذا الرفض رد الفعل ضد استعلاء المتعالين وتكنوقراطية التكنوقراطيين.

يضاف إلى هذا، أن المعضلة العالمية تؤثر في الأربعة بليون ونصف البليون من سكان هذه الأرض، وهم متجمعون في 150 دولة وأمة ؛ وموزعون

(*) استخراج بعض النصوص المرتبطة بـ«القيم» في تقرير نادي روما «من المهد إلى اللحد» من تأليف J. Botkin، M. Mahtza والمهدي المنجرة ونشر Perganon Press تحت عنوان : «لا حدود للتعلم» «من المهد إلى اللحد» سنة 1979 وقد ترجم إلى عدة لغات (12 لغة).

في أراض تعبر حدودها التيارات الثقافية والحضارية. ولهذا كله، فهي تتطلب من التعلم نمطا لا يعنى بالحفاظ على القيم بقدر ما يعنى بابتداعها وابتكارها. ولا يجوز أن يكون في البحث عن قيم عالمية مشتركة أساسية، إهدار لما في الثقافات من تنوع وحيوية وخصائص ذاتية، تتعلق بنظمها القيمية. فبينما نعترف لكل جماعة بما تدعيه وتنادي به من شخصية ثقافية، فإنها مطالبة هي كذلك بدعم المسؤولية المشتركة نحو حل المشكلات العالمية.

إضافة إلى هذا، فإن النمط التقليدي للتعلم المبني على الصدمات والهادف للصيانة، نمط غير كاف لمواجهة التعقيدات العالمية. فإذا لم يتوقف، فإنه من المحتمل أن يؤدي إلى واحدة أو أكثر من النتائج الآتية:

أ) فقدان السيطرة على الأحداث والأزمات، مما يؤدي إلى صدمات مكلفة للغاية، تكون إحداها هي الصدمة القاضية.

ب) إن التخلف المهم للتعلم المحافظ، لا ييسر الإمكانات السانحة بتفادي كل أشكال الأزمات المتعاقبة.

ج) إن الاعتماد على الممارسين للبيداغوجيا الكلاسيكية وعلى الفترات القصيرة للتعلم بالصدمة، من الأمور المؤدية إلى استيلاب عدد من الناس وإلى إزاحتهم إلى هامش الموقف.

د) يؤدي انعدام القدرة على التوفيق السريع بين القيم المتصارعة تحت ضغط الأزمات، إلى فقدان الكرامة الإنسانية وتحقق الذات.

والنتيجة المحتومة لاتباع أي مسار من هذه المسارات، هو أن تظل البشرية متخلفة عن الأحداث، وتستمر عرضة لمفاجآت الأزمات. والسؤال الهام الذي يفرض نفسه علينا، هو ما إذا كانت البشرية قادرة على توجيه مسارها إلى مصيرها، أم أن مصيرها وظروفها وأحوالها تحددها الأحداث والأزمات.

يترتب على إهمال السياقات إعاقة التعلم. وفي العادة تنشر المعلومات ويفترض أنها ستكون مفهومة بصرف النظر عن سياقاتها.

ولكن نجد أن العبارات والمعايير والقيم والأعمال الفنية والثقافية والوسائل التكنولوجية والمعلومات، كل هذه تذاع وتنقل من مكان إلى مكان، أو من مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى، أو من فرد

إلى آخر، على أساس أنها أمور مفهومة، وذلك بغض النظر عما نشأت فيه من سياقات أخرى، إذ لا يمكن أن يكون التعلم المجرد، مجرد هضم لمدخلات تنتج عنه مخرجات، كما لا يمكن أن يكون مجرد عملية لربط بين الأشياء والقيم.

ولكي نزيد من قدرة الفرد على التصرف في المواقف الجديدة وعلى تناول الأحداث غير المألوفة ؛ فإن التعلم المجدد، يحتاج إلى امتصاص تشكيلة كبيرة من السياقات. فإذا تحدد عدد السياقات، فإن احتمال التعلم بالصدمة يزيد. ويمكن تعريف الصدمة بأنها الحدث المفاجئ الذي يقع خارج السياقات المألوفة. وبالتالي، فإن إحدى مهمات التعلم المجدد، هي المسارعة بتنمية قدرة الفرد لكي يجد ويمتص ويبتدع سياقات جديدة. أي بعبارة أخرى، يثري وجود السياقات المتاحة. فإذا كان المتاح من السياقات غير قادر على تقديم التشابه مع الأحداث الجديدة أو غير المتوقعة، فإن علينا أن ننمي القدرة على تكوين أطر عقلية بديلة مناسبة.

ولكن، هل يؤدي هذا التناول إلى الذاتية (اللاموضوعية) العارية، بما فيها من كون الحقائق كلها نسبية ؟ فإذا كان كل شيء يعتمد على السياق، فأي فرصة تتبقى لخلق شعور عالمي موحد، يتجه لحل مشكلة يشترك في مواجهتها كل سكان هذا الكوكب ؟

وللإجابة، نقول إن إثراء السياقات يحتاج إلى قدرة مصاحبة. فلكي نتجنب أخطار الاتجاهات الغاشمة أو الأحكام الضيقة المتحيزة، فمن الضروري أن ننمي القدرة على الموازنة بين مختلف السياقات وإزالة ما بينها من صراعات.

إعادة تنظيم القيم والعلاقات الإنسانية والتمثلات كعناصر لسيرورات التعلم

إن العناصر التي تتذرع بها كل عملية من عمليات التعلم، تشتمل على اللغة وعلى الأدوات وعلى القيم وعلى العلاقات الإنسانية وعلى التمثلات.

كل تعلم ووسائله هي اللغة والأدوات والقيم والعلاقات الإنسانية والتصورات.

وهناك جوانب أخرى، يمكن إضافتها إلى هذا الثبت (الكشف) ؛ غير أنها تستحق معالجة خاصة وتوكيداً. فهي عوامل أساسية تمكن من التفاعل بين شخص وآخر والتفاعل بين الفرد وبيئته المادية، وبين الإنسان من جانب، والطبيعة من جانب آخر.

ومن شأن التعلم للصيانة، من حيث نظرياته وممارساته، أن يمنح اللغة مكانة رفيعة على حساب العناصر والمجالات الأخرى. أما الأدوات فما زالت لها بعض القيمة، ولو أنها تعتبر في الغالب وسائل من الدرجة الثانية. وقد أصبحت بقية الأمور، إما ضمنية أو محدودة تحديدا شديدا. فموضوع

قد قلل التعليم للصيانة من قيمة العناصر اللازمة للتجدد. ومن هذه العناصر نخص بالذكر القيم والعلاقات الإنسانية والتصورات.

القيم أصبح يقتصر على بقاء الحال على ما هو عليه. وموضع العلاقات الإنسانية، أصبح غير ذي علاقة، ووجب إهماله. أما موضوع التصورات، فقد أصبح نادر الذكر إلا في مجالات الفنون. والتوازن الجديد بين هذه العناصر، يعد مطلبا أساسيا للتعلم المجدد. ونخص بالذكر القيم والعلاقات الإنسانية والتمثلات والأدوات ؛ فهذه كلها انخفضت قيمتها، ولابد من ردها وإعادتها إلى مكانتها في مجالات التعلم، إذا كانت تنمية التعلم المجدد لها أهميتها...

... وأهم عناصر التعلم، هي القيم. وعندما نشير إليها كعناصر، فإننا نؤكد على دورها الفعال في عملية التعلم. فقيمة البقاء مع الكرامة، يمكن أن تكون ذات آثار مباشرة في التوجيه. ويلاحظ أن ظهور القيم هو ظهور للحد الفاصل بين الذاتية والموضوعية، وبين الحقائق والأحكام، وبين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وبين العلم والأخلاق، وبين العلوم الحقة والعلوم الإنسانية، وبين الغايات والوسائل، وبين المعقول واللامعقول. والعلماء في القرن الحالي، لايطمئنون إلى موضوع القيم. وقد كانت هناك محاولات لاجتثاث موضوع القيم من العلوم

الموضوعية(*) ؛ بل لاجتثاثها من المفاهيم السلوكية لموضوع التعلم ولاستبعادها من الأسس السلوكية والنفسية للتعلم.

وعند إصدار الأحكام، يكون للقيم دور أساسي تؤديه، لأن عملية إصدار الأحكام تنبني على القدرة على وزن الأفضليات، وعلى الموازنة بين المزايا والمساوئ، وعلى اختبار النتائج المترتبة مستقبلا على الأحكام الحالية. فإذا لم تكن هناك قيم، أو إذا كانت هناك قيم مهملة ؛ فإنه لا يمكننا أن نتمعن في الاختيار بين مساق تصرف ومساق تصرف آخر. وبغير القيم، تصبح السياسة مستحيلة، ويصبح الاختيار في مجالات الأهداف والبرامج والاستراتيجيات أمرا غير ممكن.

ومن المهم أن ندرك وجود منظومة من القيم المتميزة بالتعدد والمرونة والخاضعة لما لا يسهل حصره من الضغوط الدافعة للتغير. وفي العديد من مئات المواقف التي نواجهها يوميا، يصعب تصديق ما نحدثه من خلط في الضوابط والمعايير. وبينما نجد أننا مازلنا نسير في اتخاذ قراراتنا وفق نماذج معروفة ذات محور أو بعد واحد، فإن هذه بدأت تخضع للضغوط من أجل تطوير معايير جديدة متعددة. أما فكرة أنه يمكننا أن نقيس أحكام الإنسان وقراراته بمقياس واحد، فإنها قد اختفت، وحلت محلها منظومات من القيم المتصارعة المتعارضة المتشاذة.

والدور الأول للقيم، هو التمييز بين نوعي التعلم : التعلم للصيانة والتعلم المجدد. فمن شأن التعلم للصيانة أن يتجاهل القيم التي لا تكون جزءا لا يتجزأ من البنية الاجتماعية والسياسية المطلوب صيانتها، وأن تجعل قيمتها الذاتية، قيمة ضمنية أو غير مكشوفة. ومع ذلك، فإن التشدد والتوتر الناتجين

القيم هي إنزيمات التعلم المجدد

(*) ومع ذلك فإنه ليس صحيحا أن المنطق العلمي يغفل موضوع القيم. فلقد ناقش المؤتمر الدولي للفلسفة المنعقد بمدينة دسلدورف، عام 1978 هذا الموضوع كموضوع أساسي من موضوعات المؤتمر.

عن الضغط للاختيار من بين مجموعة كبيرة من القيم، هو الذي يساعد على ظهور التعلم المجدد. ويمكن أن تكون هذه عملية لها وضوحها وبروزها واستشارتها ؛ وهي عملية لابد أن يكون قد مارسها كل فرد. فحين تقوم التحديات في وجه ما عنده من قيم، فإن عملية التعلم تدب فيها الحياة. ومن هذه الوجهة، يمكن القول بأن القيم هي إنزيمات عملية التعلم المجدد.

... أما الفرق الواضح بين تعلم الآلات وتعلم الإنسان، فإنه يمكن رؤيته بوضوح عند المقارنة بين التعلم السبيرنتيكي والتعلم التشاركي. ولا يقتصر ما بينهما من تضاد على أن تعلم الحيوان الآلي يخلو في الواقع من أي تشارك. ولأن دور القيم وأهميتها يختلفان في الحالين اختلافا جوهريا ؛ فالتعلم التشاركي يؤكد تجدد القيم ؛ أما تعلم الحيوان الآلي، فإنه وإن كان في الواقع يحقق غرضا، إلا أنه يفعل ذلك في اتجاه مرسوم وصوب غرض مقرر، يضعه له الصانع والمبرمج. وبرامج الكمبيوتر التي تؤدي إلى عمليات التعلم في الآلات، ليست حيادية ولا متحررة من القيم، وهي تتضمن على أي حال قيما جهزها مسبقا صانعو المنظومة، وقد وضعوها في الغالب مجمدة داخل التصميم ؛ وإذا طرأت حالات عولجت فيها القيم كمتغيرات، فإنها تنحى جانبا، كما لو كانت حقيقة أو أمرا واقعا. ويمكن للبرنامج أن يخضع القيم للقياس فيقيسها بمقياس معين، ولكن لا يمكن للبرنامج نفسه أن يخلق أو يختار قيما جديدة.

> إن ما يميز بين تعلم الآلة وتعلم الإنسان هو دور الإنسان.

إن التقدم الهائل في الحاسب الإلكتروني (الكمبيوتر)، يسير الآن بأقصى سرعته. فلم يحدث أن آلة تقدمت ونمت بمثل هذه السرعة، ثم إنها أثرت في الإنتاج وفي الاتصال، بل وفي تنظيم المجتمعات ؛ وأصبحت تقدم معونة متميزة قيمة لتفكيرنا. وعما قريب، سنجد أن الكمبيوتر الرخيص الثمن، الصغير الحجم، الذي يمكن إيداعه داخل الجيب، هو الرفيق الملازم لكل إنسان ؛ إذ ستقدمه إليه المدرسة في فجر حياته المدرسية، ثم

سيبقى في علاقة وثيقة معه بقية عمره. ومن تم، فبعد أن كان الحاسب الآلي (الكمبيوتر) يقلد صورا بسيطة من التعلم البشري، فإنه قد أصبح يقوم بدور المدرس، إما بشكل مساعد في عملية التعليم أو في صورة نماذج تشابه المخ البشري في عمله، كجهاز عصبي فسيولوجي، وظيفته الأساسية تناول المعلومات وتنسيقها. وإزاء الغزو الشامل المنتظر من الكمبيوتر في الأحقاب القليلة القادمة، فإن علينا أن نعمق البحث عن الفروق الثاوية خلف أوجه الشبه الرائعة مع الذكاء البشري ؛ لنتجنب بذلك الموازنات السطحية التي يمكن أن تشوه مفاهيمنا عن التعلم.

إن من أهم عوامل ضعف الانسجام أو الانفصام في مجال التربية والتعليم ليس فقط البقاء للمواد التعليمية القديمة والمتجاوزة، بل هي فوق هذا وذاك تعرقل إدخال دراسات جديدة ذات صلة أكبر بالمواقف الراهنة. يقول المربون والمعلمون على سبيل المثال : إن برامج التعليم مكدسة، ولا يوجد مجال على ما يبدو لدراسة المسائل العالمية الأساسية، كسباق التسلح أو تحرير المرأة. وواضح أنه من غير المبالغ فيه أن نؤكد أن المناهج ما دامت مثقلة بأعباء ورثتها عن الماضي، فإنه لا يوجد بها مجال لاحتياجات المستقبل.

ولا تعني إشارتنا إلى زيادة اهتمام التعليم العام بدراسة الماضي، أن تكون هجوما على العناية بتدريس التاريخ ؛ بل على العكس من ذلك، يمكن للتاريخ أن يعطي أمثلة كثيرة من مجتمعات بعينها، خابت في التهيؤ لمواقف لم يسبق لها مواجهتها وأخفقت في العبور نحوها بحزم وتصميم. ثم إن الحضارات السابقة، تعطينا دروسا واضحة عما كان يحدث، عندما تهمل الحاجات المادية للإنسان، وما كان يحدث عندما تنكر الكرامة الإنسانية للجميع، إلا لأقلية ضئيلة، وعندما كان الاستعداد للحرب هو الاهتمام المركزي عند الدولة.

ثم إن بعض المجتمعات، وبخاصة تلك التي كانت تخضع حتى عهد قريب للاستعمار، تتحمل عبء المفارقة أو الانفصام على بعدين : أحدهما

النظم التعليمية البالية مما عفى عليه الزمن، وثانيهما عدم ملاءمة هذه النظم للخلفية الثقافية التي غرست فيها بعد استيرادها. فنقل نظام تعليمي أجنبي نقلا كليا مطابقا للأصل مطابقة تامة، وما يترتب على ذلك من إهدار لتعليم تقليدي أصلي، من شأنه أن يترك كثيرا من الدول النامية في تعلم غير توقعي وغير تشاركي.

النظم التعليمية المنقولة نقلا مطابقا للأصل في بعض دول العالم الثالث، نظم بالية غير صالحة.

والمدارس الموجودة في إفريقيا وآسيا، التي تغلب عليها الصفتان الفرنسية والإنجليزية، تحمل في طياتها ذكريات العهود السابقة. ثم إن الدول التي صدرت عنها هذه المدارس في الأصل، قد أخضعت النظم التعليمية فيها لحركة أو لحركتين من حركات الإصلاح والتغيير. أما الدول المستقبلة لهذه النظم، فإنها قد حافظت عليها لدرجة أنها تجد نفسها مع مدارس كانت تعتبر متقدمة في القرن التاسع عشر. وبذلك، تكون بعض دول العالم الثالث، وهي الدول المستقبلة لهذه النظم، متخلفة عن الدول التي صدرتها.

... ومن بين المسائل العديدة التي تحيط بالأمية والأمية الوظيفية، توجد مسألتان لهما علاقة بالفجوة البشرية، وهما جديرتان بالملاحظة والدرس. أولاهما عزوف أغلب صانعي القرار عن إلزام أنفسهم أو مجتمعاتهم ببرنامج جاد كل الجدة لاجتثاث الأمية. وعلى الرغم من كونه معلوما، أن اختفاء الأمية يسير جنبا إلى جنب مع التنمية الاقتصادية، فإن الدافع لإيجاد مستوى من التعلم الذي ينشط المشاركة الاجتماعية الحقيقية، ليس موجودا إلا في عدد قليل جدا من الحالات. وكثيرون ممن هم في مراكز السلطة والقوة الذين يخشون مواجهة التغير وما سيظهر من آمال وتوقعات، نتيجة انتشار التعلم

يتشكك الكثيرون ممن هم في مراكز السلطة والقوة فيما تجلبه الازالة الشاملة للأمية من تغيرات وتوقعات وآمال في الأميين وجماهير الشعب.

ومعرفة القراءة والكتابة. وهذا النقص في الإرادة السياسية، يشير إلى أن التقاعس في استخدام القوة المتاحة، يكون سببا في إهدار تعليمي هائل.

أما ثانية هذه المسائل، فهي المحك الجاري به العرف حول الأبجدية أو معرفة القراءة والكتابة. فهل يفهم من الأبجدية والتعلم ببساطة أنه القدرة على القراءة والكتابة، علما بأن الفرق بين التعلم المحافظ والتعلم المجدد فرق واضح. غير أن التعلم المحافظ واهتمامه باللغة، يعادل بين الأبجدية وبين القراءة والكتابة. أما التعلم المجدد، فإنه يحوي قدرة أساسية، تقوم على كل عناصر التعلم في إطار الأبجدية أو التعلم. ففي التعلم المجدد يكون التوكيد على القيمة أو البعد الخلقي للتعلم (الأبجدية) وما يشبه مفهوم التعليم، مما يركز على رفع شعور الإنسان بما حوله(*)، وزيادة قدرته في المجتمع إسهاما، يتصف بالكفاءة والإنتاجية.

يجب إعادة النظر في المفهوم الجاري حول محك التعلم، اذ يجب أن يضاف إليه بعد خلقي.

... ولكن المغزى الحقيقي للبعد العالمي للتعلم، يمكن توضيحه بإبراز دور التعلم في الحصول على تنظيم عالمي دولي جديد. وقد أصبحت الدعوة المنطلقة لإعادة بناء النظام العالمي الجديد، والتي بدأت بالتحرر السياسي من الاستعمار، وأتبعت بالمطالبة بنظم اقتصادية وثقافية وإعلامية ونظم اتصالات جديدة .. أصبحت هذه كلها مدرجة في جداول أعمال الهيئات الدولية. وطبيعي أن تتضمن هذه النظم الجديدة إعادة توزيع للحقوق والواجبات. وطبيعي كذلك، أن تكون هناك مطالبات ومقاومات لهذه التوزيعات. وطبيعي أن توقف المطالبات والمقاومات على ما يوجد من قيم ومواقف عقلية ومؤسسات اجتماعية اقتصادية، مما يقام ويدعم من خلال سيرورات التعلم.

وتحتاج هذه إلى منظور جديد للتعلم، ويكون ذلك منظورا يتيح لكل الدول والمجتمعات، أن تدرك كيف يجب عليها أن تغير ما يغمرها من قيم،

(*) Paulo Freire, "Pedagogy of the oppressed", Penguin Books 1972 : and "Education for critical consciousness", Seabury Press, 1973, by the same author.

مما أصبح لا يتفق مع التغيرات الواقعة الجارية، ومع أزمات العالم المعاصر. وبغير هذا المنظور، يكون الاحتمال بعيدا في إمكان إقامة نظام عالمي جديد بهدوء وتوازن وسلام. ذلك، أن نظم القيم، هي التي تمكننا من الحكم على العلاقات المستقبلية بين المجتمعات أو في داخلها، إذا كانت علاقات تصارع أو توافق وتكامل.

وعلى النقيض من الضغوط التي تتضمنها النظم العالمية الجديدة في إعادة التوزيع وفي نقل التكنولوجيا ونقل رؤوس الأموال، نجد أن التعلم لا يمكن إعادة توازنه أو نقله بالكيفية نفسها. ويرجع عدم إمكان نقل التعلم، إلى أن التعلم بطبيعته صفة ذاتية في الأفراد، تنمى عن طريقهم. وواضح أن المعرفة باعتبارها منتوجا نهائيا للتعلم، يمكن أن يقال إنها قابلة للانتقال. وهناك على أي حال رأي يزداد شيوعا وانتشارا، وهو أن انتقال التكنولوجيا، قد أصبح يتضمن تقبلا بغير بصيرة للأساليب والمنتوجات الأجنبية.

... وقد قام تويني Toynbee بدراسة العلاقة المعقدة بين النقل وبين الفهم، فأشار إلى أن الثقافات عندما تلتقي، فإن العناصر الصلبة داخلها (كالأدوات والآلات والتكنولوجيا)، تكون الأسرع والأيسر انتقالا. أماالعناصر اللامادية (كالقيم والعقائد الروحية والثقافات وأساليب الحياة)، فإنها تكون الأكثر مقاومة، وكثير من النواتج تتدفق عبر الحدود الوطنية. غير أنه من المدهش أن نجد القليل من الأفكار المصحوبة بفهم كاف، يتدفق من بلد إلى بلد آخر على المستوى الدولي. وبالرغم من أن المجتمعات تزداد شفافية، كل منها للأخرى، يوما بعد يوم، ومن أنها أصبحت مكشوفة أحدها للآخر، وأن بعض الحلول لمشكلات دولة توجد في خبرة دولة أخرى ؛ فمن النادر أن نجد أفكارا مفيدة في المجال السياسي أو الاجتماعي

من نتائج القدرة التعلمية القاصرة أن تنتقل المعرفة والتكنولوجيا بغير فهم كاف.

في بلد ما، تنال درسا كافيا في بلد آخر، أو نجد أحدها يحل محل الآخر. وعلى العموم، فإن قصور قدرات التعلم، هو الذي يفسر ضعف مستوى الفهم لما ينشأ من معارف وأفكار خارج ثقافة أهلها. كما يفسر ضعف مستوى الفهم للقيم الذاتية التي تتضمنها التكنولوجيات المنتقلة من ثقافة إلى ثقافة بطريقة غير سليمة.

وحيث إن أغلب الأنظمة التعليمية الوطنية، تهتم بتبليغ القيم الوطنية (المحلية) المقتصرة على التعلم المحافظ ؛ فإن منظورا تعلميا جديدا عليه أن يحدد وأن يواجه تلك القيم التي تشكل عوائق لتغيير المجتمع وتطويره. يضاف إلى كل هذا، أن موضوع القيم معقد، لأن أعدادا متزايدة من الدول تجدد جهودها لحماية كيانها من غزو القيم الأجنبية الخارجية، وذلك في الوقت الذي نجد فيه دولا أخرى يزداد فيها الاتجاه لفحص هذه القيم نفسها ودرسها والاهتمام بها. ومن أمثلة ذلك، أن المجتمعات التي تحررت من الاستعمار حديثا، قد ترى تهديدا كامنا في التعاون العالمي في مجال التعليم حتى تحدد هويتها وتبني نفسها من الداخل بصورة راسخة، وتدرك أن ما يحدث من تغير في الاتجاهات العقلية للدول الصناعية قد وصل إلى أبعاد معقولة.

وسنعرض في هذا الفصل بعض الأمثلة من البرامج والسياسات، مما يمكن أن يشجع الاستباق والمشاركة، ويوضح كيف يمكن تطبيق التعلم المجدد تطبيقا يساعد على مواجهة المسائل العالمية. وواضح أن هذه ليست مخططات عمل خالصة، ولكنها مجرد أمثلة توضيحية، إذ أن كل مجتمع عليه أن يحدث من الإجراءات ما يناسبه وما يتفق مع ظروفه الخاصة...

... أما مشكلة الاستقطاب، فنقصد بها ذلك الاتجاه العقلي الناتج عن التدريب، والذي جعلنا نرى التعدد على حساب الوحدة والوحدة على حساب التعدد. فالهوية الثقافية أو الوحدة الثقافية، يمكن أن يراها البعض

منافية للترابط أو التعاضد الدولي، وقد يرى البعض أن الاستقلال يتعارض مع التكامل، والبعض الآخر قد يرى التماسك والتعاون على أنهما يتنافيان مع الاعتماد على الذات. وهناك أناس قد يرون أن الشعور العالمي والانتماء العالمي يتعارض مع الاستقلال الوطني. ومعنى هذا، أن مفهوم التشارك ينهار عندما يصل إلى المستوى العالمي. ويرجع هذا الانهيار إلى قيم متعلمة أو قيم أسيئ تعلمها. ونحن قد نحتاج في المنظور التعلمي الجديد إلى مجموعة من القيم المتعددة، التي نرى بواسطتها الهوية الثقافية على طبيعتها منافية للعزلة والانكماشية والانطوائية. فهي الأساس اللازم لتفاعل عالمي له معناه. المشكلة إذن، هي أن علينا أن نتعلم أن الإنسان من حقه أن يكون مختلفا عن غيره، وأن الحق في الاختلاف يتضمن ضرورة السعي لتماسك عالمي. ومن شأن الهوية الثقافية أن تعطي الناس شعورا بالكرامة والعزة ولا تعطيهم الاتجاه نحو الخضوع لمجرد تأمين البقاء، لأنه يوجد تراث ثقافي إنساني مشترك، تقع علينا مسؤولية كبرى في دفعه وتقدمه والحفاظ عليه. ويكون لهذا الميراث مغزى أكبر في نفوس الناس، إذا ما اتجه الانتباه إلى دور الإنسان المستمر في الإبداع والابتكار(*)، بدلا من أن يكون متجها إلى المتحف وما يحويه من صناعات وأعمال مضى وقتها. وتلك النظرة التي تبرز دور الأشخاص المختلفين في ابتكار الثقافة، يمكن أن تكون هي العمود الفقري لمفهوم الترابط البشري العالمي، وهو ترابط لا يحتاج بالضرورة إلى حكومة عالمية، وإنما إلى التفاهم العالمي والتعاون الدولي، الذي ينبني على مجموعة من المعايير الأخلاقية التي تمنع تحقيق السيادة عن طريق العدوان الثقافي.

والمسائل الكبيرة التي تثيرها الهوية الثقافية على درجة كبيرة من التعقيد، لأنها تختلف عن المسائل المادية الدولية، لكونها لا تحل بإعادة التوزيع.

(*) ليست القيم من الأمور الثابتة، فهي مصادر العمل والتغير، ويحسن الاطلاع على :
P. Kirpal, "The criss of culture and development" in Cultures III, 4, UNESCO, Paris (1976).

فالاستقلال الثقافي، ليس شيئا يؤخذ أو يعطى بقرار عن طريق الاتفاق الدولي بإعادة توزيع الموارد ؛ رغم أن فكرة توزيع الموارد لا غنى عنها في أحوال ومجالات أخرى. فالهوية الثقافية هي إذن نوع من الإدراك، وهي كذلك نوع من الحس المعنوي أو نوع من السياق الكلي المتكامل أو مجموعة من العلاقات الإنسانية والقيم البشرية.

الهوية الثقافية إحدى مشكلات التعلم، مما لا يخضع لعمليات إعادة التوزيع على النطاق الدولي.

وكل ذلك من صميم مجالات التعلم ؛ وفي هذا نحتاج إلى منظور بعيد المدى، لجعل هذه المدركات وتلك المفاهيم متآزرة، متشاركة، متلازمة، متفاعلة، متبادلة ؛ مشكلة نمطا من أنماط الاستقلالية، تحكمه وتوجهه عمليات التعلم ودوراته. فإذا أردنا أن نعهد للقرن الواحد والعشرين عهدا يتصف بالحيوية الثقافية، فمن الضروري أن نبدأ من الآن فصاعداً بالعمليات التعلمية للآباء ولأبنائهم، ممن سيبلغون مرحلة النضج وسن اكتمال النمو عند بزوغ فجر القرن الواحد والعشرين. ولكن كيف يكون هذا وما الذي تتطلبه الهوية الثقافية ويتطلبه التهجين الثقافي والإخصاب الثقافي المتبادل من مجالات التعلم ؟ هناك اعتباران يمكن أن يشار إليهما باختصار : أولهما، أن مفاهيم الترابط العالمي عن طريق ازدهار تنوع الثقافات، يستبعد فكرة النموذج التعلمي العالمي الموحد ويستبعد إمكانية فاعليته وحيويته. والناس جميعا من نوع واحد، ولهم عالمهم من الصفات المشتركة. ثم إن عمليات التعلم عندهم يقترب إحداها من الأخرى. غير أن لكل فرد خصوصياته، ولكل مجموعة خصوصياتها كذلك ؛ مما يبرز الفروق بين فرد وآخر وبين مجموعة وأخرى. وفي ذلك يكمن الأمل المنشود لمنظور تعلمي جديد، هذا إذا أخذه بصورة جادة، أولئك الذين يملكون القدرة والوظيفة ويحتلون الوضع الذي يملكون به أن يقودوا الطريق إلى تفاهم عالمي ثقافي متين.

وثانيهما، أن الأمر الحيوي والهام، يكمن في دفع فكرة الهوية الثقافية ودعمها، من خلال إدراك المسائل العالمية وإدراك تعقدها. فعلى كل

شخص أن يرى هذه المسائل على الأقل من زاويتين : الزاوية العالمية، والزاوية الثقافية الخاصة، وطنية كانت أو محلية. ويقتضي هذا الأمر الاحترام الكامل لثقافات الآخرين، كما يقتضي الإجماع على مجموعة تحتوي الحد الأدنى المشترك للقيم الثقافية العالمية. يضاف إلى هذا ضرورة القيام بدور أكبر في التبادلات الدولية، مما يجري على أساس العلاقات المتعددة الجوانب والأوجه، والتي تأخذ في اعتبارها جميع المراحل والأعمار، حتى يتمكن كل واحد من رؤية عالمية التراث البشري، ويتمكن من أن يراه من خارج ثقافته. وستساهم تنمية هذا الإدراك وتنمية التوعية به، في تحقيق الأهداف السياسية لمنظور جديد للتعلم.

4

الثورة الفرنسية - تأملات معاصرة(*)

بحضور Maurice Niveau مدير أكاديمية Lyon وتحت رئاسة معالي سفير فرنسا Paul Marc Henry، ومعالي سفير فرنسا Jacques Kosciusko Morizet وSylvain lourié نائب المدير العام لليونسكو، والمهدي المنجرة أستاذ بكلية الحقوق جامعة محمد الخامس بالرباط ورئيس مؤسس لمنظمة حقوق الإنسان بالمغرب وJoël Lefevre مختص في لغات الحضارة الجرمانية وأستاذ بجامعة Lyon II وJacques d'Honht أستاذ، وGuy Barthélemy مهندس، وPère Hugues Puel اقتصادي : اقتصاد وفلسفة وJean Marie Legay متخصص في علم الأحياء، وأستاذ بجامعة Claude Bernard Lyon I.

إن تنظيم التظاهرة بأكملها، كان بفضل مساهمة السيدة Martine Muller مديرة ديوان السيد الرئيس ومساعديه. وتحت رعاية SE Paul Marc Henry وقد كان فريق العمل الذي سهر على إنجاز هذا المنتدى، يتكون من Marie Claude Dumont، وMonique Guinard وValentine وJacquline وRaymond Citerio وقد استفاد من مبارة Marcel Chaboud وRaymond Curtet.

وقد ساهمت مداخلة المهدي المنجرة في النقاش الذي ختم به اليوم الأول في توسيع التفكير خارج حدود التراب الفرنسي والأوروبي، وأوروبا؛ بعد أن طعمه Jacques Kosciusko Morizet ببعض التعديلات.

لقد أشار الأستاذ المهدي المنجرة، إلى أنه في القرون القادمة، عندما تريد الأجيال القادمة دراسة الثورة الفرنسية من مصادر فرنسية، فإن المؤلفات

(*) Academie de lyon 01/1989

الأكاديمية لا توفر لهم أي مرجع للتاريخ الإنساني : (وكأن العالم لا وجود له باستثناء التراب الفرنسي والأوروبي)، أو على وجه التدقيق بعض الشخصيات اللامعة من قبيل Kant أو Hegel اللذان يتوفران على انفتاح فكري لاستيعاب هذه الظاهرة الكونية الكبيرة.

ومع ذلك، ففي سنة 1789، لم يكن الشعب الفرنسي يمثل سوى 4% تقريبا من سكان العالم ؛ بينما كانت أوروبا قبل 400 سنة، تعيش في البربرية. وفي سنة 2189 ؛ فإن الشعب الفرنسي لن يمثل أكثر من 0,2% من سكان العالم. إذن أين المراجع «الكونية» ؟

«أليس من الغريب، أن تتزامن الثورة الفرنسية مع الفترة الإستعمارية : وهي أحد منابع النزعة المركزية الأوروبية ؟ إننا نتحدث عن منظومة القيم الكونية، لكن ما قيمة المساواة والحرية، إذا احتكرناها ؟ وما معنى الأخوة إذا عشناها في دائرة ضيقة ؟ إن ضعف الثورة الفرنسية، يكمن في كونها مصدرة أو مرسلة (emettrice) أكثر مما هي مستوردة أو مستقبلة».

إذا كان تاريخ البشرية يعد بآلاف السنين ؛ فإنه من الأهمية بمكان الرجوع إلى النسب المعقولة للتاريخ والكشف عن أن «الكونية» امتداداً في المكان وأيضا في الزمان.

يشير Jacques Kosciusko Morizet إلى الفرق بين كلمتي «عالمي» و«كوني». «الكوني» : يحمل نبرة أخلاقية : حيث كرامة الإنسان كونية، ونأمل أن الكل سيحصل عليها وهي غاية التقدم. إن الثورة الفرنسية فكرت في الإنسان بهذا المنطق بقدر ما فكرت فيه الثورة الأمريكية.

لكن العالم كان منقسما ولم يكن بإمكاننا مطالبة الناس في القرن 18 بمعرفة ما نعرف اليوم، لكن ما كانوا يجهلونه، هو أن هناك إنسانية أوسع بكثير، وحضارات تطالب بالأخذ والعطاء ؛ وهذه مهمة القرون الآتية...

تهديدات حول الرسالة

أ. محور الحرية

1. من غزارة القرن 18 إلى شراسة اليوم

«إن الإشكاليات التي عرفها مجتمع معين سنة 1789، أصبحت كونية والمشكل الحقيقي لمستقبل البشرية وبقائها ؛ هو أن تعرف هل سيكون لنا نفس منطق الإبداع، وهل سنتمسك بما فيه الكفاية بالكرامة الإنسانية للوصول إلى ثورة دون دفع الثمن في شكل أرواح بشرية ؟».

2. لنتخذها عادة

هل بإمكاننا وبدون تشاؤم، ملاحظة الخطر الذي يهدد المجتمعات المتقدمة حيث ممارسة الحرية لا ككرامة سامية للإنسان ولكن كرفاهية.

3. دفاع انتقائي لحقوق الإنسان

ـ باختيار الحكومات

في الذكرى الأربعينية للميثاق العالمي لحقوق الإنسان، تحتفي فرنسا بولسا وسكاروف، ونتحدث في الصفحة الأولى، وبعناوين كبرى عن كعب تكسر لرياضي أوروبي وهو هابط من الطائرة...

لكن من يهتم بخرق حقوق الإنسان في مناطق أخرى من العالم ؟ إن حقوق الإنسان ليست صالحة إلا بالنسبة لمن نحاربهم من الناحية الإيديولوجية.

وفي إطار الفرنكفونية في مؤتمرات القمّة الإفريقية، تستمر فرنسا في دعم الحكام الذين يخرقون حقوق الإنسان يوميا، وتحميهم، والقواعد العسكرية وُجِدت لتدافع عنهم، ومصالح المخابرات تزودهم بالمعلومات الكافية حول الأشخاص الذين يناضلون من أجل التقدم...

المشكـل هنا، ليس مشكل يمين أو يسـار ؛ ولكن هل نحن إنسـانيون أم لا ؟ وهذا هو التحدي الحقيقي.

ب ـ بواسطة المعلومات

«في سنة 1987، فترة «السلام»، كان هناك 22 صراعاً مسلحاً : 2.2 مليون قتيل في سنة واحدة. في حين أن المعدل السنوي لضحايا الحرب الثانية العالمية كان 1.15 مليون ؛ بينما كم من الصفحات التي كتبت حول الحرب العالمية الثانية والثورة الفرنسية (وعدد الضحايا كان من 2 إلى 300.000 قتيل).

أما و2.2 مليون من البشر الذين سقطوا قتلى في العالم الثالث جراء حروب مسيرة من طرف الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، فإن هذا الأمر لا يحظى إلا باهتمام قليل.

إن الاتـحـاد السـوفيـاتـي والـولايات الأمـريـكـيـة قـد نـجـحـا في إيهـامـنـا بـخلافاتـهـمـا، بينـمـا قـد وقعتـا أكبر معاهدة علمية وتقنية، يتمكن الاتحاد السوفياتي بموجبها من الاطلاع على آخر اكتشاف أمريكي في ظرف 24 ساعة، بينما يتوجب على الحلفاء إنتظار سنتين لاكتشافه».

ج ـ حرية ومساواة

1 ـ مصطلحين متناقضين

نحن نتحدث عن مديونية العالم الثالث، 1000 مليار من الدولار. والولايات المتحدة تسمح لنفسها بدين يبلغ 2000 مليار من الدولار، أما إسرائيل فتسمح لنفسها بدين لكل ساكن لا مثيل له في أي بلد من العالم الثالث، ولا من يتحدث عنه ؛ بينما أدى العالم الثالث دينه بزيادة من خلال عرق جبين شعوبه.

2 ـ العدالة أولا

«بفرنسا وفي سنة 1789، 47% من الشعب، كان عمره يقل عن 25 سنة ـ وهو نفس المعدل الذي نجده اليوم في دول العالم الثالث».

والشباب ؟

«لقد غيرتم مناهجكم التربوية للمرة 22 تحت الرئاسة الخامسة، ونحن نعلم أنه أمر مكلّف. ونعرف أن الجامعات الفرنسية لا تُؤهِّل أبدا لمهن سنة 2000، بينما باستطاعة الشركات المتعددة الجنسية والقطاع الخاص، تحديد حاجياتهم لسنة 2000، كما أن 10% من أرباحهم مخصصة في الواقع لتكوين أطرهم الخاصة...».

- الدائرة المالية جد قوية

«إن جميع التطورات الاقتصادية لهذه القرون الماضية قد رفعت من حدة هذه الخلافات...»، «ولا يعقل أن 15% من سكان العالم، تستمر في استغلال 85% من الموارد المالية لفائدتها ؛ فهل هذا هو التقدم العلمي والتقني ؟».

إن الفجوة في المداخيل بين الطبقات الفقيرة والغنية في الدول المتقدمة ترتفع إلى وثيرة تفوق الفرق في المداخيل في الدول النامية بين الأغنياء والفقراء.

إن الجهل والنسيان، أو تهميش حقوق الإنسان، تشكل الأسباب الوحيدة للبؤس الاجتماعي وآرتشاء الحكومات... ؛ وحديثا وقع الأوروبيون فيما بينهم معاهدة لاحترام مبادئ حقوق الإنسان ؛ فهل نحن مستعدّون للإشارة في كل معاهدة بين الدول المتقدمة والدول النامية، إلى أن عدم احترام المبادئ المتفق عليها في فيينا، يقصى كل بلد من التعاون الاقتصادي والمالي ؟

وكلما تأخرنا في إنجازها، فإن الدول التي تحترم حقوق الإنسان ستستمر في دعم الحكومات التي تخرق هذه المبادئ يوميا، لأن ذلك من مصلحة النظام العالمي. وفي هذه الحالة، فإن الاقتصاد بالدول المتقدمة لا يعيش إلا بالرشوة وبخرق حقوق الإنسان.

3 ـ حق الفقراء، إعادة النظر في دعم التنمية

لقد أصدرت أنكلترا في القرن 19 «قانون الفقراء» The law of the Poor ؛ بينما كانت طبقة أخرى في المجتمع تزداد غنى، حيث العمال كانوا يكدحون في المناجم ؛ وبضمير مرتاح قال الأغنياء : «سنسن قوانين للفقراء الذين يشتغلون بإعطائهم تعويضات صغيرة».

إن دعم التنمية يسير على هذه الشاكلة، وهو يختلف عن مخطط مرشال المتعلق بالمساعدة الأمريكية للنهوض بأوروبا.

إن دعم التنمية لا يسعى إلا لإبقاء الناس في الفقر. وإذا وقّفتم هذه المساعدة الإنسانية غدا، سيكون لديكم ما بين 50.000 و70.000 عاطل زائد في فرنسا، دون أن نتحدث عن التأثير الذي سيطال الولايات المتحدة والمؤسسات الدولية.

لماذا هناك الفقر ؟ يجب فهم أسباب الفقر وعدم الاقتصار على بعض الصدقات ـ إن الصدقة لا تعوض روح المحبة. ولا تنمية مع هذه الصدقة أوقفوا هذه المساعدة ـ احتفظوا بها لأنفسكم... وكُفُّوا عن إعطاء بعض الفضلات للناس لكي لا يثوروا...

ـ من أجل إعادة توزيع مسالم

في الوقت الراهن، إن الإشكالية المطروحة من طرف الثورة الفرنسية يمكن علاجها في كلمة واحدة : إعادة التوزيع... ؛ إن التاريخ يجد نفسه في ملتقى، حيث الإشكاليات التي طرحت نفسها في مجتمع معين سنة 1789 أصبحت كونية... ؛ هناك عمالقة يتحكمون في العالم، لكن لا مستقبل لهم ولماذا ؟ إن إعادة التوزيع، ممكنة وكلما تقدمنا في أداء الثمن قلّت التكلفة.

«ولكن علينا أداء الثمن».

«على النظام الدولي أن يتغير».

«ولا تنمية بدون احترم حقوق الإنسان».

د ـ اختيار مصير الانسان :

مقصد

إن للمستقبليات دور تضطلع به، وبإمكاننا وبفضل العلوم والتقنيات والمعرفة اختيار مستقبلنا وتحقيقه، ولكن هل لنا مقصد ؟ رؤية ؟ إن رسالة الثورة كانت أولا هدفا، مقصدا نرغب في تحقيقه... وكلما حدد الإنسان هدفا وصل إليه....

ولنخلق نماذج جديدة

«وهل سيكون لنا نفس منطق الإبداع الذي كان سنة 1789 ؟ هذه هي الإشكالية».

5

التواصل والتطور(*)

أتذكر بكل وضوح كامل الأهمية التي أولتها البلدان الإفريقية سنة 1960، خلال الدورة 11 للندوة العامة لليونسكو في باريس لتطوير وسائل الإعلام (وسائل الإعلام الجماهيرية في إطار البرنامج الخاص بإفريقيا الذي تم تبنيه حينذاك). إنها سنة افريقيا، سنة الاستقلالات، حيث كان التعطش لحرية التعبير وللوسائل التي يتمكن الأفارقة من خلالها إسماع أصواتهم بعد عقود من الخنق الإستعماري.

لكن هذا الاهتمام تراجع على مر السنين. وخلال النصف الثاني من السبعينيات، عندما كانت بلدان العالم الثالث، ما يزال لها وزن في رقعة الشطرنج العالمية، انطلقت المعركة من أجل "نظام جديد". ووفق روح هذا المسعى قررت اليونسكو، رغم معارضة قوية لبعض القوى الكبرى، تخصيص جزء من مجهوداتها لإقامة "نظام إعلامي عالمي جديد". ولم يكن المدير العام لليونسكو آنذاك سوى السينغالي أمادو مختار أمبو.

في الفترة نفسها، طالبت الجمعية العامة للأمم المتحدة بجعل ما بين سنتي 1976 و1988 "عقد المواصلات والتواصل بالنسبة لإفريقيا". وقد تحملت هذا القرار قمة الدول الإفريقية المنعقدة في منروفيا سنة 1979. ويمكن القول دون مجازفة بالانخداع، بأن التواصل والإعلام، قد اختفيا تقريبا من جدول أعمال إفريقيا.

(*) دكار، 14-19 أكتوبر 1992.

فإذا ما أخذنا، على سبيل المثال، البرنامج ذي الأولوية الخاص بإفريقيا (1986-1990)، الذي تم تبنيه في ماي من طرف الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة، والتي تمت الدعوة لانعقادها بهدف فحص "الوضعية الاقتصادية الحرجة لإفريقيا" ؛ نجد إحالة وحيدة إلى "تبادل الإعلام" في الميدان الفلاحي في إطار تعاون جنوب ـ جنوب. كانت هذه هي المكانة التي أعطيت للإعلام والتواصل في برنامج خماسي قوامه 128 مليار دولار.

ومع ذلك، فإن تقرير اللجنة العالمية، المكونة من طرف اليونسكو سنة 1980 والتي ترأسها سين ماكبرايد، بعنوان "طرق متعددة وعالم واحد" ؛ قد وضع بوضوح إشكالية التواصل وروابطه بالتنمية. وظل هذا التقرير بدون تتمة واقعية، لأن المجموعة العالمية لم تكن مستعدة لتأخذ بجدية التحديات والرهانات الجديدة للتواصل. ونجد من المفيد الاستشهاد بنص من هذا التقرير، له ارتباط وثيق بالموضوع الذي يهمنا : "يوفر الانفجار التقني في مجال التواصل إمكانيات كبيرة، لكنه يشمل مخاطر جمة. وكل شيء رهين في النهاية بالقرارات التي تتخذ، وبالمكان الذي ستتخذ فيه وبمن سيتخذها. لذا، ينبغي إعطاء الأولوية لتنظيم مسلسل اتخاذ القرار على أساس المشاركة، وبوعي تام بالأثر الاجتماعي لمختلف الاختيارات(*)". مع نهاية الثمانينات وبداية العقد الحالي، رأت النور تغييرات مهمة على المستوى العالمي، تغييرات ذات انعكاسات سياسية، اقتصادية وسوسيوثقافية بالنسبة لمجموع البلدان النامية، وقد أطلق على هذه التغييرات اسم "النظام العالمي الجديد" والتي بدأنا نقيم نتائجه السلبية على المستوى الإفريقي.

النسق العالمي والتواصل

يولد النسق الدولي تفاوتات ويحافظ على مظالم من البلدان وداخلها. وبدون تغييرات جذرية لهذا النسق، سيكون من الصعب التطلع إلى تحولات جوهرية في الأنظمة الوطنية للإعلام والتواصل. صحيح، كما

(*) Sean MacBride «أصوات متعددة، عالم واحد» اليونسكو، باريز 1980 صفحة 332 أنظر Supra صفحة 11.

سبقت الإشارة إلى ذلك، أن الحكومات الإفريقية لم تول هذه القطاعات الأولوية التي تستحقها، باعتبارها ركائز السياسات والتنمية. ولو أنها قامت بذلك، ربما لما كان أثرها على المستوى العالمي غائبا كما هو الآن.

يبدو أن أصحاب القرار الأفارقة قد ركزوا جهودهم على المظاهر السياسية للإعلام، التي تسمح بالحكم وبالبقاء في الحكم على حساب الوظائف الاقتصادية ـ التكنولوجية والسوسيوثقافية. وحتى نفهم الوضعية المؤلمة للوسائط والتواصل بإفريقيا، يكفي تقديم معطى واحد، مفاده أن مجموع أنشطة الدول الافريقية في هذه القطاعات هو أقل من 3% من المجموع العالمي. فهناك ترابط مباشر بين هذا الرقم ووزن القارة الإفريقية في الاقتصاد العالمي.

الطفرات التكنولوجية والوزن الاقتصادي للتواصل

أحدثت الطفرات التكنولوجية للإعلام والتواصل، تغييرات تتجاوز نوعيا وكميا، كل التصورات التكنولوجية الأخرى التي عرفتها البشرية لحد الآن. فهي تمس كل مظاهر الحياة، وهي اليوم العلة الأساسية لتزايد الهوة بين البلدان المصنعة وبلدان العالم الثالث ؛ ومن الآن فصاعدا، لا يمكن تصور أية استراتيجية للتنمية، بدون سياسة طويلة المدى في مجالات تكنولوجيات الإعلام والتواصل. وتتوفر هذه التكنولوجيات على ديناميكيتها الخاصة بها. إنها أساس التحول المعاصر من مجتمع للإنتاج، ناجم عن الثورة الصناعية، إلى مجتمع المعرفة الذي يظهر في الأفق.

في مجتمع المعرفة، تتجاوز أهمية الاعلام أهمية الرأسمال، في حين أن طور الموارد البشرية يفوق دور الموارد الطبيعية. وتكفي ملاحظة نسبة الأمية في افريقيا (أكثر من 50%) لنفهم ما يجب علينا اجتيازه حتى نلحق بمجتمعات الاعلام.

إن المعرفة تشرط اليوم معارفنا وشغلنا وأنماط حياتنا وأنظمة قيمنا ؛ إنها تساهم في نزع الطابع المادي عن الاقتصاد ؛ حيث يقع تعويض المادة أكثر

فأكثر بمنتوجات الاختراع. وكمثال لنزع الطابع المادي، هو اختراع الليف البصري الذي تتمكن 50 غرام منه من القيام بنفس عدد المكالمات التليفونية التي كانت تؤمنها 33 طنا من خيط النحاس. إن المرور إلى مجتمع المعرفة ينعكس على المستوى الاقتصادي بالوزن الضخم الذي احتله قطاع التواصل في الاقتصاد العالمي. فمجتمع المعرفة، هو مجتمع ينشر مليوني مقال علمي في ستين ألف (60.000) مجلة متخصصة، أي بمعدل أربعة مقالات في الدقيقة. إنه مجتمع يغتني قاموسه العلمي بأربعين ألف (40.000) كلمة جديدة كل سنة. وحسب ريتشارد نايت، فإن 90% من مجموع المعرفة البشرية قد تم إنتاجها خلال الثلاثين سنة الأخيرة.

وحصة بلدان الجنوب من هذه التطورات محدودة جدا على عكس الشمال الذي يشمل 20% من سكان العالم، لكنه يحتكر 85% من مجموع المصاريف العالمية للتربية و95% من مصاريف البحث العلمي.

لقد ارتفعت أنشطة قطاع التواصل إلى مجموع 365 مليار دولار سنة 1985 وأصبحت منذ 1987 أول صناعة علمية. وسيمثل هذا القطاع أكثر من 40% من الإنتاج العالمي قبل نهاية القرن. وحسب توقعات المنظمة الأوروبية للتعاون والتنمية (OCDE)، فإن رقم أعمال هذه الصناعة كان سيصل إلى ألف مليار دولار سنة 1995[*]، وهو تقدير تم تجاوزه بكثير.

إن رقم الأعمال الإجمالي لخمس عشرة من أكبر الشركات العالمية للتليفون، قد ارتفع سنة 1993 إلى أكثر من ثلاثمئة مليار دولار، اثنتان من بينها (NTT اليابانية وATT الأمريكية)، تجاوزتا بمفردهما مجموع مائة وعشرة مليارات دولار. ويعادل هذا المبلغ الأخير المنتوج الوطني الخام لبلدان المغرب العربي الكبير الخمسة (موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا).

وفي 1994، كان رقم أعمال الشركة اليابانية (NTT) من فئة خمسة وسبعين مليار دولار، أي ما يعادل خمس عشرة مرة المنتوج الداخلي الخام للسنغال (5 مليارات). ورقم أعمال الشركة الأمريكية (ATT)، كان يناهز ثماني مرات

(*) «تكنلوجيات المعلومات والتواصل من أجل التطور الاقتصادي» OCDE وثيقة 8548 باريز، دجنبر 1987 صفحة 13.

هذا المنتوج. وفي نفس السنة، جاء 52% من المدخول الداخلي الخام للولايات المتحدة من قطاع، أصبح يحمل اسم "قطاع المعرفة والتواصل".

إن خدمات المعلوميات والتكنولوجيات الجديدة، هي التي تحظى بالسبق ؛ وإفريقيا غائبة عمليا عن هذه الأنشطة. وتمثل حصة العالم الثالث من هذه المجالات حاليا أقل من 10% من مجموع الإنتاج العالمي، وأقل من 3% من مصاريف البحث المخصصة لها. وهذا ينتج عنه تأخر مهول، خصوصا إذا ما اعتبرنا أن أغلبية الأنشطة في هذا القطاع، بالبلدان النامية، تتمركز في أقل من عشر دول (الصين، الهند، كوريا الجنوبية، البرازيل، سنغافورة، هونغ كونغ، ماليزيا، أندونيسيا، المكسيك).

والتأخرات الحاصلة في مجالات التواصل - على العكس من التأخرات في القطاعات الكلاسيكية - لا يمكن استدراكها بالرساميل وحدها، وإنما تتطلب كما أشرنا إلى ذلك سابقا، الإعلام والموارد البشرية.

التخلف : فقر في التواصل

إن التخلف هو نتيجة العجز عن خلق معالجة، تحويل، نقل وتوزيع عادل للإعلام المنتج. والحاجة إلى تكنولوجيات للاعلام والتواصل، هي إذن متناسبة عكسيا مع مستوى تطور البلد.

ويحدث تطور هذه التكنولوجيات بسرعة كبيرة، بحيث تعمل في الأخير على التقليص، أكثر فأكثر من القليل من السيادة التي تتمتع بها الدول الإفريقية، وعلى الزيادة من تبعيتها لبلدان الشمال. والموارد الاقتصادية الأسياسية لإفريقيا، هي من طبيعة فلاحية ومعدنية. وتخضع هذه المنتوجات لانخفاض ثابت ما انفك يزداد حدة. انخفاض لا يمكن معالجته بواسطة أي اتفاق من أي نوع ؛ مثل اتفاق لوما أو غيره مع البلدان الصناعية.

وفي الطرف الآخر من الطيف، لدينا خدمات الإعلام والتواصل، التي تقوم على تكنولوجيات متقدمة، والتي دورها في الاقتصاديات الحديثة، مجرد

وسائل. ولا توجد طرق أخرى إذا كنا نتمنى أن نعمل بجد من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وهذا الاختيار يفترض عددا من الشروط الأولية :

- إرادة سياسية قادرة على مساءلة نماذج التنمية الحالية المبنية على تقليد أعمى، والتي هي أساس المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة التي تواجهها إفريقيا.
- استراتيجية للتنمية، تولي أولوية كبيرة للموارد البشرية وللبحث العلمي.
- بيئة سياسية، تعمل على تشجيع حرية التعبير، واحترام الكرامة البشرية، وتشجيع الإبداع وتطوير المعرفة.
- تنمية أنظمة للاعلام، متطورة وملائمة للحاجات الوطنية.
- تنسيق جهوي وجنوب ـ جنوب ؛ تنسيق وثيق لتلبية الشروط التي تتطلبها اقتصاديات في المستوى.
- اتباع سياسة للاستقلال الذاتي، باعتباره حيويا لتنمية هذا القطاع.

إن التحدي الحقيقي الذي تواجهه إفريقيا، هو إنجاز وتشغيل بعض المشاريع الكبرى تحت ـ الجهوية في قطاع التواصل. وبالنظر إلى بلقنة إفريقيا، لا تتوفر أية دولة، ما عدا بلدين أو ثلاثة، على اقتصاد في المستوى أو سوق معدة لتعهد مشاريع قادرة على الاستمرار في هذا المجال. ومعروف اليوم، أن أي مجموعة بشرية أقل من 100 إلى 150 مليون شخص لا يمكنها أن تتوفر على أقل فرصة للعيش، بكرامة، في القرن 21.

التواصل والتعدد الثقافي

عدة مؤشرات تقود إلى التفكير، بأن النزاعات الإيديولوجية الاقتصادية والسياسية، معرضة تدريجيا، في المستقبل إلى أن تنقلب إلى نزاعات مهمة. وبالمقابل، فإن غياب التواصل والتسامح الثقافيين، هو الذي يهدد السلم في السنوات المقبلة. وهذا ما يبين أن القيم الثقافية قد استقرت في عالم الاقتصاد والعلوم السياسية، وأنه لم يعد من الممكن إغفالها في الدراسات الاستراتيجية وأعمال البحث حول السلام.

إن العالم الثالث هو بالنسبة للبلدان المصنعة، سوق لتصريف البضاعات والخدمات. وهذه الرؤية ستبقى طالما لم تقبل البلدان النامية على إعطاء الأولوية التي تستحقها قطاعات الإعلام والتواصل. وفي انتظار حصول تحولات عميقة وإقامة نظام جديد للإعلام وللتواصل - وهو ما لن يتحقق غدا - وبالرغم من المزايا العلمية والسوسيواقتصادية التي أعطتها ووزعتها بكيفية غير متساوية ؛ فإن تكنولوجيا الإعلام ستبقى منبعا للتفاوت وعاملا للهيمنة السياسية والسيطرة الاقتصادية والتفوق العسكري والسيادة الثقافية. لكن لن نعرف إعزاء مسؤولية ذلك إلى تكنولوجيات الإعلام ذاتها وإلى البيئة السوسيوثقافية ؛ حيث تتطور هذه التكنولوجيات، وكذا نظام القيم الضمني.

التواصل كأداة للهيمنة

لدعم الأفكار المتعلقة بالتواصل كأداة للهيمنة، سأستند إلى دراستين حاليتين من أمريكا الشمالية ؛ يتعلق الأمر من جهة، بالمقال المنشور في عدد نيسان (أبريل) 1996 من مجلة "الشؤون الخارجية" من طرف جوزيف ني، أستاذ بجامعة هارفارد ورئيس سابق لمصلحة الاستعلامات ونائب سابق لكاتب الدولة في الدفاع، ومن طرف الأميرال ويليام لـ أوين، النائب السابق لرئيس الأركان العامة في إدارة الرئيس كلينتون ؛ عنوان هذا المقال American Information Edge، حيث يقول : "العلم هو، أكثر من أي وقت مضى السلطة، والبلد الذي يتمكن من توجيه أفضل لثورة الإعلام سيكون الأقوى من بين الدول. هذا البلد هو الولايات المتحدة في المستقبل المتوقع. وهو المهارة في بلوغ الأهداف المرغوب فيها، في العلاقات الدولية، عبر الجاذبية أكثر من الاكراه.. إذا ما استطاعت دولة الوصول إلى إضفاء الشرعية على عملها لدى إدراك الآخرين وكانت قادرة على إقامة مؤسسات دولية تشجعها على تأطير أو الحد من أنشطتها (الدول الأخرى)، فإنها لن تحتاج إلى أن تصرف من مواردها الاقتصادية والعسكرية المكلفة"(*).

(*) Foreign Affairs, Mars-Avril 1996, Washington, pp : 20-36.

وكان المقال مصاحبا بنسر كبير يتربع فوق العلم الأمريكي، بين حاسوب وهوائي مقعر رفقة عبارة "عبر أنترنيت وحده" ؛ كلمة الأمر هذه تشكل أحد أكبر تحديات مستقبل البشرية.

وفي الوقت الذي يقدر فيه أن كثافة الإعلام في السنتيمتر المكعب، هي اليوم 10 مليارات أكثر مما كانت عليه قبل ثلاثين عاما، فماذا بشأن التضامن البشري ؟ إن مسألة أخلاق التواصل، تطرح بقوة وتشكل جزءا من لوغاريتم كل استراتيجية للتنمية. ولن أستشهد سوى بمثالين لتوضيح هذه الأزمة. المثال الأول، يوجد في الصفحة الأولى من جريدة فرنسية، تعود إلى 17 تشرين الثاني (نونبر) 1992، خلال الأزمة الصومالية التي خلفت ما يقرب من مليون ضحية، حيث نقرأ ما يلي :

"وصلت الوحدات الأولى من الكتيبة المكونة من الثماني وأربعين عربة ومصفحة على الساعة السادسة والربع، ساعة أجمل ضوء، إرضاء لتلفزات العالم أجمع، التي بادرت إلى عين المكان بالحقائب الساتلية وقاعات الماكياج للتغطية المباشرة لهذا الحدث الثاني من عملية إعادة الأمل". المثال الثاني يعود إلى بعض الأسابيع فقط، عندما عرف أن الجيش الأمريكي أخبر قناة CNN قبل ساعات قليلة من الهجوم الجوي على العراق، حتى تتمكن هذه المحطة من توفير التجهيز الضروري لتغطية القصف. فلم يعد البث المباشر يصلح فقط لتغطية الأحداث الرياضية أو الأحداث السياسية، بل إنه من الآن فصاعدا حاضر عندما تتم إبادة السكان المدنيين.

كان روني ماهو، المدير العام السابق لليونسكو، يقول بأن "التنمية هي العلم وقد أصبح ثقافة"، والعلم لا ينقل ؛ إنه يتطلب جهدا داخليا يجب أن يحترم بالضرورة نظام القيم الخاص بكل ثقافة، وهذا يناسب كثيرا مصير افريقيا.

كيف يمكن عدم البقاء في مؤخرة التطورات العلمية والتكنولوجية دون فقدان الحرية والكرامة والروح. إن الصالون الإفريقي للتنمية والتواصل، هو مناسبة ممتازة لتساؤل ملائم لكل بداية للجواب. لنتمنى له حياة طويلة وكثيرا من النجاح.

6

خوصصة القناة الثانية : الاحتيال

لا ينبغي أن يكون تنوع القيم الثقافية باعثا على فقدان شخصيتنا وماضينا وذاكرتنا، متعللين في ذلك بذريعة الانفتاح

قال البروفيسور المهدي المنجرة الباحث في المستقبليات، بأن ما يعرف بقطاع الاتصالات، باتت له مكانة وازنة في الاقتصاد العالمي..؛ وقال كذلك، بأنه تحت ذريعة الانفتاح على الآخر، فقدنا قيمنا الثقافية وتراثنا وذاكرتنا التاريخية وماضينا. وأضاف، أنه إذا أردنا أن نتقدم خطوة إلى الأمام ويتحقق لدينا الإقلاع الحضاري الشامل، وجب علينا أن نحمي هذه القيم ونحافظ على لغتنا الأصلية ونوظفها للغرض نفسه. وأعطى مثالا حيا لذلك، وهو النموذج الأسيوي الذي أدرك أهمية القيم الثقافية، فحافظ عليها وأصبح التعليم العلمي والتقني والجامعي عندها يتم باللغات المحلية. واعتبر البروفيسور المنجرة، في حوار مع جريدة «Le Quotidien» في عددها الصادر في 1996/10/26 ، أن القناة الثانية (2M) غير قانونية، لأنها تبث برامج من درجة ثالثة، تطعن بشكل صريح أو ضمني في ثقافتنا وتمرر على مدار اليوم خطابات لا تعنينا في شيء. وخلص في نهاية الحوار، إلى أن أزمة العالم الثالث في الوقت الراهن، أزمة حضارية تنم عن غياب رؤية واضحة، يتماهى الناس معها ويعملون في ضوئها...

ونظرا لأهمية المعلومات والأفكار المبثوثة في ثنايا هذا الحوار، نعيد نشره تعميما للفائدة :

(*) Le Quotidien Magazine 26/10/ - 1er/11/1996.

• شاركتم مؤخرا في ندوة بالعاصمة السينغالية دكار حول إشكالية الاتصال وعلاقته بالتنمية، هلا حدثتمونا أكثر عن هذا الموضوع ؟

▫ دار موضوع الندوة حول وظيفة ومكانة الاتصال والمعلومات بالنسبة للتنمية، وقد تبادل المختصون الأفارقة وجهات النظر والتجارب بخصوص هذا الموضوع، وعبروا عن أملهم في أن تقوم الجهات المعنية سواء في القطاع العام أو الخاص بإعطاء الأولوية اللازمة لقطاع الاتصال، الذي لم يعد دوره الفاعل على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي محل نقاش.

• أصبح قطاع الاتصالات من الرهانات الرئيسية في العلاقات الدولية. هلا تفضلتم بإعطائنا فكرة عما يمثله هذا القطاع بالنسبة للاقتصاد العالمي؟

▫ إن ما يعرف بقطاع الاتصالات، بات له فعلا مكانة وازنة في الاقتصاد العالمي. فهو يمثل ما بين 40% إلى 45% من مجموع الناتج الداخلي العام العالمي. ويمثل في بعض الدول المتقدمة ما بين 50% و55% من النشاط الاقتصادي. من هنا تأتي أهميته بالنسبة للرهانات الاقتصادية، وكذا بالنسبة لكل الهياكل والبنيات التحتية، التي يجب أن تتطور ليصبح بمستطاعها الاستفادة من الدور الفاعل للاتصال في تحقيق التنمية.

• هل يمكن القول إن الهوة بين الدول المتقدمة والدول السائرة في طريق النمو في المستقبل ستتعمق أساسا في مجال الاتصال ؟

▫ للأسف، هذه حقيقة قائمة منذ حين ؛ ذلك أنه لا الفلاحة ولا الصناعة بخصومها الكلاسيكيين، ولا التجارة كما نتمثلها.. الخ، تقف وراء اتساع هذه الهوة ؛ بل إن الأمر يتعلق في المقام الأول بميدان الاتصال. وبهذا الخصوص، فما يحصل من تباعد بين الشمال والجنوب، نلحظه أيضا داخل الدول ذاتها ؛ إن التكنولوجيات الجديدة للاتصال، تقوي بوجه عام سلطة الدول الغنية وتضعف سلطة الدولة الفقيرة التي لا تستطيع الحصول عليها، وهذا مرده إلى سببين اثنين، هما المعرفة والإبداع أو التجديد.

• ما هي العوامل التي تحدد بصفة ملموسة معالم هذه التكنولوجيات الجديدة للمعلومات ؟

▫ يتجلى العامل الأول في المعرفة، ذلك أننا إذا اعتبرنا وجود 50% كما هو الحال بالنسبة لإفريقيا، سنتبين عدد الأشخاص الذين لن يكون بمقدورهم الاستفادة من هذه التكنلوجيات الجديدة للمعلومات. أما العامل الثاني، فيرتبط بالإبداع والتجديد ؛ وتأخرنا بالتالي في هذا المضمار أمر بديهي. ولا غرابة في ذلك، فـ 59% من إجمالي النفقات المرصودة للبحث العلمي والتنمية في العالم، تستأثر بها الدول المتقدمة، رغم كونها لا تمثل إلا 18% من سكان العالم، في حين لا تتعدى حصة إفريقيا من هذه النفقات 0,03%.

• ما العمل إذن من أجل الانتقال من وضع الاستهلاك إلى وضع الفعل داخل مجتمع الاتصال ؟

▫ يجب التفكير في إحداث ما يشبه الحد الأدنى للأجور (SMIG) بميدان المعرفة، دون أن يكون له طابع إلزامي ؛ وذلك بضمان بلوغ حد أدنى من المعرفة داخل البلد الواحد. وكخطوة أولى، يجب إعادة توزيع المعرفة؛ لأجل ذلك، ينبغي أن تكون هذه المعرفة متطورة بالقدر الكافي. وبعبارة أخرى، نحتاج لسيادة روح قوية للمسؤولية ولتضافر جهود الدولة والقطاع الخاص والمجتمع المدني. وبعد ذلك، ينبغي الحرص على أن تكون هذه التكنولوجيات الجديدة في خدمة السكان اقتصاديا واجتماعيا، وأن يحس هؤلاء بأن حاجاتهم وانشغالاتهم تحظى بالاهتمام. ثم إن هناك بعداً آخر يجب ألا يتم إغفاله، وهو البعد الثقافي والاجتماعي. وفي هذا الصدد، يجب حماية القيم الثقافية ؛ فالتنوع برغم كونه مصدر غنى، إلا أنه لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يكون باعثا على فقدان شخصيتنا وتاريخنا وماضينا وذاكرتنا، متعللين في ذلك بذريعة الانفتاح. وبهذا الخصوص، يبدو النموذج الآسيوي ذا أهمية كبيرة. فهذه الرقعة من العالم أدركت أهمية القيم الثقافية، وهكذا أصبح التعليم العلمي والتقني والجامعي عندها، يتم كله باللغات المحلية. وفي كل الأحوال، فقد ثبت اليوم، بما لا يدع مجالا

للشك، أن جميع البلدان التي لم تستعمل لغاتها في ميدان العلوم والتكنولوجيا، لن يكتب لها النجاح في تحقيق إقلاع اقتصادي حقيقي.

ولعل التحدي المطروح، هو أنه مادام أي علم من العلوم، أو تكنولوجيا من التكنولوجيات ؛ كالاتصال مثلا، لم يأخذ طابعا محليا، فلن نتقدّم خطوة واحدة. وأخيرا، فالسبيل إلى بلوغ موقع الفاعل في مجتمع الاتصال، علاوة على العوامل المذكورة آنفا، تكمن في تطوير التعاون جنوب ـ جنوب، وهذا يعني إنشاء مجموعة دولية تكون مربحة تجاريا.

• إذا سمحتم أستاذ، نود أن تحدثونا عن المشهد الإعلامي المغربي خاصة بعد أن وضعت الدولة يدها على القناة التلفزية الثانية. ما رأيكم في الوضع الجديد للقناة الثانية، إذا علمنا أن هذه الأخيرة قد دخلت الحياة اليومية للمواطن المغربي، وصارت فضاء للتعبير.. إلخ ؟

▫ إجابة عن هذا السؤال، أود أن أشير، إلى أنه في ماي 1959، وعقب تعييني من طرف المرحوم محمد الخامس على رأس إدارة الإذاعة والتلفزة، نجحت في الحصول على المصادقة على ظهير يمنح للدولة بموجبه حق احتكار كل وسائل الاتصال مهما كانت طبيعتها. وما أثار اندهاشي بشأن القناة الثانية، هو أنه تم تفويت ملك للدولة إلى شركة خاصة في خرق سافر للقانون المغربي، ودون تعديل للظهير المذكور. فعملية تفويت القناة الثانية إلى القطاع الخاص عملية غير قانونية. لأنها سمحت لشركة بالاستحواذ على ملك للمواطنين. ولا حاجة بهذه المناسبة أن نشير إلى الأراضي التي تم احتلالها وميزانية الإذاعة والتلفزة المغربية وتجهيزاتها.. إلخ، التي تم استعمالها لهذا الغرض. فالدولة إذن لم تقم بأي تأميم.

كثيرا ما يتردد القول بأن الخوصصة تلعب دور المنقذ ؛ لكن ما يثير الاستغراب، هو أنه عندما تفلس مؤسسة خاصة، تهرع الدولة لإنقاذها، وبعد ذلك تعطيها مرة أخرى للخواص ! فماذا يجني المشاهد من هذه الصفقات ؟ القناة الثانية في تقديري قناة غير قانونية، ثم إنها فضلا عن هذا،

تبث برامج من درجة ثالثة، تطعن بشكل صريح أو ضمني في ثقافتنا، وتمرر على مدار اليوم خطابات لا تعنينا في شيء.

إن هذه العملية برهان على غياب النقاش الحقيقي والمشاركة البناءة. تصوروا أن هذه القناة تلتقط بالواضح في السينغال، بينما يجب على المواطن المغربي أداء مبلغ مالي مقابل الاستفادة من برامجها. بل الأدهى من هذا، ودون استشارته، يفرض عليه أداء رسوم عن خدمات هذه القناة عبر فاتورة الكهرباء.

حقا إن القناة الثانية مثال من بين أمثلة عدة، لكن من الواضح أنه ليس ثمة مجال يبرز فيه بشكل جلي الاستعمار الجديد وطرقه الأكثر تقدما ودهاء في بسط نفوذه من جديد أكثر من مجال الإتصال. ولقد حدث هذا، لأن جزءا كبيرا من هذا الاستعمار الجديد توجه إلى العقول مرسخا فيها مركب النقص.

• ما العمل إذن إزاء هذا الوضع ؟

▫ بكل بساطة يجب القيام بثورة فكرية، وهذه الأخيرة تستوجب أمورا كثيرة. إن أزمة العالم الثالث في الوقت الراهن أزمة حضارية تنم عن غياب رؤية واضحة، يتماهى الناس معها ويعملون في ضوئها. والحال، أنه بدون هذه الرؤية، ينعدم الحلم ؛ وتغيب بالتالي الإبداعية لغياب الخيال. لكن ثمة شيء أكيد، هو أننا قفزنا خطوة كبرى إلى الأمام، إذ لم نعد واهين، إننا واعون بضرورة البحث عن نموذج آخر للتنمية وكذا عن رؤية أخرى.

ستكون هناك مرحلة انتقالية صعبة جدا، لكن أظن أن ثورة الاتصال ستعمل على تفعيل هذا الوضع. وسيكون مصير من لا يستجيب لمتطلبات معينة، الإقصاء والتهميش ؛ وينطبق هذا على الدولة الواحدة، كما ينطبق على العلاقات بين الدول. لهذا أليس من الأجدى الشروع في العمل كوقاية من الوقوع في الفشل !

7

ستحمل شبكة المعلومات أنترنيت للمغرب ما يحمل المغرب للشبكة(*)

المهدي المنجرة، اقتصادي وخبير في المستقبليات وأستاذ بجامعة محمد الخامس، له ميل خاص لكل جديد في عالم التكنولوجيا والتواصل ؛ سيقدم إلينا وجهة نظره حول شبكة الإنترنيت بالمغرب.

الصحيفة : منذ متى بدأ اهتمامكم بمجال الإعلاميات ووسائل الإعلام الحديثة ؟

المهدي المنجرة : حاسوبي الأول، وهو من صنع أمريكي كندي، يرجع تاريخه إلى سنة 1981، لقد كان جديدا بالسوق. كان وزنه عشرة كيلوغرامات ولنقله عبر الطائرة، كان يستلزم ترخيصاً من الطاقم.

ومن ثم، فلقد كانت هناك سرعة فائقة في الإبداع التكنولوجي ؛ أذلهت الناس، لأن سرعة التطور لا تتغير بطريقة خطّية عكس ما يحصل بالنسبة للتكيّف مع التطور الاجتماعي الثقافي والتعليم والتسيير والسياسة. وسوف ندخل القرن الواحد والعشرين ونكتشف وسائل تكنولوجية مذهلة أكثر.

في حدود الخمسة عشرة سنة القادمة، سيتضاعف حجم مجموع المعارف الذي سيتراكم لدى الإنسان ؛ للتذكير فقط، فإن نموذج التسيير في العالم سيبقى مسترسلا ؛ لأن أهمية المعلومة تكمن في كونها الوسيلة الوحيدة لتحرير الناس ومساعدتهم على الاعتماد على النفس، إذا ما توفرت إليهم الإمكانيات.

(*) أجرى الحوار مهدي حرزي «Le Journal» رقم 7، 29 دجنبر 1997 الدار البيضاء.

وهنا لا أتحدث فقط عن الإمكانيات المادية، لأن الحاجز الأساسي لمردودية المعلومة يتجسد أساسا في البنيات الذهنية.

الصحيفة : هل تشكل هذه الشبكة خطرا على المغرب ؟

المهدي المنجرة : بالنسبة للإعلام والشبكة، فكل مجهود يبذل لضبطه بالمراقبة فهو ضائع ؛ إلا إذا أردنا الانقطاع عن العالم. بإمكاننا توقيف جريدة على الحدود، لكنها ستكون منشورة على الأنترنيت ؛ والطريقة الوحيدة للتخفيف من الخطر في كل ما يتعلق بالأنترنيت، هو الحضور على ساحة الأنترنيت واكتساح هذا الفضاء من الناحية الثقافية، لأنه لا يمكن لنا اكتساحها بالخطاب. لا يمكن لنا اكتساحها إلا بالإبداع اليومي.

في ساعة واحدة، يتم خلق اثنى عشر مواقعاً (web) جديداً، بينما الحضور لا يعني وقتا للترفيه في فضاءات الأنترنيت أو البحث عن الصفحات الغريبة. إن ثورة الاتصال والمعرفة، تتمثل في الحضور بالإنتاج. والإنتاج يتطلب محيطا صالحا للإبداع والحرية. ولكي يصبح الإنتاج معاشا، يتطلب الاعتراف والتقدير. إن الإعلام والتواصل والأنترنيت، يبرزون التناقض بين المعرفة وغياب الكفاءة. وفي كل تحد جديد، فإن الإشكالية الأساسية تعتمد على المعرفة ؛ ولكن من الضروري أن تكون لدينا رؤية. إلا أن المأساة تكمن في انعدام هذه الرؤية في العالم الثالث. ولكي تكون لدينا رؤية، يجب إشراك الشعوب.

وبما أن هذه المشاركة وهمية، حسب مجموعة من النصوص وعدة خبراء وإقرار شرعي هائل وقانون بيروقراطي ؛ فإن كل هذه الطاقة المبذولة لا فائدة منها، إلى درجة حتى أنه لم يبق إلا القليل لإعطاء المواطنين الوسائل للمساهمة في التفكير. إذن نعيش مستقبلنا بالطريقة التي رهن بها. إن المستقبل مثل الحياة لا يقبل بالفراغ، فإذا لم تحضر، فسيأخذ مكانك شخص آخر. وإذا لم تحضر على الأنترنيت فسوف يأخذ مكانك شخص

آخر. وكل ما باستطاعتك قبوله، كل ما هو موجود في عالم الإعلام والمعرفة، ولو كنت تتوفر على تجهيز أفضل.

سبق لأحد الفلاسفة أن أوضح أن الثورة الحقيقية، عندما تمر من مجتمع الإنتاج إلى مجتمع المعرفة، تحدث على مستوى آليات الإنتاج الذي يصبح أكثر أهمية من المنتوج نفسه. وإذا كانت لديك هذه الآليات، فإنك تملك رأسمالا هائلا. لأنه بدون البنية الذهنية الضرورية، وكيفما كانت جودة الحاسوب، وبأحسن مواقع الأنترنيت في العالم، لن ندخل فضاء الأنترنيت الذي يدمج الآلية وليس المنتوج.

كنت مؤخرا بمؤسسة مغربية كبيرة، فقال لهم أحدهم «أخيرا نتوفر على الأنترنيت»، وبالطبع فإنه يشير إلى المنتوج، وأضاف «إنه بمكتب المدير العام»، بينما المدير الذي تجرأ على إدخال الأنترنيت، لا يتقن استعماله، وهو في حاجة دائمة لمتخصص يساعده.

إن الأنترنيت الذي أصبح علامة للسلطة والنفوذ، يعرِّض أيضا للخطر. ويشكل جميع المزايا التكنولوجية التي تتطور بطريقة هندسية، كما له مساوئ البنية الذهنية التي تتطور بشكل بدائي.

والخطر الآخر الوارد، يتسلل عبر الهيمنة والاعتداء الثقافي اليومي، وبالطبع، فإن الفجوة بين الشمال والجنوب تتسع، ولاسيما بسبب الغياب في عالم الأنترنيت.

الصحيفة : ماذا يمكن للأنترنيت أن يحمل للمغرب ؟

المهدي المنجرة : إن الأنترنيت سيحمل للمغرب ما يحمل المغرب للأنترنيت ؛ وهي عملية تفاعل. دعني أشرح لك : إن الشبكة ستحمل بعض الأشياء مقارنة مع ما سنعطيه لخلق دائرة إعلامية ستنشط البلد، وفي نفس الوقت، تلقي إشعاعا خارج البلد. أحد خبراء التواصل قال : هناك زمن كانت فيه بنياتنا محددة، لأنها كانت تعمل من أجلنا ؛ واليوم، أصبحت محددة بما هي مربوطة به. لنلخِّص : «قل لي موقع ارتباطك، أقول لك من

أنت» ؛ المواقع التي شاهدتها على أجهزة الإرسال بالمغرب، تفتقر إلى الديناميكية لحد الآن.

كلما جدّدنا الموقع وجعلناه مواكبا للتطورات، زدناه ديناميكية ؛ إن الحضور على الأنترنيت يستوجب الديناميكية. وهذا لا يعني الاهتمام بالوصلات الإشهارية، ولكن الاهتمام بالمضمون وتجديده بصفة منتظمة وشيقة.

لا يجب أن يكون الحضور على الأنترنيت ظاهرة عابرة أو مستمرة ودائمة. إذا تفاوضنا حول خلق موقعنا على معايير جمالية جذابة، مع اختيار لون معين وصورة مدققة وتحريك ثلاثي البعد، سنهمل ما هو أهم.

أين المضمون ؟ أين نحن من المواكبة ؟

وسيحمل الأنترنيت للمغرب ما يستثمر المغرب في البنيات التحتية. لحد الآن، لازال ضعيفا. وأحيانا يصعب ملء برنامج. والمسؤولون الذين قاموا بتوقعات وفكروا بطريقة مستقيمة، فكانوا أيضا متجاوزين في الحين بالتطور الحقيقي للأنترنيت. وأملنا أن تتحسن الأمور.

الصحيفة : ماهي سبل إقلاعة هذا التفاعل ؟

المهدي المنجرة : لا يمكن لهذا التفاعل أن يتحقق إلا بمساهمة الأشخاص الذين استهدفتهم هذه التكنولوجيا في هذا الخيار. إذ لا وجود لوصفات أو تعاليم جاهزة. ولا يجب الاعتقاد بأن التقنوقراطيين يستطيعون تطوير الأمور بفرض وجهة نظرهم، لأن لهم هذه الشهادة أو تلك، أو لأنهم يستفيدون من دعم ما.

ولكي نصل إلى مستوى معين من المشاركة، يجب رفع مستوى التعليم وفتح معاهد السلك الثالث. إنه موقف يجب أن ينبع من انشغال وطني. ولكن هل من اهتمام بالبحث العلمي ؟ في أي برنامج سياسي، نتحدث عن ثورة

المعرفة والتواصل ؟ إذا كانت هذه النخبة، والتي يفترض فيها أن تحمل هذا المشعل، غير واعية ؛ كيف للمغرب أن يعطي للأنترنيت ؟ والعكس بالعكس ؟

من جهة أخرى، فإنني جد متفائل، عندما ألاحظ سرعة الاستيعاب لدى الشباب وقدرة تتبعهم وفهمهم لتطور الأمور. وبفضلهم ستكون هناك قفزة ورد فعل مع الأثر المضاد Rétro effet. وللأسف ما سيثقل كاهلنا، هو معدل الأمية الذي يشكل عبئا ثقيلا. والإشكالية هي قبل كل شيء تركيب عقلاني.

لكن هناك جانب إيجابي : الوعي المتزايد بهذه القضية.

8

عولمة العولمة(*)

أود في البداية أن أتقدم بخالص شكري إلى منظمي هذا الملتقى، الذين تفضلوا باستدعائي، في شخص المسؤول العلمي للجنة المنظمة، الأستاذ كريس بيرسون Chirs Pierson والدكتور سيمون طورمي Simon Tormey الذي اقترحني كضيف شرف. وليُسمح لي أيضا بتوجيه متمنياتي بالتوفيق إلى أعضاء جمعية الدراسات السياسية بالمملكة المتحدة، بخصوص أعمال هذا الملتقى السنوي التاسع والأربعين.

اطلعت، وأنا أستقل الطائرة لحضور هذا الملتقى، على مقالة لصموئيل هنتنجتون S. Huntington بمجلة Foreign Affairs الصادرة بتاريخ 28 مارس 1999.

وقد بدت لي هذه المقالة ممثلة بقوة لمدرسة السياسة «الواقعية» لدرجة يمكن معها تشبيهها ببحث في «السوريالية» السياسية.

عنوان هذه المقالة، هو : القوة العظمى الوحيدة، لأنه وكما جاء في الصفحة الأولى : «لم تعد هناك من الآن فصاعدا سوى قوة وحيدة».

نكتشف بعد ذلك «أن تسوية القضايا الدولية الرئيسية، تستدعي مبادرة تقودها القوة العظمى الوحيدة بمعية بعض التكتلات المكونة من الدول

(*) نص المداخلة الذي شكل أساس محاضرة ألقيت ضمن أعمال الملتقى الذي تشرف عليه جمعية الدراسات السياسية بالمملكة المتحدة، وذلك في 3 يونيو 1999 بشعبة الأنثربولوجيا والتاريخ بجامعة هوكايدو [سابورو Sapporo ـ اليابان]. وقد نشرت ضمن كتاب :

C. Person and S.F. Tormey (eds.) Politics at the Edge : The PSA Yearbook, London and Basingstoke, Macmillan, London, 2000.

الكبرى الأخرى. غير أن القوة العظمى الوحيدة، يمكنها أن تمارس حق النقض بخصوص القضايا الجوهرية [...]، ومن البديهي أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية، هي الدولة الوحيدة المتفوقة في كل مجالات القوة : اقتصاديا وعسكريا ودبلوماسيا وإيديولوجيا وثقافيا، مع توفرها على قدرات التدخل الضرورية لصيانة مصالحها في كل بقاع العالم». ونتج عن ذلك تراتبية السلطة في العالم الجديد لـ «السياسة الكونية». فبعد القوة العظمى الوحيدة، نجد في المرتبة الثانية «القوى الإقليمية المهمة» وفي المرتبة الثالثة «القوى الإقليمية الثانوية».

وهناك 15 دولة تنتمي لهذين الصنفين الأخيرين، ولا يتوقع أي ترتيب خاص بالنسبة لأكثر من 180 عضوا ضمن المجموعة الدولية، اللهم إلا إذا ما تم تصنيف هؤلاء الأعضاء، ببساطة وعن طريق الإقصاء، في خانة «آخرين».

في ظل كل هذا، أي قراءة يمكننا القيام بها لميثاق الأمم المتحدة وللمعايير الأكثر بساطة للمواثيق والاتفاقيات الدولية ؟ ماذا سيتبقى من مفهوم التفاوض والتصالح ذاته ؟ وما هو مآل حرية الاختيار [الإرادة الحرة] ضمن التعاون الدولي ؟ ألا يجب علينا الحديث بالأحرى عن «لبرلة سياسة القوة» و«خوصصة» العلاقات الدولية من لدن قوة واحدة ؛ وذلك بفضل «هيمنتها داخل كل مجال من مجالات القوة»، كما سبق أن رأينا ؟ إن «العولمة» في السياسة الدولية المعاصرة، تتطلب الهيمنة لتسهيل عملية التجانس ووضع نظام جديد للطبقات المغلقة، وذلك على مختلف الدرجات ؛ حيث يمكن «لقوة الأغنياء» و«لقوة المحرومين»، أن تتواصلا وفق قواعد محددة من جانب واحد من أجل «مصلحة» الجميع. هكذا، فإن قوة مثل الولايات المتحدة الأمريكية، بساكنتها التي تناهز 250 مليون نسمة، أي أقل من 5% من ساكنة العالم، تجد نفسها بفعل «عولمة» القوة، في وضع قائم على قيادة العالم حسب هواها وبدون أن تترك للآخرين المنقادين أدنى إمكانية للطعن.

إن مادلين أولبرايت، تنعت هذه القوة «بالدولة التي لا غنى عنها»، وتضيف قائلة : «لأننا قادرون، بفضل طول قامتنا، أن نرى أبعد من الأمم الأخرى».

إن السلام في هذه الحالة، سيكون مهددا بشكل خطير، كما أن الحفاظ على التنوع الذي يعتبر أساسيا بالنسبة للبقاء، سيعرض للخطر. فحظوظ تقليص الفروق داخل نفس البلد وبين الأمم، أصبحت ضئيلة جدا. وسيكون التواصل الحقيقي المتضمن للاحترام المتبادل أصعب بكثير؛ ذلك أن الغطرسة لم تكن أبدا وسيلة لتحقيق السلام أو الحكمة أو طريقا نحو التواصل والمعرفة المتبادلة. وبهذا الصدد، فإن أبيات حافظ، شاعر فارس القديمة، تدفعنا إلى تذوق حكمة الشرق التي يمكن استخدامها كعلاج ضد «ما بعد غطرسة العولمة»؛ ومما جاء في هذه الأبيات:

في الممر الكوني الشاسع
حيث تبدو الشمس كحبة تافهة
كل من يقول إنه عظيم
يعتبر قليل الأدب وجاهلا
لأنه لم يكتشف بعد
ما يربطه حقيقة بالكون.

وبالفعل، فإن أولئك الذين يريدون منا أن نثق «بالعولمة» بنوع من السذاجة، لم يكتشفوا بعد ما يربطهم بشعبهم وبالإنسانية بصفة عامة، دون أن نتحدث عما يربطهم بالكون. فهم قد احتجزوا الكوكب الأرضي، وجعلوا الفضاء خاضعا للهيمنة العسكرية، واحتلوا البلدان ورشوا الحكومات واشتروا عقول وأقلام جزء لا يستهان به من أنتلجنسيا العالم الثالث، وعبّدوا الطريق أمام شركاتهم المتعددة الجنسيات، للاستحواذ على جزء هام من المقاولات العمومية؛ وبالتالي إضعاف الاقتصاديات الوطنية لبلدان الجنوب، مع تعميق التفاوتات السوسيواقتصادية بها. علاوة على ذلك، فهم وقعوا لفائدة الحكومات غير الديمقراطية، والتي لا تمثيلية لها، علي عقد تأمين للحياة ضد إرادة شعوبهم نفسها. إن «العولمة» تعني مركزة السلط، كل أشكال السلط، وليس فقط السلطة السياسية. هكذا، فإن شركتين أمريكيتين وهما: General Motors وExxon، تحققان لوحدهما رقم

معاملات يفوق مداخيل الهند ذات المليار نسمة. فنحن نوجد في مرحلة خضعت فيها اللغة ذاتها للتحريف ؛ حيث أصبحت الكلمات، وبحركة دلالية ذات مفعول قوي، تدل من الآن فصاعدا، على عكس معناها الأصلي. فـ «العولمة» ترجع في التحليل الأخير إلى «اللاتنظيم» ؛ إنها تعني منذ الآن، العملية التي يتم بواسطتها ـ بمساعدة صندوق النقد الدولي والبنك العالمي في الغالب ـ «تنظيم» نزع ملكية الشعوب بمباركة الزعامة المحلية التي لا يفوتها الاغتناء بالمناسبة.

ومنذ حوالي ست سنوات، كتب جيمس مورغان بجريدة الـ Financial Times ما يلي : «إن انهيار المعسكر السوفياتي، قد ترك المجال شاغرا أمام صندوق النقد الدولي ومجموعة السبعة الكبار (G7) للتحكم في العالم وخلق مرحلة إمبريالية جديدة...

وإن إقامة نظام عالمي جديد، هي صنيعة السبعة الكبار وصندوق النقد الدولي والبنك العالمي والكاط Gatt. غير أن هذا النظام، يعمل ضمن نسق غير مباشر للحكم، يتضمن إدماج قادة البلدان النامية داخل شبكة الطبقة الحاكمة الجديدة...».

إن البلدان النامية لا تقبل فقط ما كان يبدو منذ عقدين، كدور ثانوي في الاقتصاد العالمي ؛ بل تدعم نظاما لا يمكن أن تلعب فيه بالفعل، سوى دورا تابعا...؛ ويبدو كل هذا مخالفا بشكل غريب لخطاب سنة 1970 ؛ إلا أنه لا يبتعد كثيرا عن خطاب سنة 1900 ؛ فداخل القوى الإمبريالية القديمة، تسير الأشياء من جديد باتجاه الوضع القار القديم Statuquo anté (النظام القديم). وتسمح «العولمة» مسبقا لـ 17% من سكان العالم الذين يسيطرون حاليا على 80% من موارد الأرض، بتعميق الفارق بين الشمال والجنوب، وذلك بنسب لا يمكن لأكثر من 5 ملايير نسمة تحملها. وبالفعل، فإن ما تمت «عولمته» حاليا هو، بكل تأكيد، الفقر والظلم الاجتماعي والرشوة والاستيلاب الثقافي، وهو أيضا التضييق على الحريات والحقوق المدنية. فما هو الحيز المتبقي للديمقراطية داخل مجال غير ملائم، مجال تم تشكيله

ورعايته من لدن «القوة العظمى الوحيدة» وأتباعها ؟ ذلك هو السؤال الحقيقي والشمولي الذي يحتاج إلى العولمة.

ويبدو اليوم، أنه من المستحيل عمليا على كل بلدان العالم الثالث، الانخراط بشكل حر وديمقراطي ضمن عملية التغيير، بدون مباركة «القوة العظمى الوحيدة» أو أي «قوة إقليمية ذات أهمية».

فعولمة الديمقرطة، تعني تقوية آليات التوجيه عن بعد [والمراقبة عن بعد]، لضمان استمرارية أنظمة خاضعة، تنادي بالديمقراطية على المستوى الصوري، ولكنها تمارس الاستبداد عمليا بموافقة «عالمية».

لقد كنت مترددا في المشاركة في النقاشات حول «العولمة»، ومايزال تحفظي قائما إلى الآن. وكانت آخر الدعوات الموجهة إلي في هذا الإطار، وهي الدعوة التي رفضتها، قد وصلتني من المنتدى الاقتصادي الدولي، بخصوص الاجتماع السنوي بدافوس لسنة 1998. وكانت الدعوة مرفقة بالتعليق التالي : ما دمتم تحسبون على أولئك الذين يتحدثون باسم العالم الثالث، فاحضروا معنا ليشاطركم الآخرون وجهة نظركم.

لكن كيف يمكنكم القيام بتبادل لوجهات النظر مع أناس ذوي آراء قطعية ونهائية، أناس عقدوا العزم على استخدام كل الوسائل الممكنة لجعل أولئك الذين يفكرون بطريقة مغايرة، يبدلون رأيهم ؟

إن الانشغال الوحيد «للداعين إلى العولمة»، هو استقطابكم إلى معسكرهم ؛ أما كيف ومتى وكم من المال سيصرفون مقابل ذلك ؟ فتلك هي المسألة.

ومن بين المآسي التي تصيب العالم الثالث، كون جزء من نخبته، تتسع قاعدته أكثر فأكثر، وأصبح معروضا «في السوق» وخاضعا لإغراء هاته العروض.

وللأسف، فقد أصبح عدد الأعضاء المنتمين للمهنة الأكاديمية والمنخرطين في هذه العملية، كبيرا جدا. هكذا، فإن «العولمة» لم تقم فقط

«بإزالة النظام» و«إزالة التنسيق» ؛ بل هي تسعى أيضا، وعن طريق المتاجرة، إلى «إزالة الطابع الأكاديمي» عن عالم المعرفة والبحث.

فبالنسبة «للعولمة»، كل شيء وكل فرد يجب أن يعرض «في السوق». طبعا، إن السؤال المطروح، يتعلق بمعرفة سبب مخالفتي للقاعدة بحضوري لاجتماعكم. وتفسير ذلك، أن هذا الحضور يرجع إلى الصداقة والاحترام اللذين أكنهما للمنظمين، واللذين عاينت أشغالهما في مناسبات أخرى. ومن جهة أخرى، فقد كنت على علم بأن «مؤشر التسامح» القائم بين الجامعيين، ينبغي أن يكون مرتفعا بما فيه الكفاية، لضمان تبادلات حقيقية لوجهات النظر.

ولم أدرك، سوى، في هذه اللحظة، دقة النصيحة التي أسداها لي الأستاذ وايت Wight المدير المشرف على أطروحتي في الدكتوراه بمؤسسة London School of Economics، وذلك منذ أربعين سنة. فقد قال لي حينها : «الآن وقد حصلت على شهادتك، فإنني أنصحك بأن تنسى كل ما تعلمته، لأن فائدته ستكون نسبية بشكل كبير. تحرر من اللغة التي اكتسبتها، إذا ما أردت أن تفهم معنى الأشياء».

في هذا السياق إذن، أتساءل عن فائدة كل ما تعلمته ودرسته للطلبة في الفضاء الجامعي خلال هذه العقود الأخيرة، خصوصا أمام شطحات العلميين ما بعد السياسيين post-politiques وغرورهم الذي لا يحتمل ؛ هذا دون الحديث عن الحيل التجارية لمرتزقة «الليبرالية» و«العولمة».

وقد رجعت من جديد إلى كتابات بعض المؤلفين الذين ساهموا في تقدم بعض من هذه **المجالات**، لأستشف مدى راهنيتها.

ففي كتاب Politics among **nations** (1960) لهانز مورغنتاو Hans Marganthau، ستجدون بكل تأكيد إحالات على سياسة السلطة ؛ لكن هذه الإحالات لن تساعدكم على إدراك مفهوم «القوة العظمى الوحيدة». وفي هذا الإطار، فإن مؤلف Systems and process in international politics (1957) لمورغان كبلان Morgan kaplan، هو بكل بساطة بدون موضوع ؛

لأنه يبرز التمايز، في حين أن «العولمة» تنحو بالضبط باتجاه «التجانس». ويبدو كتاب A working peace system (1960) أقل وجاهة بهذا الخصوص.

أما مؤلف Beyond the walfare state، الذي كتبه غونار ميردال Gunnar Myrdal سنة 1960، فهو أقل ملاءمة، لأنه يدافع عن أطروحة معارضة تماما لأطروحة الداعين إلى «العولمة». ولا يتعلق الأمر هنا طبعا، إلا ببعض الأمثلة القليلة جدا، والتي تلقي الضوء على مرحلة معينة.

وإذا ما عدنا الآن إلى ميثاق الأمم المتحدة، فإننا سنلاحظ بأنه أصبح عبارة عن وثيقة غريبة، صالحة فقط للحفظ داخل أرشيفات متحف لاستخدامها عند الاقتضاء في الأبحاث حول حفريات العلاقات الدولية. نجد في هذا الإطار، كتابات موريسون وكوماجر Commager and Morrisson وتحليلا مفصلا للوثيقة فصلا فصلا وبندا بندا، مع إحالة على ما تم إنجازه بسان فرنسيسكو، أي ما يناهز 700 صفحة، أصبحت تنتمي إلى جيولوجيا العلوم السياسية.

أما أورن يونغ Oran Young، وهو من الأوائل الذين استخدموا منهجية تحليل الأنساق ضمن دراسته حول الأنظمة السياسية، والذي حقق كتابه systems of political sciences (1968) تجديدا مهما في هذا المجال، فإنه يعتبر اليوم أقل نسقية، مثله في ذلك مثل موينسي رايت Quincy Right ضمن كتابه The study of international relations. وفي الواقع، فإن المعرفة والبحث، قد خضعا لعملية «إزالة النظام» عنهما، وتمت خوصصتهما بقوة الأشياء.

إن الحرية والتقدم العلمي سيعانيان بشكل كبير، أثناء كل عملية مراقبة، مباشرة أو غير مباشرة، لسيرورة البحث عن الحقيقة. وفي الواقع، فإن هذه العملية، هي أفضل وسيلة لتمهيد الطريق أمام الديكتاتورية والتوتاليتارية ؛ «فالعولمة» تشكل بقدر كبير، توتاليتارية جديدة لا تعلن عن اسمها.

وفي هذا السياق، يطرح السؤال الإبستيمولوجي التالي : كيف تتطور المعرفة داخل مجال أو مادة تخصصية ما، وكيف يتم إبرازها وتجديدها

ومراكمتها ؟ هل من اللازم أن تعالج هذه المعرفة كمادة للاستهلاك فقط، دون أخذ بعين الاعتبار لخاصيتها التراكمية ولا لوظيفتها التنبؤية ؟

صحيح أن المعرفة مؤقتة وأنها تتطور دوما وبوتيرة سريعة. كما أننا نعلم بأن ما هو صحيح اليوم يمكن أن يصبح خاطئا غدا. وهذا الأمر ينطبق بالخصوص على العلوم الاجتماعية، التي يبدو أننا نميل فيها إلى السلوك المتغطرس نوعا ما.

إنني عندما أحاول فهم البعد السياسي والسوسيواقتصادي لـ «العولمة»، فإنني أترك جانبا كل تحليل يريد أن يدفع بي إلى اعتبار «السلطة» هي المرجع الممكن الوحيد، «والقوة العظمى» هي المؤشر الوحيد أيضا. فلغة الأتباع الجدد، تتلخص في القول التالي : «ليس أمامكم أي خيار آخر». وفي اعتقادي، فإن هذه الصيغة تصف بوضوح وتلخص بأمانة، جوهر ما نقصده من كلمة «العولمة». فالحرية والكرامة لا تتركان أمامنا أي خيار آخر سوى القول : «إننا نملك فعلا الاختيار، وكذلك الحق المقدس في مسايرة هذا الاختيار». إن أولئك الذين يقولون لنا : «ليس لديكم أي خيار آخر»، قد استقالوا لأسباب عديدة، بل إنهم عملوا بوعي على «عولمة» الاستسلام كأسلوب في الحياة.

وذلك هو حال عدد كبير من المسؤولين الحكوميين والمقررين بالقطاع الخاص في العالم الثالث. ولن نمل أبدا من تكرار القول، إن هؤلاء الأشخاص لا يمثلون سوى أنفسهم، فمصداقيتهم أمام شعوبهم شبه منعدمة، وبقاؤهم داخل حلقة السلطة وكذا جشعهم الاقتصادي، هما العاملان الرئيسان اللذان يفسران هذا السلوك. وهناك في الغرب ميل بالأحرى، إلى طمس هذه الوقائع المعروفة لدى الجميع، وإلى إعطاء الامتياز بالتالي للمدى القصير، بدل الارتقاء إلى رؤية تخيلية للمستقبل.

إن أناس الشمال، مازالوا غير آبهين بمصير أربعة ملايير نسمة من الجنوب، يعانون من التأثيرات المشتركة للإدارة الفاسدة وللرشوة على المستويين الداخلي والخارجي ؛ وللاستغلال الناتج عن السياسات ما بعد الاستعمارية. فالوضع قابل للانفجار، لكن كل واحد يتحدث عن الطرق

والوسائل الكفيلة بضمان الاستقرار. لكن لصالح من سيكون هذا الاستقرار وبأي ثمن ؟

إن الاستعمار القديم، كان يحظى على الأقل بامتياز الشفافية ؛ إذ كنت تجد محتلا وساكنة خاضعة للاحتلال، ساكنة مرهوبة أمام الأجانب ؛ كنت تجد زراعة واقتصادا مخصصين لحاجيات أقلية متواجدة في ما وراء البحار ؛ وباختصار كان هناك إخضاع مفتوح بدون أقنعة. أما اليوم، فقد أصبحت الأشياء مع ما حدث بعد الاستعمار، أكثر تعقيدا. فالأمر يتعلق «بتجمع» يتواطأ فيه المستعمرون القدامى مع المستغلين العالميين الجدد.

لقد تم تشجيع «العولمة» بشكل كبير، بفعل التأثيرات المشتركة لكل من : ما بعد الاستعمار ورعاية القوة العظمى ووصاية المؤسسات المالية العالمية التي تعمل تحت إمرة هذه الأخيرة، إضافة إلى السلوك المرتشي والجبان لأولئك الذين يتحكمون في مصائر الجنوب. ولن أقوم هنا بإطالة الحديث عن العلاقات التاريخية، إن لم أقل المرضية ؛ وأعتقد أن بإمكاني المطالبة بحق الأبوة بالنسبة لصيغة «ما بعد الاستعمار»، والتي عملت أيضا على تدقيق مفهومها. وبإمكانكم العثور على العناصر التمهيدية لهذا الموضوع ضمن المجلة الشهرية Futuribles (عدد 147، باريس أكتوبر 1990) في مقالة تحت عنوان : أزمة الخليج، مقدمة للمواجهة شمال/جنوب، بدايات ما بعد الاستعمار. ويمكن التأكد من ذلك بسهولة أثناء البحث في الأنترنيت عن ألفاظ : «ما بعد الاستعمار» و«الاستعمار البعدي». ففي حقبة الاستعمار الجديد، لستم في حاجة إلى قوات الجيش للسيطرة على البلدان ؛ إذ بإمكانكم فقط استخدام البنيات التحتية الموجودة بعين المكان، وخصوصا «المتعاونين» الراضين من بين المجموعات الحاكمة وبعض المرتزقة من المثقفين. فهؤلاء الأشخاص يعلمون علم اليقين، بأنهم لن يظلوا في السلطة بدون «المستعمر الجديد». وعلى أي حال، فإن هذا الأخير واعٍ بأن مصالحه وسلطته يمران عبر هؤلاء. وهنا يبرز هدفهم المشترك، المتمثل في ضمان استقرار أولئك الذين يتواجدون على هرم السلطة. وإذن، فإن الأشخاص الذين لا يمكنهم الوصول إلى السلطة بواسطة سيرورة ديمقراطية

حقيقية - وهذا هو حال الأغلبية الساحقة للحكومات الراهنة بالعالم الثالث - يعتمدون على ما بعد الاستعمار الذي أصبح من الآن فصاعدا، مغتنيا ومدعما من طرف «العولمة».

في سنة 1970، أشرفت على تسيير حلقة دراسية بـ : London School of Economics، لها صلة بالعلاقات الدولية والبحث الإجرائي، وكتبت حينها كتابا بعنوان The united nations system : An analysis، وبزغ هذا المشروع من قناعة مفادها أنه بمقدورنا دراسة الأنساق الاجتماعية من خلال مقاربة منهجية، خاصة إذا نحن أبرزنا وظائف أنساق القيم وكذا تنوعها. كان قد سبق لي العمل لبضع سنوات في إطار نظام الأمم المتحدة. وكنت حينها متأثرا على المستوى المفاهيمي، بأعمال العالم البيولوجي Von Bartalaney، مؤلف كتاب مهم تحت عنوان :

On Systems، ظهر سنة 1942، يشرح فيه، ضمن أشياء أخرى، ظاهرة الـ «Feed back» (التغذية الراجعة). فبفضل اكتشافاته وتطبيقاته البالستيكية، تم تجنيب لندن مغبة قذائف V2. يقول هذا العالم في صيغة وجيزة وعميقة : «هنا حيث توجد الغاية، يوجد النسق». كان «هدفي» عند تحليل نظام الأمم المتحدة O.N.U، البحث هل الأمر يتعلق «بهدف» واقعي، وإذن بنسق حقيقي في هذا النظام أم لا؟ وبعد عامين من البحث، توصلت إلى خلاصة بسيطة : أجل، كان هناك هدف حقا من هذا النظام لسنة 1945، فأولئك الذين سطروا ميثاق الأمم المتحدة يمثلون أقل من 50 بلدا، كلها أمم يهودية مسيحية، باستثناء بلد واحد : لبنان (رغم كون رئيسه مسيحيا هو الآخر).

وبالتالي، كان هناك عامل تجميعي يتعلق بنسق القيم، هو الذي ينظم النسق في مجموعه. كل هذا تغير مع وصول ما يطلق عليه البعض «حشد البلدان المستقلة»، التي يملك كل واحد منها صوتا في الأمم المتحدة، مثله في ذلك مثل الأعضاء المؤسسين ؛ حشد ينتمي إلى أنساق من القيم المختلفة، تقطع مع الانسجام الذي كان سائدا في هذا المستوى إلى حد الآن.

هؤلاء الأعضاء الجدد، خرجوا لتوهم من الاستعمار، ولم يكونوا في حينه، على استعداد للخضوع إلى جهاز القيم والمسلكيات المفروضة من طرف واحد، ودون أن يسبق لهم المشاركة في بلورته.

بدأ «المساهمون الأساسيون» في ميزانية الأمم المتحدة، وعلى رأسهم الولايات المتحدة التي تدفع 25% من الميزانية، والقلقون من الآثار التي يمكن أن تكون لهذا الانضمام «الواسع» للأعضاء الجدد، على سيرورة التصويت وسط المنظمة، بالتشكيك في المبادئ الأساسية، كمبدأ مساواة الأعضاء والمتعلق بالدلالة الديمقراطية «لأغلبية ما» ؛ هكذا ظهر تعبير جديد للوجود : فبدأ «الشمال» يتحدث فعلا، عن الأغلبية «الأوتوماتيكية»، واضعا إياها كسيرورة «لا ديمقراطية» ؛ وهناك من ذهب به التفكير إلى حد اعتبار ممارسة حق التصويت، كما حددها ميثاق الأمم المتحدة، لا تتلاءم ومقاصد وأهداف التعاون الدولي وحفظ السلام ! هكذا، ولأول مرة في التاريخ القصير للمنظمات الدولية، تم الطعن بشكل مكشوف وبجدية في المبدأ الديمقراطي المقدس والجليل، المتعلق بمساواة الدول.

إن المواصفات الأساس للميثاق، والمتعلقة بالطابع الإلزامي لتسديد المساهمات المالية، كما حددتها الجمعية العامة، لم تحترم. وكان يتم التغاضي عن هذا الإخلال، كما مارسته الأمم المتحدة، من لدن الدول الأعضاء للأسف، ومن لدن سكرتارية الأمم المتحدة : فالقواعد لا تطبق على أولئك الذين يستطيعون فحص انتهاكها، فأضحى «نمط العيش» الضمني هذا، هو النمط الجديد داخل المؤسسات الدولية، باسم «الواقعية السياسية».

إن الخلاصة التي توصلت إليها بعد نهاية هذا التحليل، منذ 25 سنة خلت، هي أن نظام الأمم المتحدة محكوم عليه بالفشل، لأنه لم يعد موجها بهدف متفق عليه، اللهم إلا في الحالات الخاصة. ولأن الجمعية الأممية قد

تعرضت لتحولات عميقة على مستوى أعضائها، كان لزاما عليها التفكير في إعادة بناء كل النسق على قاعدة هدف محدد بشكل جديد، وبطريقة تعكس وتحترم التنوع الجديد لعناصرها المكونة.

فالأمم المتحدة الحالية بأعضائها الـ 160، ليست هي الأمم المتحدة لسنة 1945. وإذن ما العمل ؟ يبدو لي أنه علينا أن نكون حذرين كل الحذر تجاه ثقل ودور أنساق القيم، في العلاقات الدولية. ففي سنة 1978 وبمناسبة الطاولة المستديرة الأولى شمال - جنوب، التي نظمتها Society for international developement (SID)، قلت ما يلي : «علينا أن نمنح الأسبقية العليا لسلم القيم، لأجل تبيان أن الأزمة الحالية بين الشمال والجنوب، لا يمكنها أن تحل بملاءمة بسيطة».

نفس الانشغال أكدت عليه في تقرير Limits to learing 1979 حيث قلت: «إن التنوع الثقافي، سواء على المستوى الوطني أو الدولي، سيبقى إحدى الحاجات النفسية والروحية الأكثر أولوية، والذي يمكنه أن يغدو أكثر فأكثر مصدر نزاع داخل المجتمعات وفيما بينها».

في أكتوبر 1986 بطوكيو، أكدت في إطار برنامج تلفزي متعلق بـ مستقبل التعاون الدولي، على أن أسباب النزاعات المقبلة، ستكون من طبيعة ثقافية أساسا. وفي سنة 1991، بعد حرب الخليج، أعلنت في استجواب مع جريدة Der Speigel، بأن هذه الحرب هي «الحرب الحضارية الأولى». وفي أشهر قليلة بعد ذلك، أصدرت كتابا تحت نفس العنوان، يحمل فصله 13 عنوان : «المجابهة الحضارية».

إن البعد الثقافي في العلاقات الدولية، كان واحدا من انشغالاتي الثابتة، سواء على المستوى الأكاديمي أو الإداري، خلال العشرين سنة من الخدمة في إطار اليونسكو، خاصة حينما تكلفت بقطاع الثقافة داخل المنظمة. فالثقافة هي بالفعل، الأداة التي لا يمكن إيلاؤها حق قدرها في تحليل العلاقات الدولية.

هكذا يمكننا، على سبيل المثال، انطلاقا من تصريح أدلى به الرئيس بوش في منتصف غشت، أن نستشرف الآفاق ونرى حرب الخليج آتية : «سيتأثر شغلنا ونمط عيشنا وحريتنا وكذا حرية البلدان الصديقة على مستوى العالم، إذا ما سقطت مراقبة الاحتياطات الكبيرة للبترول في أيدي صدام حسين».

نفس هذا التوقع، هو الذي عبرت عنه في حوار بـ إذاعة فرنسا الدولية المبثوث يوم 6 أكتوبر 1991، حيث أكدت على ما يلي : «أجل ستقوم الحرب». من هنا فالجملة كما نطق بها بوش، تدل على أن الخطر الأكبر في نظره، ليس فقط من طبيعة سياسية واقتصادية ولا حتى استراتيجية، إنما هناك مخاطر كبيرة تتربص بنسق القيم الخاصة بالأمة [الأمريكية] وبأصدقائها وحلفائها الأقربين. فلأجل الحفاظ على نمط الحياة الأمريكية (والغربية)، يجب الإبقاء على مراقبة إنتاج وتسويق البترول، حتى وإن لم يرتفع سعره منذ سنة 1978 ؛ حيث توجد شركات متعددة الجنسية، تعد على رؤوس الأصابع ؛ هي التي تحدد سعر هذا البترول من طرف واحد وبمساندة حكومات، هي الأخرى تعد على رؤوس الأصابع أو أقل من ذلك. في سياق كهذا، تعني كلمة «العولمة»، أن صواريخ طوما هاوك وأنواع أخرى من الصواريخ مستعدة للتدخل من أجل دعم وبقاء نسق من القيم و«أسلوب في الحياة» بأي ثمن كان، باستقلال عن انعكاسات ذلك التدخل على الآخرين.

كل ما أريد التأكيد عليه، هو أنه منذ نهاية نظام قوة القطبين ؛ ومنذ انطلاق الإيديولوجيا الجديدة «للعولمة»، زادت بشكل كبير أهمية القيم الثقافية في العلاقات الدولية، كما زادت بشكل مواز حدة مخاطر المواجهة. فالهدف المنشود، بعد التأكيد على المكانة التي يجب أن تحتلها القيم الثقافية في العلاقات الدولية والضرورية الملحة لتواصل ثقافي، هو تسهيل الوفاق الدولي واستتباب السلم.

تتشبع «العولمة» وتتغذى من العجرفة الثقافية التي تمتح أصلها من الجهل واللامبالاة تجاه أنساق قيم أخرى وتجاه حقها في الوجود. ويؤدي

هذا بشكل تدريجي وفعلي إلى نزعة ثقافية تسلطية عالمية : «افعل مثلي إن كنت تتشبث بحقك في الوجود». هذا النوع من الابتزاز يغيظ ملايير الخاضعين لسوء التعامل سلفا من طرف أنظمة خضعت برمتها «للعولمة»، والتي ترى فيها الملجأ الوحيد والدعم الوحيد أمام التدمر الشعبي. وإذا لم تتغير الأشياء «فدمار العالم» لا مفر منه ؛ إما عن طريق الابتلاع أو الانفجار، بعد جيل، جيلين، أو ثلاثة أجيال.

والمسألة الأهم، هي معرفة ما إذا كان «منظرو العولمة» مهيئين، إن على المستوى المفاهيمي أو على المستوى العملي، لقبول أن يتواجد أناس آخرون لهم تواريخ أخرى، خاصة إذا كان تاريخ أصحاب العولمة يعد بالقرون لا بآلاف السنين. صحيح أنني كنت دائما، وسأبقى مسكونا بأهمية التواصل الثقافي، لكن امتلاك المرء لـ Time Magasine أو لقناة CNN، أو أيضا كونه يسمى مردوخ لا يمنحه الحق في توجيه العالم فعليا إضافة إلى توجيهه فرضيا وخياليا. فالتواصل، موضوع حديثي هنا، هو القناعة التي يجب أن تحرك أولئك الناس وآخرين، إنه ذلك التعاطف الذي يجب أن نشعر به تجاه الكائنات الإنسانية الأخرى ؛ وليس تجاه المنتوجات والأرباح. هنا يغدو احترام التنوع أمرا أوليا وأساسيا لأجل التسامح والحوار. ويبدو أن «العولمة» لا علاقة لها بهذه الانشغالات الأرضية. ففي World politics of the global system الذي كتبه هربرت سبيرو سنة 1966، يشير سلفا إلى نظام كوني آخر، نظام متفتح ومتسامح. فجاء آخرون، لما كانت الدراسة المسماة Global organization هي الموضة، وكتبوا بنفس الروح، وأيضا في الستينيات والسبعينيات، كان المعنى المعطى لهذا النوع من النظام على نقيض تام مع الدلالة التي يحملها حاليا، والتي لا تترك أي مكان للحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة والسلم. فالكرامة من الآن فصاعدا لفظ لا قيمة له، لأنه أمام محاولات «العولمة»، حيث لا خيار سوى الخضوع والانحناء والركوع أمام رؤوس الأموال وأمام السادة الجدد لما يسمى «بالنظام الكوني».

نحن أمام عرض شرائي عمومي «OPA» سيميائي حقيقي، شبيه ببعض الصفقات التي تتم داخل البورصة. لقد تم الاستيلاء على وحدة صوتية

حاملة للسخاء والتسامح وحب الآخر، لمسخها ومنحها دورا منافيا تماما لمهمتها الأصلية. هناك في فرنسا، من قال مؤخرا، بأن «الحروب القادمة ستكون من طبيعة سيميائية». إن فرض المفاهيم واللغة وتحديداتها، هي بكل تأكيد الوسيلة الأكثر فعالية لبسط السيطرة على العالم. لذا يجب تصور آليات للدفاع الذاتي لحماية النفس من هذه الحملات السيميائية. لقد شكل العنوان المختار لهذا العرض، في حد ذاته، التعبير عن هذه الانشغالات وعن رفض الميولات التي ترمي إلى تشويه وإذلال المعاني النبيلة لهذه الألفاظ، بما هي نتاج ميراث ثقافي عالمي وخير مشترك لكل الإنسانية. إنها معاني غير مبسوطة للخوصصة !

ما نلاحظ الآن، لا يمكن اعتباره مفاجأة بحق ؛ بالأمس، منذ مدة 60 سنة تقريبا، عبر بعض الكتاب، على قلتهم في هذا الصدد، حيث كتبت في سنة 1943 سيمون فايل، وهي فيلسوفة فرنسية ومساعدة سابقا للجنرال دغول في لندن، بأن «أمركة أوربا تشكل خطرا جسيما» ؛ وبأنه «يتم تهييء أمركة الكوكب الأرضي»، مضيفة بأن «الإنسانية ستفقد ماضيها وأن هذا الأخير لما يُفتقد، لا يمكن العثور عليه مجددا أبدا».

هذه الانشغالات، كانت دائما مضمرة لدى الناس ؛ لكنها بدأت في الإعلان عن نفسها صراحة، حتى في أوربا، في صيغة تخوفات صماء مرتبطة أكثر فأكثر ببناء هذه الأخيرة. لقد تعجب أندري فونتان A. Fontaine رئيس التحرير السابق لجريدة Le Monde، قائلا : «كيف يمكننا أن نريد مزيدا من أوربا، دون أن نريد قليلا من أمريكا في نفس الآن» ؟

وفي عهد قريب، صرح ليونيل جوسبان L. Jospin، الوزير الأول الفرنسي، بأن «العولمة» تحمل في أحشائها خطر التنميط الثقافي. هكذا، فالعلاقة بين «العولمة» و«الخطر» على الثقافة والقيم، هي علاقة بادية للعيان. وإن قلق زكي العايدي، «بكون العولمة تميل إلى تحطيم فكرة الشمولية والمسؤولية العالمية»، هو قلق يتقاسمه العديد من المحللين.

الآن، تم التخلي كلية عن عدد من الأنساق المنظمة للديمقراطية والعدالة التي سبق إقامتها بعناء منذ زمن تأسيس هيأة الأمم، أو تم انتهاكها صراحة. فالأمم المتحدة وكذا المنظمات التابعة لها، قد فقدت كل المصداقية التي أحرزتها بعد أكثر من نصف قرن من الاجتهاد. لقد ولى زمن الجمعية العامة المستقلة، وزمن مجلس الأمن المتمتع بقدرة مطلقة تقريبا، وزمن الأمين العام المستقل. صحيح أن النظام الأممي كان عليلا، خاصة منذ حرب الخليج سنة 1991، حيث تأكدت قبضة بعض القوى الكبيرة صراحة، وبتواطؤ مطاوع للأمين العام، الذي سن تقليدا جديدا، احترمه خلفاؤه بدقة إلى حد الآن.

لم يعد بالإمكان إصلاح هذا النظام ولا إنقاذه، بل يجب أن يخضع إلى إعادة صهر كلي، تجعل منه ترياقا «للعولمة». الأكيد، هو أن هناك عدم تلاؤم كلي تقريبا بين هذه العولمة وكل النسق التنظيمي الدولي، كما كانت تعبر عنه الأمم المتحدة. وقريبا، لن يعود هناك من مكان إلا للسيرورات التنظيمية الدولية الأحادية الجانب، لكن تحت غطاء مهازل متعددة المستويات. وتعد «العولمة» «طائفة» جديدة لها مذاهبها الخاصة وتراتبيتها وقساوستها وأنصارها وطقوسها ونساكها ومتصوفتها وفاعلوها ومستثمروها، وكبرى الشركات المتعددة الجنسية، وحتى مواقعها المتزايدة على الويب (Web). ويكفي أن نلقي نظرة خاطفة على صفحات الويب المتعلقة بـ «العولمة»، لندرك هول التباعد الجيوسياسي والسوسيو ثقافي الخاص بأصل ولغة ومحتوى هذه المواقع. فعلا، فإن أكثر من 90% منها تنبعث من بلد واحد. هذا هو جانب التواصل الخاص «بالعولمة». وبالتالي، فالتحدي الكبير الذي يجب مواجهته، هو معرفة كيف يمكن تفعيل تواصل ثقافي، يحفظ ويوطد التنوع الثقافي وينمي القدرة على الاستماع للآخرين.

وختاما، أقول ببساطة، إن «العولمة»، كما هي محددة وكما هي مفروضة حاليا، تكون أحد الأسباب الأساسية في صعود العنف وتناسل

النزعات التي نلاحظها على المستوى الكوني. «العولمة» هي أيضا ذلك الحقل المناسب لمواجهات كونية أخرى، أكثر حدة وتهديدا لاستمرار الإنسانية على قيد الحياة، اللهم إلا إذا تم اتخاذ إجراءات تقويمية عاجلة لتصحيح هذه الاختلالات المتتالية، التي لم يعد في مقدور النظام الدولي تحملها. إن موضوع اللعبة، ما هو إلا «السلم الكوني لا أقل ولا أكثر».

وبالنظر إلى القناعات العميقة الخاصة بي، بصدد دور الثقافة والتواصل الثقافي في بناء السلام، لا يفوتني استحضار هذا الاستشهاد للمهاتما غاندي: «أريد أن تهب ثقافات كل الأراضي بمحاذاة منزلي، وبكل حرية ممكنة، لكني أرفض أن انقلب بهبوب أي واحدة منها»(*).

(*) خلاصة بسيطة نسبيا : نعثر عليها في عنوان هذه المداخلة عينها، وهي أن مفهوم «العولمة» مفهوم جذاب وغني. لقد كان موضوع استعمال سيميائي مبالغ فيه بشكل مخادع ؛ وإن إعادة امتلاكه تتطلب قسرا : «إعادة عولمة» العولمة.

مؤسسات التعليم العالي في الدول النامية. ونكتشفهم بوضوح في أي مكان تكون فيه الحرية الأكاديمية مخنوقة والاستقلال المالي والإداري محدودا جدا بسبب التدخّل السياسي المحلّي والضغوطات المالية الخارجية.

وفي هذا القالب، فإن مدخل دستور الجمعية الدولية للجامعات، الذي يتضمن مجموعة من المبادئ العالمية للقيم الثابتة في الزمان والمكان، يقدّم توجيها عاقلا جدّا. وهكذا، تتوفّر لنا العناصر الأولى للجواب عن سؤال : «أي قيم»، وعن مبدأ آخر لا يقلّ أهمية، وهو التالي :

«الحق في البحث عن المعرفة من أجل المعرفة ومتابعة البحث وضرورة السماح بآراء مختلفة والتحرّر من أي تدخّل سياسي».

وإذا كان لي أن أكشف عن أخطر تهديد للجامعة اليوم، خاصّة في العالم الثالث، سأقول : هو عدم احترام «الحق في البحث عن المعرفة من أجل المعرفة ومتابعة البحث أينما أدّى»، وهذا التهديد حاصل في عدد من الدول النامية، حيث تقرع آذاننا بالعبارات الفارغة، كالمعرفة «النافعة» و«غير النافعة»، «التكوين العملي المهني، المطابق للحاجيات الاقتصادية الخاصة بالقطاع الخاص، والاستثمارات الخارجية» الخ.

ومثل هذه التوجّهات، تشكّل حواجز للأهداف الأساسية للتعليم العالي، وتمسّ التطور العلمي، وترفع من حدة مشكل هجرة الأدمغة الذي سوف نرجع إليه لاحقا. إننا نخشى المعرفة، لأنها تُحرّر وتعيد النظر في رتابة الأمور ؛ وتزعج وتشجع «الخلاف».

ولهذه الأسباب كلّها ولأسباب أخرى، فإن الجمعية الدولية للجامعات ستسدي خدمة كبيرة للتعليم العالي ولأعضائه، لو استطاعت، بهذه المناسبة استرجاع مبدئها الأساسي، المتعلق بمتابعة المعرفة مؤكّدة أنها «قيمة ثابتة» و«أولوية ثابتة».

إن القيم عنصر أساسي في توليد المعرفة وتطورها، مُقيّد بهذه المعرفة. وعلما منا، بأنه لا توجد معرفة واحدة محايدة تماما ؛ فإن القيم تساعد على

فهم منابعها وقالبها، وخاصة هدفها. في كتابه «التحالف الجديد»، يؤكد إليا برغوجين، الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء، على أن العلم في حاجة مستعجلة للاعتراف به كجزء لا يتجزأ من الثقافة التي يتطور فيها، ويجب إعادة النظر في كونيته ومحايدته[5].

إن للقيم تأثيرا على التواصل الثقافي في العلاقات الدولية، التي لازالت تعاني من نزعة قومية قوية. فبعد مرور أكثر من عشرين سنة، وفي ندوة لهيئة التنمية الدولية حول «حوار شمال جنوب»، والتي تطرقت فيها إلى الدور الأساسي لمنظومة القيم، تبين ما يلي :

«من الضروري التركيز على منظومة القيم، لنوضح أن الأزمة الحالية «شمال جنوب»، لن يتم حلّها بحلول ترقيعية هنا وهناك. إنها أزمة النظام الحالي بأكمله. وكل حلّ يستوجب إعادة تجديد الأهداف والمهمّات والبنيات، مع إعادة توزيع السلطة والموارد، حسب قيم مغايرة لتلك القيم التي سبّبت الأزمة واختلال النظام الحالي»[6].

واليوم، تنطبق هذه الملاحظة على العلاقات «جنوب جنوب»، كما تنطبق أيضا على الإشكالية الجديدة جنوب–جنوب في الدول النامية ؛ حيث تتّسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء بسرعة أكبر من تلك الفجوة القائمة بين الدول المتقدّمة والدول النامية، فما هي مسؤولية الجامعة في هذه الإشكالية ؟ وهل تشكّل الديمقراطية المُعْلَنة بالتزام متصاعد، عنصرا للتغيير السياسي والسسيواقتصادي والثقافي، أو هل هي فقط عبارة عن وهم إحصائي ؟

أنا لا أزعم الإجابة على مثل هذا السؤال المعقّد، لكن أعتقد أنه يتضمن عناصر مهمّة، قدْ تُلقي الضّوء على «الأولويات في تحول» و«القيم الثابتة». وقبل تغيير الأولويات، يجب أن يكون لدينا عدد منها. والأولويات، لا سيما

---

(5) صفحة 28 Gallimard باريز 1979.

(6) مهدي المنجرة : الجوانب السياسية «لحوار شمال–جنوب» ورقة عمل رقم 4، مائدة مستديرة شمال–جنوب، الدورة الأولى SID روما 20-18 مايو 1978.

في مجال التعليم العالي، لا يمكن التفكير فيها من فراغ ؛ إنها تستوجب رؤية ونموذجا للتنمية، مع أهداف واضحة نابعة من خيار ديمقراطي وخيارات حرّة للمؤسسات والمجموعات المعنية. إنها ظروف متوفرة جزئيا في الشمال، حتى وإن كانت مصادر التمويل تلعب دورا مهما في تحديد اختيار هذه الأولويات. أما بالنسبة للجنوب، فمن الصعب إيجاد بلد واحد يزعم أنه استطاع أن يحققها بأكملها.

هناك خلاصة أوّلية متعلقة بالجنوب، تهم الأولويات الحالية، عندما تكون قابلة للتحديد. أنا لا أتحدث عن تلك الأولويات المقترحة، والمرغوب فيها، أو تلك الأولويات التي أملتها مصادر خارجية للتمويل، لأنها غير صالحة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة لمعظم الشعوب المعنية، كما أنها تستوجب تغييرا جذريا. إن الوضع الحالي أكثر تعقيدا بالنسبة للقيم، لأننا نجد أنفسنا أمام اتّساع الفجوة أو بالأحرى انكسار بين الطبقات الاجتماعية مختزنة إلى أقصى حد ؛ صعوبات التواصل الثقافي التي لم تعرفها من قبل أبدا. إن القيم الثابتة لم تحظ بالاهتمام الكافي، والجامعة لم تساهم بصفة مقنعة في تطويرها الدائم وابتكارها المستمر. بل أخفقت في القيام بدورها الأساسي في تلقين منهج تعليمي يضمن نقل القيم.

تقليص الفوارق

- أولوية ثابتة تستوجب تحوّل في القيم

إن حدّة الفوارق ملموسة على جميع الجهات، ومعدّلها يقترب من معدّل تزايد المعرفة. كما أن تقليص الفوارق ومحاربة الفقر والظلم الاجتماعي وعدم المساواة بين المرأة والرجل وبين القروي والحضري ؛ يجب أن تكون أولوية ثابثة بالنسبة للجامعة. إنها تمس بصفة مباشرة محيطها، وأهدافها وبرامجها. ذلك أن دراسة موجزة، ومكثفة وجِدُّ انتقائية حول الفوارق، كفيلة بتوضيحها.

إن الأرقام الموجودة في قرارات PNUD[7] تثبتها ببلاغة : 20% من المحظوظين بالعالم، تستهلك 85% من مجموع موارد وخدمات الكون، بينما 20% من الفقراء، تكتفي بما يتجاوز قليلا 1% ؛ والناتج الوطني الخام لـ 48 دولة الأكثر فقرا، أقل من موارد ثلاثة أشخاص الأكثر غنى في العالم. ويقدّر مجموع المبلغ المرصود لتكوين جميع سكان العالم، بستة مليارات من الدولار، وهو ما يمثل 75% من النفقات الأمريكية في مواد التجميل و50% مما يستهلك الأروبيون من مثلّجات.

أما بالنسبة للتعليم العالي، فإن الدليل الإحصائي لسنة 1999 لليونسكو يتضمّن معطيات لسنة 1997، والتي تلقي الضوء على الفوارق بعالم الجامعة بين مختلف الجهات.

إذا كان واحد من عشرة في سن الجامعة بالجنوب، يستطيع الولوج إلى التعليم العالي، فإن ذلك يصل إلى ما يعادل واحدا من اثنين في الشمال.

والملاحظة البارزة لهذه الظاهرة، تشكل صورة قاتمة السواد ؛ لنضع أنفسنا جانب المحظوظين أو الفقراء، أو جانب أولئك «الذين يعرفون» أو «الذين لا يعرفون»[8]. إن الأسطورة الكبيرة للتنمية طيلة الأربعين سنة الأخيرة، تضاعفت بوهم لتتحوّل إلى كابوس. لقد ساد الاعتقاد بأن للجامعة دور في تحقيق أهداف التنمية : العمود الفقري للسلام. تقريبا، جميع النظريات والأنشطة المرتبطة بالتوقعات الوطنية والدولية في هذا المجال، فقدت جزءا من مصداقيتها. ولنكف عن الكذب عن أنفسنا.

---

(7) New York Times 27 sep. 1998.

(8) هذه العبارة استعملها لأول مرة رئيس إيران في خطابه أثناء الجمع العام لهيئة الأمم المتحدة سنة 1978، حيث قال «لا يمكننا اليوم الكلام عن أولئك الذين يملكون والذين لا يملكون، وإنما أولئك الذين يعرفون والذين لا يعرفون».

التسجيل بالتعليم العالي 1997

المنطقة	عدد المسجلين	%
إفريقيا	4780000	6,9
أمريكا	25486000	37,1
آسيا	34844000	11,1
أروبا	21794000	42,8
أوسيلي	1211000	57,7
العالم المجموع	88156000	17,4
المتقدم	43357000 49,2 %	10,3
النامي	44798000 49,8 %	51,8

المصدر : اليونسكو 1999 الدليل الإحصائي السنوي

إن هذا يمس الجامعة ومقاربتها المتعلقة بتحسين الحياة البشرية. بإمكانها تقديم بيانها بالطريقة التي سمحت بها التنمية لفئة قليلة من الأشخاص ذوي الامتياز بالاغتناء الفاحش وبدون حياء ؛ بينما يزداد انخفاض مستوى العيش لدى أغلبية السكّان سنة بعد سنة. وأكبر جزء من الذل يمسّ المعنيين الأساسيين من دول الجنوب، الذين لم يكونوا ليصلوا إلى هذا المستوى من التعسّف لولا دعم ولُبْس نظرائهم في الشمال[9]. إن السعادة قيمة ثابتة، لكن الأولويات الحالية الكفيلة لتحقيقها، تستوجب دراسة جديدة حقيقية.

هجرة الأدمغة : عدم القدرة على إنتاج المعرفة واستيعاب الكفاءات

حسب معرفتي، لقد أنجزت أول دراسة حول هجرة الأدمغة من طرف L'UNITAR واليونسكو سنة 1968 ؛ وكانت خلاصتها واضحة. وأهم أسباب هجرة المواطنين ذوي الكفاءات العالية بالدول النامية، هي كالتالي :

(9) مهدي المنجرة : «حوار، لا لاصطدام الحضارات» الندوة الدولية للبحث عن السلام، تامبر فينلاند غشت 2000 ويوجد هذا النص على الموقع "articles" <http:www.elmandjra.org>.

أ) البنيات التحتية والموارد غير الملائمة للبحث.

ب) الحواجز المفروضة على الحرية الأكاديمية ؛ أما بخصوص الربح المادي فلا يشكل الحاجز الأساسي.

ومنذ ذلك الوقت، فإن النتيجة النهائية، تنبع من كل الدراسات المنجزة حول نزيف الأدمغة بالجنوب نحو الشمال، التي تعد بعشرات الآلاف عوض الآلاف. إنه ضياع كبير ليس فقط على مستوى مليارات الدولارات، وهي كلفة تكوينهم من لدن بلدانهم، ولكن ضياع أيضا بالنسبة للتطور الاقتصادي والاجتماعي لشعوبهم. ولعلّ هذا من أهم المؤثرات حول الوضع الصحّي للجامعات بالعالم الثالث، واختلال نماذج التنمية وأنظمة التعليم.

لا نتوفر على أرقام مضبوطة، ولو قمنا بتقدير تقريبي للخسارات التي تحمّلها الاقتصاد بدول العالم الثالث، بسبب هجرة الأدمغة مقارنة مع مبالغ «المساعدة» التي يتلقّاها من الدول المتقدمة، لأدركنا بالضبط «من يساعد من ؟» لقد قدّر Yan Tinbergen سنة 1976، أنّ كلفة هجرة الأدمغة بالنسبة للدول النامية تبلغ 4,6 مليار من الدولار سنويا[10].

إذن، فإن التنمية، ما هي إلاّ القدرة على خلق محيط ملائم لتقدّم المعرفة وتنوير الكفاءات، التي يمكن استخدامها بطريقة خلاقة ومجدّدة من أجل تحسين نوع الحياة. في مجتمع العلم والمعرفة، من الطبيعي أن بنيات البحث العلمي المتوفرة، تحدّد تحرّك الكفاءات عبر العالم ؛ وهي ظاهرة لا تقتصر فقط على الدول النامية. ذلك أن البحث «قيمة ثابتة» و«أولوية لا تتغير» بالجنوب، لأنها شبه منعدمة.

نحن نعلم أن 80% من النفقات العالمية في ميدان البحث والتنمية، تنجز في العالم المتقدم الذي يمثل أقل من 20% من ساكنة العالم. ولو أخذنا البحث في المجالات العلمية والتكنولوجية المتقدّمة، فإن هذا الرقم سيصل

---

(10) Yan Tinberglin إعادة هيكلة النظام العالمي، تقرير نادي روما Dutton E.P. 1976.

إلى 95%، لكن 4/5 منه تُصرف في البحث في المجال العسكري الهادف إلى تحسين القدرة على القتل والتدمير، وهو مشكل أخلاقي دائم بالنسبة للباحثين الجامعيين. ومن الغريب أن نلاحظ، أن آخر عامل يمسّ هجرة الأدمغة ذو طبيعة داخلية، يتعلق بالتبعية الثقافية التي استوردت مناهج للتعليم، وطبّقتها بصفة عمياء، غير عابئة بالمحيط السسيوثقافي الذي يعملون به ؛ ممايدفع الناس إلى المغادرة والبحث عن مكان يجدون فيه أنفسهم. إن التبعية لا تنحصر فقط في النظام أو البرامج، لكن تشمل أيضا الكتب المدرسية، كما نلمسها أيضا جزئيا عند هيئة التدريس. هجرة الأدمغة هي أيضا ناتجة عن «تحرر ثقافي»[11] لم ينضج بعد.

كيف لنا أن نتواجد بإفريقيا الجنوبية، دون أن نستحضر المهاتماغاندي :

«أملي أن تهبّ جميع الثقافات بمحاذاة منزلي وبأكبر قدر ممكن ؛ لكنني أرفض أن تسلخني أي منها عن جذوري».

وفي الختام، أريد أن أذكّر بتصريح وأطرح سؤالا في هذا المضمار. لكم هذه الكلمات التي نشرت أكثر من 22 سنة في تقرير نادي روما، تحت عنوان «من المهد إلى اللحد»[12].

على «الجامعات، وهي قمة نظم التعليم الرسمي، أن تقود حملة تحسين قدرات الإنسان ورفع مستواها. ولكنهم... يحجمون عن القيام بالدور القيادي الذي قُدِّر لهم أن يقوموا به. فمشاكل التشارك الانتقائي، والتخصّص الضيق وتعصّب كل واحد لمجالاته الأكاديمية، وإهمال القضايا الحيوية، و«الشموخ العقلي» عند كثير من الإداريين والانشغال بالتقدم في المجتمع، حدّت من أهمية أحد الموارد الأساسية لتعليم البشرية».

---

(11) انظر المهدي المنجرة «التحرر الثقافي التحدي الأساسي للقرن 21، نشر وليلي مراكش، 1996 .http://www.elmandjra.org/indexfr.htm

(12) J Botkin – المنجرة M. Malitzo من المهد إلى اللحد
Baidging the Human gap, Pergamon Press, Landon 1979 تقرير ترجم إلى 12 لغة.

إلى أي حد تنخفض صلاحية هذه الدراسة النقدية أو تحتفظ بصلاحيتها أو ترتفع صلاحيتها اليوم أكثر مما كانت عليه منذ ربع قرن ؟

إذا تأكد أن الحركات الطلابية بالأحياء الجامعية في الغرب، قد زعزعت ـ وبشدة ـ العالم المتقدّم ؛ فإن واجبات «الأمن الوطني»، قد جمّدت كل تغيير باسم «الاستقرار». ومثل هذه الانشغالات، لم تترك مكانا للرؤية فضلا عن الحلم. «إن الشخص الذي يحلم لهو إله، والشخص الذي يفكّر متسوّل» (قالها هولدرلين Holderlin)؛ وهناك عدد كبير من المتسوّلين، ومعذرة عن صراحته والتي هي أولا علامة احترام للحاضرين، وللمؤسسات التعليمية التي يُمثلونها وللنزاهة الفكرية.

ومن الصعب علي إخفاء خيبة أملي في فئة ليست بالهيّنة، من النخبة الأكاديمية في الدول النامية، والتي لم تستطع مقاومة الإغراءات السياسية والمادية على حساب مهمتها الأكاديمية.

إن التاريخ يفيض بما ننعته «بخيانة الكاتب».

ونطلب من الله، ألا يهمل الجامعيون (أصحاب المصالح) مصالح الجامعة على حساب مصالحهم.

اسمحوا لي في الختام، أن أقول لكم، إن تشاؤمي على المدى القصير نابع من تفاؤلي على المدى البعيد، والذي لا يتراءىٰ لي، ولكن إيماني به قوي جدا. هل للمعرفة أن تُنقذَ العالم؟ وهل للجامعة أن تُنقذَ المعرفة ؟ وهل للمعرفة أن تُنقذ القيم ؟ وهل بإمكان القيم إنقاذ قيمة المعرفة ؟ أنا مقتنع أن القيم ستُنقذ قيمة المعرفة، لو كان لنا إيمان دستويفسكي، الذي يؤمن بأن «الجمال سيُنقذ العالم».

على شرف الذكرى الخمسينية للجمعية العالمية للجامعات :

إذا كانت هناك غاية فهناك جامعة ؛

إذا كان هناك تصوّر فهناك جامعة ؛

إذا كان هناك إشباع ذاتي فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك نظامٌ مفتوحٌ فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك حرية فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك مشاركة فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك توقعٌ فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك تجديد فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك هوية ثقافية فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك احتجاجٌ فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك خيالٌ فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك بحث عن الحقيقة فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك نزاهة فكرية فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك مساواة وعدالة فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك أمل فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك حبٌ فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك ولع وحنان فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك مثالية فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك سلامٌ فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك انسجامٌ فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك روحٌ فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك إيمان فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك جمال فهناك جامعة ؛
إذا كان هناك تساؤل فهناك جامعة ؛
إذا كانت هناك إجابة فهناك مجتمعٌ.

10

حوار الأنترنيت[*]

منارَة : متى بدأت علاقتكم بالأنترنيت ؟

المهدي المنجرة : لقد استعملت الأنترنيت أثناء إقامتي بالخارج. لقد تم الارتباط بشبكة الأنترنيت بالمغرب سنة 1996 . وربطي بالشبكة يرجع إلى منتصف يونيو من نفس السنة. أمّا بالنسبة لموقعي، فلقد انطلق في بداية 1997. لقد قام بتصميمه في البداية السيد رضا بنكيران على موقعه الشخصي http://www.archipress.org. ورضا بنكيران، ابن زميل لي بالقسم، كان حاضرا بمحاضراتي بجنيف ويعرف جيدا كتاباتي. لقد قام باللمسة الأولى للموقع، بإدخال بعض مقالاتي على Hotmail. ومن بعد تكلّفت بتطويره، وإنني مدين له.

إنني مولع بالمعلوماتيات لأكثر من 30 سنة. كنت أرى فيها وسيلة لاستدراك التأخر المتراكم لدى الدول النامية، شريطة أن تدرك هذه الدول أولوياتها، وتحددها بنفسها بطريقة موضوعية، دون توجيه من مؤسسات خارجية، والتي يُستبعد أن تكون نماذج محايدة وتكلّفنا فوائد كثيرة من أجل أنشطة دون فائدة كبيرة.

عائق آخر يجب تفاديه في الحين : لا يجب أن نكون حبيسي تمويل خارجي. اليوم ومع هذه الثورة الإعلامية، والوسائل التكنولوجية، فإن المشاريع المهمّة لا تبحث عن رأس المال، لكن العكس هو الذي يحدث.

منارة : ما الوقع الذي خلّفه في نفسكم انطلاق موقعكم الشخصي ؟

(*) حوار أجراه رشيد جنكري، منارة، انترنيت، المغرب يونيوه 2000.

م.م. : أمران، أولا : أولئك الذين يراسلونني، والذين لا أعرفُهم ويفتحون لي قلبهم لأنهم يطمئنون إلي. وأنا جدّ متأثر بهذه الثقة، لأنها تسمح لي بالشعور بأن لي قدرا من المصداقية لدى هذا الجيل الصاعد. وهو في نظري، أهم ثروة متراكمة في الحياة والتي لا يمكن شراؤها في البورصة.

هي أيضا مقياس لدرجة اضطراب الجيل الحاضر الذي عجز عن التواصل مع الجيل السابق والذي همّه الوحيد هو الربح المادي الهابط.

الفئة الأخرى، وهي مهمة أيضا، هي الجالية المغربية (diaspora) للباحثين والمهندسين ذوي الكفاءات العالية، والتي اختارت مسؤوليات مهمّة على المستوى التكنولوجي بالخارج، لأننا لم نعرف ولم نستطع أو لم نرد إدماجها في الاقتصاد الوطني. ولهذا، جاء التخلّف كنتيجة لرداءة تخشى الكفاءات المحلية وتفضل رؤيتها في مكان آخر حيث لا تزعج. وهذا الإقرار نابع من تحليل عدّة مئات الخطابات الإلكترونية للمغاربة القاطنين بالخارج.

أول خطاب تلقيته يرجع تاريخه إلى 18 شتنبر 1996. أرسله إلي السيد مصطفى بوعياد، وهو مغربي من فينلندا. إضافة إلى هذا، علاقتي بمستعملي الأنترنيت، جيدة. لم أتلق أبدا رسالة عنيفة أو هابطة أو شيء من هذا القبيل. إنهم مراسلون يبحثون عن التواصل المفيد والمتسامح. إنه ليس تواصل كنافذة للتنفّس ؛ بل يقرّب أيضا من الحلم دون إبعاد عن الواقع.

وما يذهلني في الأنترنيت، هو ولع الشباب به. إنهم حملة التغيير الجذري بواسطة العلم والمعرفة. وعدد الرسائل الإلكترونية التي أتلقاها تساعدني على البقاء في موقع قريب من هذه التحولات. ويصبح بالنسبة إلي تحديا يوميا للتجديد والمواكبة. إن الأنترنيت والتكنولوجيات الجديدة تساعدك على كشف مدى جهلك.

كلّما أنهيت دورة من الأنترنيت أدرك مدى جهلي :

الإمام الشافعي رضي الله عنه قال : «كلّما ازددت علما زادني علما بجهلي» والقائد دوكول، كان دائما يكرّر هذه الجملة : «إن العالِم هو الواعي بقدر جهله».

ـ منارة : ما هي الروابط التي تستقبل أكبر عدد من الزوار على موقعكم ؟

م.م. : إلى حدّ الآن، الصّفحات المخصّصة لأم كلثوم، من بين الصّفحات التي تستقبل أكبر عدد من الزوار، لأننا نجد فهرسا كاملا لأغانيها والذي أشرفت عليه شخصيا. إنني أتلقى عددا كبيرا من المراسلات في هذا المضمار كما لو كنت خبيرا. وربّما ساهم المسلسل التلفزيوني على ذلك. هناك أيضا الكتب والمقالات التي يمكن لمستعملي الأنترنيت أن يستعينوا بها. وربّما كنت أوّل من وضع أكثر من ثلاثة من كتبي على الأنترنيت بالمغرب :

«الحرب الحضارية الأولى النسخة الفرنسية الأنجليزية، والتحرر الثقافي، التحدي الأساسي للقرن 21».

ومنذ 15 يوما، أثارت الوثائق حول حقوق الإنسان بالمغرب العربي اهتماما خاصا.. وأخيرا، فإنّ الملفّات المخصّصة للمستقبليات، تستقبل عددا من الزوار أيضا. وبالمناسبة، فإن الملف الذي يثير اهتمام الزوار، هو ذلك الملف المخصّص لتاريخ وأنشطة السنوات العشر الأولى (للجمعية المغربية للمستقبليات)، والتي كنت الرئيس المؤسس لها سنة 1979.

والمدهش في توزيع الزوار، هو بروز ألمانيا على رأس القائمة. صحيح أنني ألقيت عدة محاضرات هناك، لكن هناك أيضا مجموعة مغربية مهمة وجميع الطلبة لهم الحق في استخدام الأنترنيت. يظهر أن للبنية التحتية نصيب في تحديد هذا الوضع. بعد ألمانيا تأتي الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، بلجيكا والمغرب ومباشرة يأتي اليابان..؛ إن الارتباط بموقعي عامة، يتم مع أكثر من 130 دولة. وعدد الزوار إلى اليوم لا يبتعد عن 50000 زائر.

ينتج عن هذا الوضع، مراسلة مكثفة. ولا أؤخّر الجواب أكثر من 48 ساعة. إن الزمن مطْلَب كبير في التواصل الالكتروني. عليك أن تقبله أو

تكتفي بالرسالة عبر البريد أو الفاكس، بالإضافة إلى أدبيات الخطاب الإلكتروني، الجواب المباشر أو ما شابه ذلك.

منارة : هل تحضّرون فصول أخرى لإغناء موقعكم الشخصي ؟

م.م. : فهرس مؤلفاتي وكتبي سيكون بأكمله على الموقع في الأيام القليلة القادمة، وسيضمّ كذلك قائمة النصوص غير المنشورة إلى حد الآن، بما فيها بعض الدراسات التي كتبتها أثناء فترة الدراسة.

هناك أمر آخر وليس بالأخير، يؤلمني في بعض المواقع المغربية، أمر يتعلق بالاعتناء وتتبّع هذه المواقع حتى تصبح مواكِبة.

فأول شيء نلاحظه، هو تاريخ تجديده ؛ ذلك أنه إذا تجاوز هذا التاريخ أسبوعا أو عشرة أيام، يصبح الموقع غير ديناميكي.

منارة : ما هي التصورات بالنسبة لتطوير تقنيات الإعلام والتواصل الجديدة بالمغرب مع السعر المرتفع للحصول عليه والنسبة الضعيفة للتجهيز في مادة الحواسيب ؟

م.م. : المدهش في بلدنا، هو سرعة انتشار الأنترنيت. كنت بمراكش الأسبوع الماضي، وكان يومه الأحد، وأردت الاطلاع على بريدي الإلكتروني على الساعة الثانية بعد الزوال، وأخبرني صديقي أنني كنت على مقربة من مقهى للأنترنيت، لكنني لم أجد مكانا فارغا، كان علي أن أنتظر حتى الساعة الرابعة لأجد مكانا ب 7,50 دراهم للساعة.

هذه الظاهرة، يجب أخذها بعين الاعتبار، لاسيما من طرف اتصالات المغرب في سياسة أسعارها. إن الشباب الذي يتوافد على مقاهي الأنترنيت، لا يملك حاسوبا ولا محمولا ولا سيارة. إذن فهو محروم نظرا لضعف إمكانياته من جميع وسائل التحرّك في الزمان والمكان. وفي رمشة عين، تسمح له بالسفر إلى الهند والتواصل مع قريب له في هلسنكي...؛ لا أفهم لماذا لا تُقَدِّم اتصالات المغرب تسهيلات للتواصل المحلّي مع وفرة أرباحها وأموالها. إن التسهيلات بساعات معيّنة غير كافية.

منارة : السماح بإجازة للهاتف المحمول إجازة ثانية ساعدت على انخفاض في أسعار المحمول ؟

م.م. : خوصصة الهاتف اليوم ببلد كالمغرب، عندما يكون جدّ مربحا لهو جريمة. أين هي مداخيل الإجازة الثانية للمحمول ؟ بما أننا نقلد فرنسا في كل شيء، لماذا لا نقلدها في مجال «تِلِكُمْ». هذا لم يمنع المستعمِل بشراء Orange حديثا بسعر 40 مليار من الأورو. هذا الخيار يُوضّح أن المستقبل لسياسات التواصل. إذا قمتم ببيع كل شيء، فإنكم تتركون تحديد المستقبل للغير (الخارج).

إنها ليست قضية دوغمائية بمجرّد تصميم أو خوصصة قطاع التواصل ؛ بل أفضل من ذلك، فهي أداة الحياة. نحن نعلم أنه في أقل من 5 سنوات، فإن 60% من تكاليف قطاع التربية بالولايات المتحدة الأمريكية، من الطور الابتدائي إلى الجامعي، ستنجز بواسطة الأنترنيت من الناحية التجارية. هناك مسؤولية ونقط حساسة لا يجب التخلّي عنها مثل التواصل والهاتف.

أناشد الأشخاص الذين تجاوز عمرهم 40 سنة أن يتخلّوا عن مناصب المسؤولية التنفيذية في مجالات الأنترنيت، وذلك لسببين : أولهما عدم تجديد معارفهم والمواكبة، مما يجعلهم متجاوزين ؛ وثانيهما عرقلة الطاقات الشابّة، خصوصا وأن التكنلوجيات الحديثة تستدعي الابتكار والسرعة، بالإضافة إلى بنية فكرية تستوجب تجاوز هذه العرقلة.

وللأسف، فإن أولئك الذين يرفضون التجديد والعودة إلى المدرسة، إيمانا منهم أنهم تعلّموا كلّ شيء، لا يصبحون عناصر للتطور، بل حواجز لذلك. وللأسف كذلك، فإن هذه العقلية سائدة على مستوى المسؤوليات الكبرى في بلادنا، سواء منها القطاع العام أو الخاص.

منارة : بصفتكم مستقبلي، ما هو المصير المتوقّع لتطوير شبكة الشبكات Réseau des réseaux ؟

م.م. : إن الأنترنيت، هو قبل كل شيء أداة ؛ ولا يجب الإفراط في التمسّك به، إنه أحد الوسائل الفعّالة للتواصل اليوم. هناك تكنلوجيّات تتطور بفعّالية أكثر من الشبكة. والأنترنيت لن يفقد صلاحيته ؛ لكن المهم، هو المعلومة ذاتها. ويحدث التغيير عند طريقة المعالجة، سواء عالجت دليله باليد في خزانة عامة، أو بواسطة الحاسوب، لأن المعلومة نفسها لن تتغير وهي الأساس. هناك عنوان الكتاب واسم الناشر والرقم ومكانه.

ما تغيّر وسيستمرّ في التغيير، هو الوقت الضروري لفهرسة هذه المعلومة والعثور عليها. إنه عصر المعلوماتيات الكوانتية Quantique، التي ستحاول تجاوز الحدود التي وصلنا إليها على مستوى المعالج الصغير Microprocesseur وعصر الإعلاميات الحيوية Bio-informatique بواسطة استعمال جزئيات وجينات لمعالجة المعلومة.

فحصاد المعلومة وتحويلها واستعمالها ؛ كلّها عناصر أساسية، وأعتقد أن الشبكة، أبرزت هذه الحقيقة بطريقة باهرة. لو أخذنا حالة فرنسا سنة 1999، من الناحية الاقتصادية ؛ فإن ارتفاع معدّل الإشهار في جميع القطاعات (الصحافة، الراديو والتلفزة) لم يتجاوز 9% ؛ بينما ارتفاع الإشهار على الأنترنيت في سنة واحدة بلغ 282% ؛ إنها نسبة لا يجب إهمالها.

أعتقد أننا في اتجاه إدماج العناصر الخمسة ؛ لدرجة أن المستعمِل للحاسوب والشبكة، لن ينشغل بالتمييز بين هذه الوسائل المختلفة. التقدم الذي حقّقوه حاليا، بالنسبة للشاشة المبسوطة، سيسمح بتوقع شاشات مبسوطة قابلة للطي كالمحفظة في جيوبنا بالإضافة إلى المحمول. إنه مستقبل، لكنّه مستقبل ليس ببعيد.

11

التواصل والأنترنيت(*)

علي (باريس) : سؤالي يتعلق بالواقع المغربي. ما رأيكم في الإصلاح الذي ينوي الملك محمد السادس إدخاله على وزارة الأوقاف ؟ هل تظنون أن الجماعات "الإسلامية" سيكون لها تواجد بمجلس العلماء الذي من شأنه أن يخلف هذه الوزارة ؟ ألا ترون أن إشراكهم بهذا المجلس سيمكنهم من لعب الدور الذي من شأن الديموقراطية أن تضمنه لهم شريطة أن يتحولوا إلى حزب سياسي ؟

م. **المنجرة** : أنا لست مختصا في هذا الميدان المعقد من الناحية القانونية والإدارية. قطاع الأوقاف هو من أقل قطاعات الدولة شفافية، وقد كان منذ القدم مكمن الرشاوى والممارسات غير المشروعة، وهذا ليس سرا أبوح به.

كل ما من شأنه أن يعيد الشفافية لهذا القطاع، ووضوح طبيعة نشاطه العقاري والمالي لن يكون إلا أمرا جيدا، والأفضل أن تزاح تماما مؤسسة فيودالية كهذه والتي لا تطابق الحاجيات الراهنة.

والعقبة ليست طبيعة دينية ولكنها تأتي من «الإصلاح». هل يكفي لإعادة الشفافية للشفافية ؟ لست أدري، لأن ذلك سيتطلب وقتا لتقييم النتائج. لكن الشك يراودني، لأن السلطات والأشخاص القائمين على هذا القطاع هم دائما نفس السلطات والأشخاص.

(*) نص الحوار الذي تم بين المؤلف والعديد من الشباب في إطار سلسلة «الأسئلة والأجوبة» التي عقدتها نيوز سنترال على شبكة الأنترنيت وكان المؤلف ضيفها لشهر يونيو 2000.

كلاي التلمساني : كيف تنظرون إلى تطور المغرب مع هذا العدد الكبير من الأحزاب السياسية لساكنة متوسطة العدد (معظمها أمي). وما هو دور المثقف في مثل هذه الحالة ؟

م. المنجرة : سؤالك عن التطور السياسي للمغرب مطروح بحدة على الشعب المغربي (وأرجو أن يكون هذا كذلك بالنسبة «لأصحاب القرار»)، والمشكل ليس في عدد الأحزاب السياسية، لأن هذه الوضعية ليست وليدة الصدفة، ولكن في سياسة واضحة كانت تبحث دائما على تشتيت القوى السياسية بالبلاد لكي تستخدمهم (أو أغلبهم على الأقل) كدمى.

ما هو دور المثقف ؟ يجب أن يكون إنسانيا ويعمل على تقاسم معرفته مع الإصغاء المستمر للآخرين حتى يتجنب الاستلاب الثقافي الذي سقطت فيه نسبة كبيرة من «مثقفينا».

أنا حاولت أن أقترب من الجواب، لكني لا أحب كلمة مثقف، لأنها تضم نبرة نخبوية لاتريحني كثيرا.

عنان المريني : كم سنحتاج من الوقت لبناء المغرب ؟ ثم ألا تعتقدون بأن الديموقراطية هي ترف لبلد متخلف ؟ وكيف لساكنة 60% منها أمية (لا أتحدث عن أمية الأذهان)، أن تحدد بنفسها نموذج تنميتها ؟ ألا تظنون أن هذه الساكنة بحاجة إلى شغل وتحسين ظروف العيش ؟ ألا تعتقدون أن مجتمعنا بحاجة إلى علاج بالصدمة أو لنقل بلغة البيولوجيين : إعادة برمجة جوهر الخلية (الحكومة) وتنقيتها من الشوائب كي تترعرع البذرة (الاقتصاد) ويتم بالتالي خلق خلية صافية وقوية (هي مجتمعنا). من جهة أخرى، ألا تعتقدون (أمام جمود لغتنا الوطنية والجهوية) بأن تدريس اللغة الأنجليزية (لغة التواصل الحية) يجب أن يكون إجباريا منذ السنوات الأولى من التعليم ؟

م. المنجرة : نحن في حاجة إلى جيلين كي نبني لا فقط «مغربا قويا»، بل كذلك «مغربا ناجحا» بإمكانه تحقيق ظروف عيش لائقة لسكانه.

الديموقراطية ليست غاية في حد ذاتها، لكننا نكتشف يوما بعد يوم أنها أصبحت العنصر الأساسي لكل مسلسل تنموي : تنمية من لدن من ؟ لفائدة من ؟ عندما نطرح هذه التساؤلات، يبرز مبدأ «المشاركة»، التي هي هدف العملية، وإلا ستتجه باتجاه أبوي فيودالي ونخبوي، وهو ما نلاحظه سائدا ببلادنا.

كل نموذج تنموي لا يأخذ بعين الاعتبار رؤى وحاجات السكان (لا أتحدث عن الشعبوية بل عن المشاركة الفعلية)، سيكون مآله الفشل ؛ وهناك أكثر من حجة لتبيان ذلك.

نعم، إن العلاج بالصدمات لا يمكن إلا أن يؤتي أكله، لكن السؤال هو من الذي سيصفها ويطبقها، متى وكيف ؟ إن الانزلاقات جد واردة إذا لم نضمن مساهمة الذين سيكونوا موضع هذا العلاج.

ثم إن لا أحد يجادل في مكانة ودور اللغة الأنجليزية في عالم اليوم، تدريسها منذ الابتدائي سيكون استثمارا كبيرا للأجيال القادمة، لكن شريطة أن نكون مستقلين سياسيا وثقافيا، حتى نتمكن من اتخاذ هذا القرار الذي ستعارضه لا محالة النخب ذات المصالح الضيقة.

إن «عمق» محنتك، هو أمر يشاركك فيه جيل كامل بالداخل والخارج والذي لم ير بعد منافع الاستقلال، وهذا ما يفسر هجرة العديد من الكفاءات حيث تبحث عن فرص العطاء ؛ ولك أن ترى فقط كيف نعامل حملة شهادات المعاهد والجامعات المعطلين.

تشاؤمك الحالي سيتحول مستقبلا إلى تفاؤل، لكن ذلك لن يتم من تلقاء نفسه ولا حتى عبر المساعدات الأجنبية.

سعيدة أيبيها (هولندا) : لماذا لم تفكروا في الانخراط في العمل السياسي حتى يصبح بإمكانكم تقريب أفكاركم من الشعب والمساهمة في تحريك مشهد سياسي يتسم بالجمود يوما عن يوم ؟

م. **المنجرة** : سيدتي الكريمة، أعتقد أن هذا المقطع من كلام لـ «فرانسوا مورياك» سنة 1941، ربما سيساعدك على فهم تحفظي إزاء السياسة : "إن الانخراط في السياسة كان يعني دائما ترك الآداب، والوزراء المثقفون الذين (يزاوجون بين منصبين)، عندما يُودون العودة، لن يعطوا إلا كتبا ملوثة بخطابات وكذب السياسة... إن الصدق إزاء النفس، هو النقيض الأسمى للسياسة، وهو حجر الزاوية اليوم للتعرف على الكاتب". بعد ستين سنة تبقى هذه الملاحظة أكثر من أي وقت مضى ذات قيمة.

عادل مشموم : هل بإمكان الصناعة المغربية أن تواجه تحديات العولمة بعد عشر سنوات ؟ هل تتسم بمنتجاتنا بالمواصفات العالمية. ألسنا في حاجة إلى أطر أكفاء في ميدان الجودة والأرصاد الجوية ؟

م. **المنجرة** : أشك كثيرا في ذلك، اللهم إلا إذا دخل المغرب في شراكة مع مجموعة من الدول النامية بشكل يضمن له سوقا من 150 إلى 200 مليون نسمة. هذا مستوى لا يمكن الحديث دونه عن التنافسية. ثم إن هذه المجموعة يجب أن تستثمر على الأقل 2% من ناتجها الداخلي الخام للبحث والتطوير... إننا اليوم أبعد ما نكون إزاء ذلك.. بعض منتوجاتنا تتجاوب مع المعايير العالمية لكنها قليلة جدا : يجب عمل الكثير، وهذا ما نشير إليه في ضرورة مراقبة الجودة.

فكري يحياوي (فرنسا) : لدي ثلاثة أسئلة مقتضبة :

1 ـ ما رأيكم في اللجوء إلى خدمات صندوق النقد الدولي وما شابهه من منظمات ؟ هل ذلك من شأنه أن يساعد على التنمية، أم أن ذلك لا يعدو كونه إخضاعا لدول العالم الثالث ؟

2 ـ هل لكم أن توضحوا لنا كيف تشتغل هذه المؤسسة (نسب الفائدة عند القرض، الشروط والمقابل... إلخ).

3 ـ نحن ندخل اليوم عصر العولمة وعصر التكنولوجيا المتقدمة، ما العمل إذن ؟ هل يجب الارتكان إلى الهامش ؟ هل ننتظر ما تمنحنا إياه الدول المتقدمة ؟ هل من مخاطر على الأمن الصحي والغذائي ؟

م. المنجرة : البؤس والجوع والجهل لا يفتأ يتزايد ببلداننا يوما بعد يوم، والهوة بين الأغنياء والفقراء لا تفتأ تتعمق :

1 ـ إن صندوق النقد الدولي والبنك العالمي، هما أخطر مؤسستين على حاضر ومستقبل بلداننا وقد كانوا كذلك من ذي قبل. لكن الدول التي تلجأ إليهما هي التي يجب توبيخها ربما أكثر من تلك التي تقبل طلبها. خطر هاتين المؤسستين يتمثل في نماذج التنمية التي تفرضها والتي ترهن استقلال الدول المتلقية للمعونات، ولعل الخمسين سنة الماضية كافية لتوضيح النتائج السلبية التي كانت هاتان المؤسستان وراءها.

فالحكومات التي لا مصداقية لها عند شعوبها، تلتجئ إلى هاته المؤسسات كي تساعدها للحفاظ على السلطة وضمان «الاستقرار» (استقرار من ولمن وبأي ثمن ؟) هذا هو السؤال.

2 ـ الشروط كارثية، كما هو الشأن بالنسبة لباقي المقترضين ونسب الفائدة هي نسب تجارية، بدليل أن ما تؤديه بعض الدول كفائدة يتعدى حجم القرض الأصلي.

3 ـ فيما يخص التكنولوجيا المتقدمة، ليس هناك من خيار، فإما أن نساير وإما أننا سنجد أنفسنا من المنسيين وتحت رحمة الآخرين.

ادريس بنساري : أين وصل المجتمع المغربي وهو على أعتاب القرن الحادي والعشرين قياسا إلى تخمينات وأعمال الجمعية المغربية للمستقبليات طيلة الثمانينات حول مشاكل هذا المجتمع ؟

م. المنجرة : أعيد إليك نفس السؤال، لأنك كنت ضمننا في الجمعية المغربية للمستقبليات. إن سؤالك جد هام، لأنه من حقنا اليوم أن نقيم أحلامنا ودوافعنا وطموحاتنا لهذا البلد. إن المستقبل يمر عبر الماضي وكذلك عبر «ماضي المستقبل» لأنه يوجد أيضا.

لهذا السبب وضعت بموقعي على شبكة الأنترنيت أهم أنشطة الجمعية طيلة العشر سنوات الأولى (1976-1986)، وكذا كل التصريحات المعتمدة خلال هذه المدة.

أعتقد أننا تراجعنا مؤقتا، لأن «الرؤية» لا تتوفر بعد عند حكامنا (العامون والخواص)، ولأن هؤلاء رهنوا مستقبلنا دون تحرير ماضينا والتحكم في حاضرنا. سنتقدم عما قريب لا محالة، لأنه لم يعد هناك مجال للتراجع إذ بلغنا الحدود.

من جهة أخرى، أظن أن قراءة نصوص الجمعية، تبين أن أهدافنا ومرامينا ما زالت لحد الساعة ذات قيمة. فاليحيا ماضي المستقبل واليحيا مستقبل المستقبل !

ادريس تميمي : سؤالي عن إشكالية الاستثمار. أنا ما زلت أتساءل لماذا لم يعد بلدنا مركز استقطاب للاستثمار كما كان عليه الشأن في الماضي، ولا يملك بنوك مشاريع تمكن المستثمرين الوطنيين من استرداد ثقتهم في بلدهم : فالمهاجرون المغاربة بالخارج كنز وكذا المواطنين القاطنين بالبلد والمستثمرين الأجانب والمجازفين «الجدد» والقرويين ذوي الدخول المحدودة، ما العمل ؟

م. **المنجرة** : إشكالية الاستثمار، تكمن في أن المفهوم نفسه تغير كثيرا بكل دول العالم ومضمونه الاقتصادي والمالي تحول أيضا في مرحلة الانتقال من المجتمع الإنتاجي إلى المجتمع المعرفي.

كل من لا يملك مقومات هذا الأخير، لن يكون بمستطاعه الاستثمار أو استقطاب الاستثمارات بطريقة ناجعة.

إن المعرفة والبحث والعلم والتكنولوجيا والكفاءة والابتكار والمجازفة والرؤية والحلم، هي مفاتيح التنمية التي لا تبحث عن الاستثمارات، بل هي التي تلهث وراءها. أين نحن من كل هذا ؟ نهاية القرن التاسع عشر على أحسن تقدير.

أنا متفق معك على ضرورة إيلاء الأولوية للموارد البشرية، لأنها هي الرأسمال الثمين ؛ هذا الذي نضيعه، لأننا لا نملك الكفاءة لتسيير الكفاءات. ما العمل ؟ يجب البدء بالاعتراف بأن «نموذجنا» في التنمية، هذا المفروض من لدن المساعدات الخارجية والبنك الدولي، قد فشل. ثم يجب التفكير في إقامة نموذج آخر بطريقة ديموقراطية، ويتطلب ذلك حدا أدنى من التشاركية ومن العدالة الاجتماعية.

هذا آت لا محالة، شريطة أن ندع «أهل البلاد» يقومون به.

س : الاقتصاد الواقعي يمثل ثلاثة أيام في حين أن الاقتصاد الافتراضي يمثل 362 يوما، ماذا يعني لكم هذا ؟

- انتقلنا من الجيوسياسة إلى الجيو اقتصاد، ما رأيكم ؟
- ما الفرق بين الحرب الحضارية والصدمة الحضارية ؟

م. **المنجرة** : أعتقد أن الاقتصاد الافتراضي، أي التجارة عبر الأنترنيت والشبكات الأخرى، أضحت مهمة لدرجة أنها سوف تكتسح 60% من الاقتصاد العالمي خلال خمس سنوات.

صحيح أننا ننتقل تدريجيا من الجيو سياسة إلى الجيو اقتصاد، لأن «الجيو» أصبح أكثر اقتصادية منه إلى السياسة، وذلك منذ أن ابتلعت العولمة السياسة.

خالد مايارا (المغرب) : ما هي تأثيرات اتفاقية الخدمات (منظمة التجارة العالمية) على المهن الحرة (الطب، الهندسة، المحاسبة... إلخ) ؟

م. **المنجرة** : لا أعلم جيدا اتفاقية الخدمات الواردة في أدبيات منظمة التجارة العالمية ومدى تأثيرها على المهن الحرة.

المؤكد، هو أن كل نشاط لمنظمة التجارة العالمية، سيكون لا محالة ضد معالم الدول في طريق النمو ؛ لأن أهداف هذه المنظمة هي في معظمها

مناقضة لمعالم دول العالم الثالث. لكم أخجل عندما أتذكر أن هذه المؤسسة أنشئت بمدينة مراكش.

عبد الحي صدقي (المغرب) : هل تعتقدون أن العولمة هي هذا العملاق الذي سيأكل كل أشكال الثقافة ؟

م. المنجرة : هذا سؤال جيد، لأن العولمة هي خطر كبير على التنوع الثقافي الضروري لبقاء الجنس البشري، لكني أعتقد أنها ستفقد من قوتها خلال العشر أو خمس عشرة سنة القادمة على الأكثر.

إن عبقرية الإبداع الإنساني أبانت طيلة المراحل التاريخية، بأنها قادرة على قهر كل أشكال التسلط كيفما كان مصدرها.

بعد 15 سنة، لن تكون الولايات المتحدة هي القوة الاقتصادية العالمية الأولى بل الثانية، وبعد خمس وعشرين سنة ستكون الثالثة أو الرابعة؛ إن وجه الله هو الذي يدوم.

أحمد : أنا من المواظبين على قراءتك منذ كانت عندي 14 سنة عندما رأيت بعض تسجيلاتك، لكن لدي مجموعة أسئلة :

ـ لماذا أنت متغيب عن الحقل الثقافي والسياسي المغربي ؟

ـ ما رأيكم في التحولات الاقتصادية والسياسية التي يعيشها المغرب وما تأثير ذلك على مستقبله ؟

ـ هل أنتم مع تغيير حكومي لإزاحة المقصرين ؟

ـ ما رأيكم في المرأة، 2006، الدكاترة المعطلين... إلخ ؟

ـ كيف تنظرون إلى النظام التربوي الجديد بالمغرب، الذي لا يناسب لا واقع المغرب ولا ظروفه ؟ هل عجزنا حقا عن حل معضلة التعليم ؟

م. المنجرة : أنا شخصيا لا أستطيع تحديد تواجدي أو غيابي عن الحقل الثقافي بالمغرب، أعتقد أن كتبي مقروءة إلى حد ما قياسا مع المبيعات التي أحصل عليها وأعرف مستواها وردود الفعل حول هذه الكتب.

أما فيما يخص موقعي على الأنترنيت، أظن أنه الموقع الشخصي الأكثر إقبالا في المغرب (حوالي 60 ألف زائر لحد الآن).

بيد أني متغيب عن الحقل السياسي عن طواعية، لأني فضلت أن أهتم بالتربية والبحث والقضايا الثقافية.

أما فيما يخص التغيير، فأعتقد أنه الأفضل، شريطة أن تحدد أهداف واضحة ويوضع برنامج متناسق. هذا من جهة ؛ أما من جهة أخرى، فأظن أن قضية المرأة و«المغرب 2006» ليسا على درجة متساوية من الأهمية، إذ قضية المرأة أمر واقع بينما 2006 فهو ذاك المولود الذي خرج ميتا.

عادل بنعمر : سأحصر أسئلتي في دراسات المستقبل :

العديد من الدراسات والنظريات (سيما ما يتعلق منها بـ ماوربيغير) تحدثت عن الحضارات السابقة التي جاءت قبل قرننا، وكان لها الفضل في اختراع العديد من الأجهزة الرائدة (الطائرات، الأسلحة النووية ... إلخ) كحضارات الأزطيك وأطلنطيس والمايا والمصريين. سؤالي : ألا تعتقدون بأن هناك تاريخا مجهولا وأن المستقبل إنما هو إعادة إنتاج الماضي ؟

ثم ما رأيكم في دراسات ما وراء الطبيعة والبراسيكولوجيا ؟

وكيف تنظرون إلى مستقبل المغرب بالنظر إلى المستوى الكبير للبطالة ووضعية الشباب الذي لا يستطيع أن يعيش أو يتزوج أو أن ينجب أطفالا ؟

م. المنجرة : أولا يجب الاعتراف بأن التاريخ هو ظاهرة نسبية، حيث المعطيات حقيقية لكن التأويل يتطور ؛ فنحن نتحدث اليوم عن «مستقبل الماضي»، لأنه بإمكاننا تفسيره بطرق مختلفة حسب المراحل المعاشة.

فبهذه الطريقة فقط، يمكن أن نبلغ الحداثة وليس تلك الحداثة على المقاس أو تلك التي «تنقل جاهزة»، هذا مع الأسف ليس مسار العلم العربي/الإفريقي.

أنا لست رجل سياسة، لكن باعتباري باحثاً، أحاول أن أفهم مستقبل نظم القيم التي تلهم وتوجه المجتمعات وكذا مستوى الإبداع الذي تبذله كي تكون في تناسق مع عصرها ومع العصر القادم.

أنا لا يهمني الآني والظرفي، لكن بحكم كوني قضيت جزءا من حياتي في الدفاع عن حقوق الإنسان، فإني لا يمكن إلا أن أكون سعيدا لإطلاق سراح عبد السلام ياسين، وأتمنى ألا تتكرر هذه الممارسات، فالديمقراطية تتطلب تسامح الكل واحترام اختلاف وتعدد الآراء. لكن هذا لم يطبق على عبد السلام ياسين للأسف.

أعترف أن للقانون حدودا لو أردنا أن نداقع عن القانون، لكن أعتقد أن القانون هو الذي من شأنه أن يحد من القانون.

كل الذين يخرقون القانون، يقحمون عنفا من شأن القانون أن يقاومه. أنا متأكد بأن الجرم الخفي الذي ارتكبه عبد السلام ياسين في أعين الذين أدانوه، هو كونه لم يستسلم ويخضع، إذ أن المقاومين والمؤمنين لا يستسلموا إلا أمام معتقداتهم ومن أجلها. هذه مسألة كرامة تحرج الكثيرين.

الملاحظة التي تخفى على العديد، هو تقدم الروحي أمام العالمي والشامل، وهذا من نتاج التطور الهائل للعلم. فالثورة العلمية للثلاثة قرون الماضية، أبانت قيمة الجوانب المادية للتطور ؛ لكنها كانت مستكبرة ومؤمنة إيمانا أعمى بـ «العلم» و«العقلانية». القرن الحالي، هو القرن الذي بدأ فيه الوعي يتزايد بالمجال اللامحدود للمعارف المستقبلية : بين اكتشاف الأقل صغرا (في الميكروبيولوجيا والبيوجنيتيك)، وبين اكتشاف الأكبر كبرا (علم الفضاء)، ولذلك، فإن الانبهار والتواضع يجب أن يستحضرا بقوة.

فتقييم اللامادة، يوجد في مفترق الطريق بين الميكروسكوب الألكتروني والتلسكوب. ولذلك، فإن من مصلحة العلوم الاجتماعية أن تستخلص العبر من العلوم الدقيقة كي تخفف من ترفع غير مبرر، سيما ذاك الذي يستشف من «الخبرات الكبرى» التي تهيمن في دراسات الإسلام والمسلمين.

يقول بيير طيلهار دو شاردان، وهو كاثوليكي متعبد وباحث، قضى عشرين سنة بالصين : «كل من يرتفع يتلاقى» ؛ ونقول نحن : «بهذا يعرف الله». معرفة الفرد بجهله، هي بداية المعرفة والارتفاع إلى أعالي السماء.

بصري (سويسرا) : هل تعتقدون بوجود تغيير حقيقي بالمغرب، وإن كان كذلك فعلى أي مستوى ؟ وكيف تنظرون إلى واقع المغرب السياسي والاقتصادي بعد عشر سنوات ؟

م. المنجرة : منذ حوالي خمس سنوات، أي سنة 1995 ؛ حاولت أن أقارب كيف سيكون المغرب سنة 2020، وقد ضمنت هذه المقاربة بموقعي في الأنترنيت. علما بأن تمارين المستقبل لا تدخل في نطاق الدقة المطلقة ؛ لأن ظائفها هي التمكين من الرؤية عن بعد وتصور هذا المستقبل مع استحضار الوسائل التي من شأنها توجيه المسار وجهة معينة.

لكن من أجل ذلك، يجب توفر رؤية واستراتيجية وبرنامج عمل على المدى الطويل، وكذلك توفر الحلم في العيش المشترك والتضامن مع الفقراء وحب الإبداع... ؛ وهي أمور أغلبها ينقصنا اليوم، ستأتي يوما لكن شريطة الحد الأدنى من الجدية والإيمان والكثير من السخرية لمواجهة الواقع.

الطاهر (نيويورك) : ثلاثة أسئلة مختصرة :

- ما الذي يجب عمله لجعل المغرب بلدا وشعبا قويين ؟

- كيف تنظرون إلى التحول الحاصل سيما مع قدوم ملك جديد ؟

ـ هل نحن في المغرب بإزاء أزمة تيولوجية/إيديولوجية علمية/تكنولوجية أم مجرد أزمة شعب ؟

م. **المنجرة** : لكي نجعل من المغرب بلدا وشعبا قويين ؟ لابد من مجموعة أمور :

ـ القضاء على الأمية والجهل.

ـ القضاء على الفقر وردم الهوة الساحقة بين من يملكون الثروات ومن لا يحصلون حتى على لقمة العيش اليومية.

ـ بناء ديمقراطية حقيقية من شأنها رفع مستوى مشاركة السكان في تحديد نموذج التنمية الذي يريدون، والذي تحدد معالمه حالياً مجموعة من البيروقراطيين الداخليين بدعم من «الخبراء» الدوليين.

ـ تشجيع تنمية اللغة الوطنية والرفع من شأن اللغات الجهوية الأصلية.

ـ الاعتماد على الذات وتقليص حجم «المساعدات» التي تثقل كاهل المواطنين.

ـ إيلاء الاعتبار للقيم السوسيو ثقافية كمفتاح لنموذج التنمية.

ـ تقييم البحث العلمي وتشجيع الابتكار والإبداع.

ـ احترام حرية الأشخاص والجماعات.

فالتغيير شيء إيجابي، تغيير الإنتاج ونظام الاستهلاك وما إلى ذلك. ما سبب الأزمة ؟ سببها غياب الرؤية والأهداف الواضحة.

سعيد (المغرب) : أين نذهب ؟ أستمع للعديد من مسؤولينا يتحدثون عن تكنولوجيا الإعلام، لكنها مبادرات قليلة ؟ هل مستقبلنا أصبح مرهونا بمؤسسات تسيرنا كـ «ليديك» و«ريضال» وغيرها ؟

م. **المنجرة** : سنذهب حيثما سنترك أنفسنا نذهب، لأننا لا نتصرف في مصيرنا، لأنه مسير سياسيا من لدن السفارات واقتصاديا من لدن الشركات متعددة الجنسيات وثقافيا من لدن المستعمر القديم.

ودائما يبقى السؤال : لماذا هذا الهدر والنقص في الإبداع والمبادرات وسهاد «المجتمع المدني».

سالم (إيطاليا) : سؤالي عن مؤسسة الإذاعة والتلفزة. هل التغييرات التي حصلت على مستوى التلفزة كافية لإعطاء نفس جديد للقناة الوطنية، أم ترى أن الأمر يتطلب تغيير المنظومة بأكملها ؟

م. المنجرة : بموقعي الإلكتروني تجدون استجوابا مع «لوجورنال» يوضح لكم موقفي. لكنني مؤمن بأن جزء النظام لا يمكنه أن يغير النظام، العكس هو الصحيح، ولكم أن تقرأوا «في الأنظمة» سنة 1942 لـ «قون برطالنفي».

أحمد (المغرب) : هل دم الخطابي وبن بركة وآلاف الشهداء ذهب سدى ؟

كان أملنا في الحكومة الحالية ألا تختلط صلاحياتها مع السلطة العليا، وكان أملنا كذلك في أن تصبح العدالة واستغلال النفوذ جزءاً من الماضي لا أن تعود الممارسات إلى سابق عهدها ؛ ما رأيكم ؟

م. المنجرة : التعليق صعب، لكن المؤكد أن التجاوزات لا يمكن أن تطاق سيما عندما تطال الأبرياء.

محمد (الرباط) : ألا ترون بأن تنظيم كأس العالم بالمغرب سنة 2006 سيكون إيجابيا على مستوى الاستثمار في البنى التحتية والسياحة وسيساهم بالتالي في دفع الحركية الاقتصادية ؟

م. المنجرة : أعتقد أن الإشكال إشكال أولويات. السياحة والاستثمار في البنى التحتية جميل، لكنه لا يعطي السكان شيئا إضافيا. لكل أفضلياته : التجميل للخارج أو تجميل الدكان من الداخل ؛ لكن بغض النظر عن ذلك فإن المساحيق لم تعط يوما أكلا طيبا. ليست الكرة هي التي ستعطي نفسا للاقتصاد، لأن هذا الأخير يدور حول نفسه دون أن يدور بعد.

عادل (النرويج) : أنا باحث في الميكروألكترونيات وأشتغل على براءة تنفع المسلمين والإنسانية، وقد سمعت مؤخرا أن أميرا سعوديا (بن طلال)

خصص مليار دولار لاستثماراته في الولايات المتحدة. كيف لهذه المشاريع أن تخدم المسلمين والعالم الإسلامي واستعادة المجد الإسلامي الغابر ؟

م. المنجرة : أنا أهتم بالمعلوميات والميكرو إلكترونيات منذ ما يزيد على ثلاثين سنة، وقد قضيت الشهور والسنوات لإقناع دول العالم الثالث عموما ودول إفريقيا والعالم العربي خصوصا بأهمية هذا الفرع من التنمية ولم أكن لوحدي في هذا.

وأستطيع أن أجزم أنه باستثناء بعض أقطار آسيا وأمريكا اللاتينية، فإن الضعف هو الميزة المشتركة لباقي الدول في هذا المضمار.

طموحك جيد ومنطقي، فالأستاذ عبد السلام، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء، حاول أن يدفع بهذا لعقود طويلة. لا يمكن تصور تطور للعالم الإسلامي بدون بحث علمي وتطبيقه بغرض تحسين ظروف العيش والرفع من مستوى الإبداع والابتكار. وبصراحة، فإنه في الوقت الحالي، لا أحد يستطيع وضع أمله في موارد الحكومات الإسلامية لتمويل مشاريع التنمية الإسلامية ولأسباب واضحة. في حين أن الصورة تتغير إذا كان هدف الموارد الخاصة ومبادراته تتجه باتجاه خلق شبكة قوية من الخبراء ذوي الكفاءات العالية والمسلمين ذوي التكوين العالي والعاملين بالخارج.

من مميزات هذه المشاريع أنها تساعد على الحد من «هجرة الأدمغة»، فالخبراء المسلمون مطالبون بالمساهمة في تنمية دولهم وأقطارهم، حيث تعيش الملايير من أهلهم وذويهم.

وهناك العديد من زملائك، لهم نفس الطموح ونفس التطلعات بكل أرجاء العالم، لكن التنسيق بين هذه المبادرات والجهود، هو الذي نحتاجه اليوم.

مع الأسف، فالمنظمات الدولية التي خلقت لهذا الهدف (وضمنها المنظمات الإسلامية)، لا تعير هذه الأهداف اهتماما يذكر. ومع الأسف

أيضا، أن مال البترودولار الذي من المفروض أن يساهم في تمويل المشاريع الإسلامية، لا يهتم إلا بضروب الرشاوي والخضوع السياسي والاستعباد الاقتصادي والارتهان الثقافي. في المقابل، فإن المجتمع المعرفي الناشئ يعمل باتجاه تكريس الرأسمال البشري والبحث والابتكار كأسس جديدة عوض المال الخام المجمد.

أنا من المؤمنين بنظرية الاعتماد على الذات، وكل القرارات الخارجة عن ذلك، إنما تعبر عن «ميديو قراسية» نخبنا وتجاوز الزمن لها.

بابدو (ميسوري ـ أمريكا) : ما الوسيلة الناجعة والسلمية لإطلاق مسلسل التحولات ببلادنا، كي ينفتح المغرب على القرن المقبل والقطيعة مع الأشكال التقليدية لممارسة الحكم ؟ نحن كمغاربة نريد دمقرطة سلمية دونما أضرار لأحد على المستويات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها ؟

م. المنجرة : من ذا الذي لا يتمنى انتقالا سلميا ودونما مواجهة مع وضعية التخلف التي نعيش ونغوص فيها يوما بعد يوم ؟ ومن ذا الذي لا يتطلع إلى نموذج في التنمية قادر على ردم الهوة السحيقة بين الأغنياء والفقراء، بين الشباب والشيوخ، وبين العامل والعاطل، بين الرجل والمرأة....

هذه الآليات، لا يمكن أن تصاغ من لدن بيروقراطيين «وطنيين» أو خبراء دوليين. لكي ننجح، يجب اعتماد مسلسل ديموقراطي حقيقي مع تمثيل حقيقي وذا مصداقية لأولئك الذين نريد أن نمثلهم.

أحمد : ما رأيك في الأحزاب السياسية والكتلة بالأساس ؟

م. المنجرة : أعتقد أن كل الأحزاب السياسية في المغرب (باستثناء مرحلة الحركة الوطنية) في حاجة إلى تجديد نفسها من خلال التخلي عن مركزيتها وفتح المجال أمام الشباب وانشغالاته. الأحزاب في حاجة إلى فك الارتباط مع المخزنة، هذا أساسي وآت لا محالة.

المصطفى : 16 إلى 17 حزباً سياسياً في المغرب، هل هذا صحي ؟

م. المنجرة : أنا شخصيا أحترم العديد من الشخصيات التي تناضل داخل الأحزاب السياسية. لم أنخرط يوما في حزب سياسي ولم أصوت يوما في استحقاق انتخابي أو في استفتاء، لأن الظروف الموضوعية لم تكن متوفرة. المشكل مشكل مصداقية ونزاهة وتطابق القول مع الفعل. كم هي نسبة المغاربة الذين يظنون أن الأحزاب تمثلها أو لها القدرة على حل مشاكل البلاد ؟ أطرح عليكم السؤال.

رضوان (سان دييغو) : متى سيتغير المغرب والمغاربة ؟ هل المغرب بلد فلاحي أم صناعي أم ما بينهما ؟ هل فات الأوان كي يتغير المغرب للأفضل ؟

م. المنجرة : سيتغير المغرب والمغاربة، عندما يقرر المغاربة سلوك ذلك السبيل وعندما يكون الآخرون في غفلة عن ذلك. التغيير يأتي من الداخل وليس من الخارج كما هو الشأن بالنسبة للمطر. هذا أمر سياسي وتقرير للمصير قوي تماما كما هي قوة العزيمة على تأدية الثمن الذي ربما قد يكون مكلفا.

ثم إن المغرب ليس بالبلد الصناعي ولا يملك فلاحة عصرية قوية.

حكيمة : أنا طالبة أهيئ دكتوراه وطنية، أريد أن أعرف منكم كيف تنظرون إلى مسار الطالبة في المغرب وما طبيعة العوائق التي تواجهها ؟

م. المنجرة : لقد بلغت مستوى تحضير الدكتوراه ولا حاجة لك بالنصائح، تابعي مسارك بطريقة طبيعية، هناك صعاب جمة، لكن الأساس هو المواجهة والاستعداد لتأدية الثمن قصد بلوغ الهدف.

عبدو (الرباط) : ما رأيكم في هجرة الشباب المغربي المثقف منه وغير المثقف ؟ هل يجب ترك البلاد والهروب إلى الخارج، أم البقاء وانتظار المستقبل ؟

م. المنجرة : هجرة الأدمغة إشكال معروف، لقد درسته باليونسكو منذ سنة 1968، والأسباب بسيطة :

- غياب البنى التحتية لاستغلال المعارف المكتسبة طيلة سنوات الدراسة.

- ضعف مصادر تمويل برامج البحث والتنمية.

- غياب الحرية الضرورية للإبداع والابتكار وتفجر الطاقات الفردية والجماعية.

- الخوف من كفاءات الشباب من لدن الأطر المتجاوزة جراء التطور الهائل للمعارف.

جمال (لندن) : ثلاثة أسئلة :

- فيما يتعلق بدراساتكم للمستقبل، تطرحون عدة سيناريوهات، هل هذا يعني أن التاريخ نفسه كان مطالبا بالتعامل مع هذه السيناريوهات الثلاثة عوض سيناريو واحد ؟

- الأنترنيت، هل هو وسيلة أم محتوى ؟

- هل أنتم مع خطة إدماج المرأة أم ضدها ؟

م. المنجرة : التاريخ ليس خطي التطور، فهو مفتوح ؛ وبالتالي فهناك إمكانات تطور مختلفة.

ثم إن الأنترنيت هو وسيلة مدروسة ومنسقة، لكنه سرعان ما يتحول تدريجيا إلى محتوى في حد ذاته.

من ناحية أخرى، أنا لا أحب كثيرا كلمة «إدماج»، لأنها تحيل إلى نوع من الأبوية والإحالة إلى معايير مسبقة.

مشكل المرأة هو أعوص من أن نختزله في مجرد نصوص. إذ على مستوى البنى الذهنية والتربوية والمساهمة الحقيقية لها في وضع المعايير

وتقييم الممارسات اليومية التي من شأنها تحسين وضعيتها، على هذا المستوى يجب طرح الإشكال وليس من خلال «حق تدخل» الجهات الخارجية.

س : كيف تقيمون عطاء حكومة التناوب بعد سنتين من الحكم ؟

م. المنجرة : هذا شأن السكان والجماهير، التي لها أن تقيم عمل حكومة ليست بـ «الجديدة» في حالات دول العالم الثالث. المهم ليس الحكومات كيفما كانت، ولكن ما تحمله هذه الأخيرة لتخفيف المعاناة التي تعيشها الشعوب وتحسين وضعيتها المادية والمعنوية. أنظر المقاييس السوسيوقتصادية، تجول في الشوارع، اسأل الناس.

أما أنا، فلست رجلا سياسيا من صلاحياته وضع تقييم سياسي. الوضع صارخ ولا ينقص إلا فتح الأعين، نحن في حاجة إلى اختصاصيين في العيون.

مارك (المغرب) : المسؤولون (حكومة، وسائل إعلام وغيرهم) يتحدثون عن تكنولوجيا الإعلام والطرق السيارة والمتعددة الأقطاب والتجارة الألكترونية وغيرها، لكن :

- هل يجوز الحديث في بلد، كالمغرب، عن مكانة للأنترنيت في وقت ينحسر فيه دور الإعلام التقليدي (الصحافة، التلفزة، الراديو...) ؟

- هل تعتقدون أن بإمكان بلد يتوفر على حوالي 300000 حاسوب، (إدارة وشركات وغيرها) التقدم إلى الأمام ؟

- هل من الجائز الحديث عن التجارة الالكترونية بوجود نظام بنكي ضعيف وقوة شرائية هشة ؟

- هل تولون أهمية لشبكة الأنترنيت في غياب المضامين والمحتويات ؟

م. المنجرة : أنا متفق معك في العديد من النقط، لأن أسئلتك هي أجوبة في حد ذاتها.

أعتقد من جهة أخرى، أن الأنترنيت هو متعدد الأقطاب وقد يكون من شأنه بعث بعض الحيوية في وسائل الإعلام الأخرى التي مع الأسف، تتهاون جراء غياب القرار السياسي والابتكار.

أظن أن الأساسي فيما يخص الحواسيب، هو التساؤل : عماذا نريد ؟ عندها، سنحدد الأولويات ونعمل على إزاحة العراقيل المرتبطة بتكلفة الاتصالات مثلا.

صحيح أن القدرة الشرائية للمغاربة هشة جدا ونسبة الأمية مرتفعة (حوالي 60%)، لكن الأخطر، هو الأمية التكنولوجية للمتعلمين الذين تجاوزوا 30 سنة والتي تصل إلى 65%-70%.

12

حكّامنا يرفضون الكفاءة(*)

يفكّك الباحث والمستقبلي المهدي المنجرة، عجز العالم العربي في مجال المعرفة، ويدين موقف القادة العرب الذين حاربوا دائما التنمية.

الصحيفة : نشر PNUD مؤخرا تقريرا حول وضع المعرفة في العالم العربي، ما هي تعليقاتكم حول هذا الموضوع ؟

م.م. : دون الرجوع إلى مناهج التقييم للـ PNUD، علينا أن ندرك أننا نعيش في عصر أصبح فيه العلم ضروريا لتقدّم كل مجتمع. تقرير نادي روما سنة 1979 «من المهد إلى اللحد»، المتعلق بتطور التربية في الدول العربية، يشرح دخول العالم في مجتمع جديد للمعرفة التي تستوجب الإبداع والمشاركة. لقد غابت المعرفة عن الميدان العام ومجال القرارات السياسية والاقتصادية الكبرى لفترة طويلة.

يكمن التجديد في سيرورة المجتمعات الحديثة، في اعتمادها المتزايد على اللامادي عوض المادّي. ومن الواضح أنه في السنوات القادمة، ستنخفض أهمية المواد الخام مقارنة مع الماضي ؛ بينما يصبح الحصول على المعلومة أساسيا.

الصحيفة : كيف تفسّرون تأخّر العالم العربي في مجال المعرفة ؟

م.م. : يرجع هذا التأخر في العالم العربي، مقارنة مع الغرب، إلى بنية عقليتنا وعدم كفاءة القادة العرب. لقد رفضوا إدراك أهمية الكفاءات وأولوا اهتماما بالغا للجانب المادّي للتقدّم.

(*) الصحيفة عدد 21/15 نونبر 2003. أجرى الحوار معاد غندي.

لم تستثمر الدول العربية بالكفاية في مجال التربية والعلوم والبحث العلمي. وهذه الاستثمارات تتطلب الوقت لتحقيق النتائج، إن منطق الأمد المتوسط والطويل، ناذرا ما حظي بالاهتمام الكافي. في أيامنا هذه، من المستحيل القيام بالبحث العلمي بسعر منخفض. يجب على الدولة أن يكون لها برنامجٌ ساري المفعول، يسمح لجامعاتنا أن تتوفر على ميزانية مخصّصة للبحث العلمي.

الصحيفة : منذ استقلال الدول العربية لدينا انطباع أن قادتنا يهمشون المفكّرين [المثقفين] ؛ كيف تفسّرون هذا السلوك ؟

م.م. : لقد طُبِعت الفترة الاستعمارية بمحاربة متواصلة للعلم والعلماء، وأعتقد أن الوضعَ لازال قائما في العالم العربي. في بلادنا لا نشجّع الكفاءة ولا يوجد هناك مسؤولون أسوأ من أولئك الذين يجهلون درجة جهلهم. وعندنا فائض في العالم العربي، علينا أن نفهم أن الإنسان هو محور التطور، والتخطيط والاستقلال الذاتي. إن التصورات والتحاليل، والمناهج والسياسات والاستراتجيات لا معنى لها، إلا إذا جعلنا بينها علاقات مباشرة وفعّالة من أجل سعادة ومستقبل الإنسان.

الصحيفة : إنكم تتهمون دائما القادة العرب ؛ ألا تعتقدون أن المثقفين يتحملون هم أيضا جانبا من المسؤولية في هذا المضمار ؟

م.م. : حقا، إننا كلّنا مسؤولون على هذا الوضع الكارثي للمعرفة في العالم العربي، وركود مثقفينا، وعدم فعاليتهم ساهم في تخلّفنا. لقد نجح القادة العرب في إرهاب المثقفين ودفعوا عددا كبيرا منهم للتخلّف عن عالم المعرفة والإبداع. وكلّ إبداع يحتاج إلى احتجاج. وإذا رفضنا النقد الذاتي، لا أعتقد أننا سنتطور ؛ ولذلك، فإذا لم تكن هناك مقاصد، ليس هناك نظام، ويصبح التقييم شبه مستحيل.

أعتقد أن الكل مسؤول، ويجب إعادة النظر في مقاربتنا لكي نسمح للكفاءات بالإبداع، وبالتالي تطور المجتمعات.

13

الشباب المغربي وتحديات هجرة الأدمغة[1]

أريد أولا أن أتقدم بالشكر للجمعية المغربية للمدارس الكبرى (AMGE) على دعوتها لي للمرة الثانية لتبادل الأفكار مع أعضائها. كان لي آخر لقاء معهم يوم 4 أبريل 2003. وموضوع اليوم مهم بالنسبة لمستقبل المغرب الذي سيصنعه شباب اليوم في وقت نلاحظ فيه هدراً كمّياً ونوعياً لمواردنا البشرية. إذن سنتناول محور : «الشباب المغربي وتحدّيات هجرة الكفاءات».

إن الحاجز الأول الذي يعترضنا، عندما نرغب في تحليل مثل هذا الموضوع، هو غياب المعطيات الموثوق بها ؛ لأن الجهاز الإحصائي المغربي في هذا المجال ضعيف جدا، لكي لا أقول منعدم ؛ وذلك على الرغم من الوزارات والمؤسسات والمراصد المخصّصة لهذا الغرض. ويجب التنبيه إلى أن جمعيات الأساتذة والأطبّاء والمهندسين والمهن الأخرى، لا تقوم بتتبع أخبار هجرة نظرائها[2]. والمعطيات الوحيدة النادرة والناقصة، هي تلك المعطيات التي نجدها على الأنترنيت. لكن أعتقد أنه لو

---

(1) الندوة بالجمعية المغربية للمدارس الكبرى (AMGE) باريز 30/09/5 انظر :
http://www.elmandjra.org/conférences.AMGE-Paris-30.09.05htm/.
النص العربي في الأيام 2005/01/24 الدار البيضاء.
http://www.elmandjra.org/Alayam-24.10.05html.

(2) حسب مصلحة الدراسات والإعلام الصحي بوزارة الصحة، فإن عدد الأطباء المغاربة المقيمين بالخارج حاليا، يتراوح ما بين 600 طبيب ؛ ومن الصعب الحصول على المعلومات حول مهن أخرى.

طلبنا من وزارة الداخلية بجمع المعلومات حول الجامعيين والباحثين المغاربة بالخارج، لقامت بعمل ذي مصداقية انطلاقا من ملفّاتها.

عندما نبحث في الأنترنيت، عبر محرك البحث «كُوكْل» google بالكلمات المفتاح «هجرة + الأدمغة» نجد 4.000.000 من الوثائق، «هجرة + الكفاءات» يعطينا 146.000 و«هروب + الأدمغة» تعطينا 137.000 وثيقة. وإذا بحثنا عن «هجرة + الأدمغة + المغرب» نحصل على 101.000 نتيجة. أما المزج بين «هروب + الأدمغة + المغرب»، فإنه يزوّدنا بـ 16.000 مرجع[3]. ولنسجّل هنا، الفرق الهائل بالأنترنيت بين المصادر الأنجليزية والفرنسية في هذا المضمار.

قضية هجرة «الكفاءات» أو «هجرة الأدمغة»، أخذت بعدا عالميا منذ 1967، عندما تقدّمت مصر، البرازيل، إيران، ونيجريا بقرار (Res.2320) للاجتماع العام بهيئة الأمم المتحدة، بطلب للقيام بدراسة في الموضوع. وتكلّفت بهذه المهمّة UNITAR واليونسكو.

لقد أنجزت عدة دراسات في الموضوع منذ ذلك الوقت ؛ ويكفي هنا التأكيد على أن خلاصة هذه الدراسات، تتطابق على الأقل مع نقطتين مرتبطتين بهذه الظاهرة. أوّلهما، غياب الإمكانيات والهياكل، لتطبيق ما تعلّمناه مع ضعفِ ميزانية البحث ؛ مما يشكّل خطر ضياع المعرفة. والسبب الثاني، يتعلّق بغياب حرّية التعبير والقيود التي لا تشجّع على الخلق والإبداع. أما العامل المادّي، رغم وجُوده، فهو غير فعّال، كما هو الحال بالنسبة لإسبانيا، وكندا والهند والصين. هذه الأمثلة تندرج في فئة الهجرة المضادّة للأدمغة «reverse brain drain» :

إسبانيا : مبادرة الملك خوان كارلوس في الثمانينات، الذي شجّع عودة عشرات الأساتذة الاسبان والمكلّفين بمَهمّات عالية في الجامعات الأمريكية.

(3) البحث «المنجرة + هجرة + الأدمغة» تعطي 116 مرجع.

كندا : ارتفاع ميزانية البحث العلمي من طرف البرلمان سنة 2003، ساهمت في عودة عدة أطبّاء كنديين كانوا يمارسون عملهم بالولايات المتحدة الأمريكية.

الهند : إنشاء قرية علمية ببنكلور مع تسهيلات كبيرة للبحث في التكنولوجيات الجديدة، والارتفاع الملموس في ميزانية البحث، ساعدت على عودة الأدمغة و«عدد كبير من الباحثين الهنود الذين كانوا يتواجدون بأمريكا»[4].

الصين : أنشأت الحكومة الصينية أكثر من 70 مركزا صناعيا للطلبة الذين يعودون من الخارج لتأسيس مقاولات صناعية بفضل قروض وتسهيلات السكن لآبائهم[5].

ولذلك، فإن ظاهرة هجرة الكفاءات بالمغرب، لا تقتصر فقط على هروب الباحثين ؛ لكنها تشمل مهارات أخرى من «الرأس إلى القدمين» ؛ في الرياضة، والموسيقى والرسم والمسرح وفي قطاعات أخرى تتطلب الخلق والإبداع. وإليكم مثلا بارزا في الرياضة، يرجع تاريخه إلى بضعة أيام فقط : بالنسبة لمباراة كرة القدم المغرب/تونس، التي ستجرى في تونس 8 أكتوبر، استدعى مدرّب الفريق الوطني 24 لاعباً، واحد منهم فقط من الفريق المغربي[6].

بعض الأرقام

تتمثل إشكالية هجرة الكفاءات الشابّة المغربية في إطار ظاهرة تمسّ معظم دول العالم الثالث، ويجب أخذها بعين الاعتبار قبل دراسة الجانب الوطني.

---

(4) Economic times، مجلة هندية قدّرت عودة 35.000 اختصاصي باحث في تكنولوجيا الإعلام إلى أكبر مركز تكنولوجي بالهند في منطقة ينكلور. من جهة أخرى، فإن الجمعية الإلكترونية الأمريكية وصفت هذا الحدث كهجرة الأدمغة من أمريكا ودخول الأدمغة للهند «هجرة الأدمغة من أمريكا وربح الأدمغة للهند».

(5) الصين : انظر عودة «هجرة الأدمغة» (2003/18/12) رسالة إخبار من السفارة الصينية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. تقريبا 5.000 باحث صيني التحقوا بالمرصد العلمي Zhongguanun. حسب بوستون كلوب Boston Globe 12 غشت 2005.

(6) Le Matin du Sahara الدار البيضاء 2004/09/29.

إن النقص في الأشخاص المؤهلين في العالم، مثل سنة 2000 حوالي 4.000.000. ويقدّر العجز في أكبر الدول الصناعية بـ 350.000 في الولايات المتحدة الأمريكية، و300.000 شخص في ألمانيا، و220.000 بالمملكة المتحدة، وبين 35.000 و185.000 في فرنسا و35.000 في كندا[7].

فيما يهم فرنسا، يشير التقرير الذي نشر منذ ثلاثة أيام من طرف المندوبية السامية للتخطيط إلى ما يلي :

«أظهرت دراسات تصوّرية Simulations، أن فرنسا ستعرف حاجيات مهمّة لتجديد وتوظيف الباحثين (من 8.000 إلى 14.700 باحثاً سنويا على مدى فترة 2001-2013) ؛ بينما يلاحظ أن عدد الطلبة سيعرف فترة استقرار وربّما انخفاض، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار الطلبة الأجانب. ولمواجهة هذا الوضع يعتقد التخطيط أن على الدولة تزويد سوق الشغل في المجالات العلمية والتقنية، بغضّ النظر عن اللجوء إلى الاحتياط الداخلي عبر الهجرة العلمية...؛ وأمام بروز حركية اقتصاد التحرّك الدولي، على الدولة أن تقتني آليات لإحصاء وتتبّع هجرة الطلبة والباحثين»[8].

إفريقيا والعالم العربي

تقدر المنظّمة الدولية للهجرة، أن عدد العاملين المؤهلين من أصل إفريقي بفرنسا وأمريكا الشمالية، يتراوح بين 300.000 ؛ بينما تسجّل OCDE أن أكثر من مليون افريقي حاصل على شهادة التعليم العالي موجود ببلدان أعضائها[9]. يقدر برنامج التنمية لهيئة الأمم المتحدة، أن 54% من الأطبّاء، 26% من المهندسين و17% من حاملي الشهادات العلمية من الجامعات

(7) انظر «Le Monde» 2000/6/12، وتقدير 4.000.000 أصبح متجاوزا اليوم. لم يكن أي تقدير باليابان التي تنوي جلب آلاف المتخصّصين بالمنطقة وخصوصا الصين.

(8) تقرير المندوبية السامية للتخطيط سرسوتي «طلبة وباحثون في أفق 2020 : رهان الحركية الدولية وجاذبية فرنسا» نشر بباريز 2005/9/9 depêche AFP 28/9/2005.

(9) هجرة الكفاءات افريقيا : 4 مليار دولار من الخسارة سنويا» L'opinion الرباط 2005/8/31.

العربية والإفريقية، يهاجرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ؛ وأن نصف المتخرجين الأفارقة والعرب الذين يدرسون بالخارج، لا يعودون أبدا إلى بلدهم الأم[10]. ويؤكد نفس المصدر، أنه في سنة 96/1995 هاجر ربع خريجي الجامعات العربية (300.000 خريج)، كما هاجر 15.000 طبيب بين 1998 و 2000.

يعتقد Philip Emeagwali المتخصّص في الرياضيات من إفريقيا والذي ساهم في استكمال إنجاز الحواسب المتطورة (جائزة نوبل في الإعلاميات) أن :

«التناقض بإفريقيا، يكمن في كوننا ننفق 4 مليار دولار على 100.000 خبير أجنبي ؛ لكن نرفض دفع مبلغ شبيه به لتوظيف 250.000 محترف إفريقي يعمل بالخارج» ؛ ويضيف إن «ميزانية التربية الإفريقية، ما هي إلا تكملة للميزانية الأمريكية، لأن ثُلُثَي الجامعات الإفريقية تعمل على تلبية الحاجيات الأمريكية والبريطانية من الموارد البشرية[11].

إن الأرقام مهولة، وفي سنة 1998 حسب تقرير لليونسكو ؛ ذلك أن «أكثر من 30.000 حامل الدكتوراه من إفريقيا يعملون خارج القارة» ؛ ومن المؤكد أن هذا الرقم قد تضاعف خلال السبع سنوات الأخيرة والسؤال أصبح : من يساعد من ؟

البحث العلمي : ملاءمة الأرقام

في سنة 2001، أنفقت 25 دولة من الاتحاد الأوروبي 178 مليار من الأورو في البحث والتنمية.

---

(10) PNUD تقرير حول التنمية البشرية 2003 نيويورك.

(11) http://www.emeaguali.com/interviews/brain-drain/education-in-africa-brain-drain-problem-worldnet-africa-journal-html (traduit de l'anglais). Information sur "Actualités" du 30/9/2005 sur "yahoo.com".

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أنفقت 315 مليار أورو ؛ وأنفقت اليابان 143 مليار أورو.

وتخصّص الصين حاليا 9% من الناتج الداخلي الخام PIB في البحث العلمي، مما يفسّر تقدمها الاقتصادي. وبالمغرب لا ننفق إلا 0,2%، أي تقريبا 50 مرة أقل[12].

البارحة 2005/9/29، أكّد الوزير الأول المغربي في ندوته الصحافية الشهرية أنه:

في 2010 سيرتفع المجهود بالنسبة للبحث في مجال التعليم العالي إلى 24 مليار، بينما كان أقل من 19 مليار سنة 2004 ؛ إذن نلاحظ تقدّما يفوق 26%، وأضاف أنه مجهود غير مسبوق في تاريخ البحث ببلادنا»[13].

بعض المعطيات بالمغرب

التعليم ما بعد البكالوريا بالمغرب، سجّل 375.000 طالب في الدخول الجامعي 2006/2005 ؛ ما مصيرهم بعد إحرازهم على الشواهد العليا ؟

هذا هو السؤال.
إنه أهم سؤال.

إن الطلبة الحاصلين على الشواهد العليا مُعَرَّضين للبطالة بمعدَّل 27%، وأصبح القطاع الخاص، هو المُشغّل الرسمي بالمغرب بمعدل 76% في الميدان الحضاري. إن الكفاءات المغربية بالداخل وخصوصا بالخارج، غير منظمة لتشتغل عبر شبكات، ولا تستغلّ جميع طاقات التكنولوجيا الحديثة للإعلام والتواصل.

---

(12) في دراسة «مغرب 2020»، والتي ترجع إلى 10 سنوات، حيث عبّرت عن أملي في رفع ميزانية البحث العلمي إلى 1,5% من الناتج القومي الخام. انظر :

http://www.elmandjra.org/Mar2020html.

(13) التصريح الذي أدلى به الوزير الأول أثناء الندوة حول الشغل المنعقدة بالصخيرات يومه 22—2005/9/23.

أكثر من 60% من خريجي مدارس المهندسين تهاجر، وهجرة المتخصصين في المعلوماتيات ترتفع على وجه الخصوص.

نسبة البطالة بالمغرب، في الميدان الحضاري تقترب من 20%، والفئة التي تعاني من أضرار البطالة، يتراوح عمرها بين 15 و24 سنة. أما بالنسبة لذوي الشهادات العليا، فنسبتهم تصل إلى 33% ؛ في حين تصل نسبة غير الحاصلين على شهادات عليا إلى 8% (مديرية الإحصاء 1999).

سيكون 200.000 من المجازين المعطّلين بالمغرب، حسب تصريح الكاتب العام للجمعية الوطنية للدكاترة المعطلين (عبد الواحد العادل ماي 2005).

وحسب كاتب مجموعة الأطر العليا المعطّلة، السيد موحا الإدريسي، الذي تم استجوابه نهاية أبريل 2005 ، هناك أكثر من 10 جمعيات بالمغرب للدفاع عن الدكاترة المعطّلين، الذين يهانون من طرف السلطات الأمنية إثر مظاهرات يقومون بها.

توصيات ندوات الشغل[14]، المنعقدة مؤخّرا بالصخيرات (تحت ضغوطات دولية، كالبنك الدولي)، والتي يترأسها الوزير الأوّل، المبنية على اعتبارات نفعية، كخلق مناصب والبحث عن معادلة توفّق بين الحاجيات في اليد العاملة والتكوين الجامعي ؛ وهذا تحت ضغط منظّمات دولية، كالبنك الدولي. أما ما يسمّى بالإصلاح الجامعي، ففي نظري كارثة وطنية ؛ لأن تبعاته السلبية، ستتمتد على الأقل من 10 إلى 15 سنة إذا لم نستدركها في الحين.

- إن النفعية لا يجب إهمالها، لكن يجب أن تكون نتيجة لا مقصدا للتعليم العالي. إن دستور الجمعية العالمية للجامعات يؤكّد على هذا التوجّه الذي يَمُسّ قيم دور الجامعة، المتمثل في :

«الحق في طلب العلم من أجل العلم وتتبّعه حيثُ يؤدّي».

---

(14) إحدى التوصيات، تتعلق بإنشاء مرصد للشغل. لقد أنشئت عدة مراصد للشغل في الماضي ولازلنا ننتظر نتائجها.

والخطر الذي يهدّد جامعات العالم الثالث، هو بالضبط عدم احترام هذا المبدأ الأساسي. هناك حديث حول المعارف النافعة، العملية والمطابقة لحاجيات الشغل. إذ أن المعرفة لن تخضع للشغل، ولكن على الشغل أن يواكب تطور المعرفة وحاجياتها.

عندما كنت بينكم سنة 2001، أخبرني المسؤولون عن AMGE، أن خلال الأربع سنوات الماضية لم يرجع أي خرّيج من المدرسة Polytechnique إلى المغرب. رئيس هذه الجمعية عماد بوزيان، في جواب عن رسالتي الإلكترونية، أخبرني مؤخرا بما يلي :

«عدد المتخرجين من المدارس الكبرى (ويجب تحديد مفهوم المدارس الكبرى، لن أعطيك إلاّ الأرقام المتعلقة بالمدارس بباريز)، يتراوح بين 140 و150 متخرج سنويا في باريز (مهندسين ومتخصّصين في التجارة)، إذن 800/700 طالب يحصل على الشهادة في 5 سنوات. أما بالنسبة لأولئك الذين يرجعون على المدى القصير، وعددهم لا يبلغ حتى الربع، فإن أغلبيتهم، تفضّل قضاء 4/3/2 سنوات بالخارج قبل العودة...؛ وثلثي هؤلاء الخريجين ذوي الكفاءات العالية، يُفضّلون الابتعاد عن سوق الشغل بالمغرب بصفة نهائية...، إن هذه الأرقام تقريبية لكنها واقعية».

إن المغرب يحتلّ الدرجة 124 في العالم بالنسبة للتنمية البشرية (تقرير PNUD 2005) ؛ وهو جد متأخر، وعليه استدراك الوضع، رغم التصريحات الرسمية. ويحتل الدرجة 131 بين 194 بلد في مادة احترام حرية التعبير (Freedom house 2004) والدرجة 77 بين 194 دولة حسب فهرس الهيئة الدولية للرشوة سنة 2004.

لنسجّل أيضا تدهور احترام دولة القانون وحرية التعبير. وإنني أتحدث عنها وأنا أعلم منكم بذلك، لأنني تعرضت للمنع وللمرة السادسة عندما كنت أتهيّأ لإلقاء محاضرة بتطوان تحت عنوان «الديمقراطية وحقوق الإنسان بالمغرب؟» ومباشرة بعد هذا المنع، ولدت حركة «بَرَكَ» بالمغرب[15].

(15) أنظر : http://www.elmandjra.org/interdictions-2005.htm.

أما المؤشر الآخر لنوع الحياة، فهو الذي يتجسّد في عدد المغاربة الذين يحاولون مغادرة التراب الوطني سرّيا «الحراقة»، أولئك الذين يحرقون أوراق تعريفهم، وعددهم 25.000 حراقاً سنويا ؛ وحسب المنظمة الدولية للهجرة، فإن 21.000 مغربي أرجعتهم إسبانيا للمغرب سنة 2001. ولو قمنا بتصنيف الدول حسب نسبة الإهانة، فإن المغرب سيكون ضمن الصفوف الأولى[16].

إننا نخشى ونحارب الكفاءات، وهذا الوضع يمثل أكبر مؤشر على حالة التخلّف ؛ كما أننا لا نعبأ بتجديد معارفنا، في وقت يتضاعف فيها مجموع المعارف البشرية كل سبع سنوات، علما بأن 90% من هذه المعارف، تمّ الحصول عليها خلال الثلاثين سنة الماضية حسب رتشارد نايت[17].

كيف لنا أن نواجه انفجار المعرفة، الذي يتمثل في نشر 6.000.000 مقالاً في 65.000 مجلّة متخصّصة في كل سنة، فضلا عن نشر 2.500 كتاب جديد كل يوم ؟

حسب آلفن طوفلر Alvin Toffler، «إن الأمي اليوم، هو ذلك الإنسان الذي
«لا يعرف كيف يمحو ما
تعلّمه كي يتعلّم
كيف يتعلّم من جديد».

أعتقدُ أن ضرورة تجديد المعارف، هي السبب الرئيسي في هجرة الكفاءات. لم يكن تعريف العالِم من طرف القائد دوكول، أكثر مطابَقة من اليوم، حيث قال : «إن العالِمَ هو الذي يعلم مدى جهله».

أعتقد أن التخلّف يمكن تحديده اليوم، بوضع تُحارب فيه الكفاءات الوطنية الخلاقة والمبدعة، ويُكَرَّس فيه الخمول والرداءة الخاضعة التي تساعد على الرّشوة، وخرق حقوق الإنسان والخنوع أمام الدول العظمى.

---

(16) انظر : المهدي المنجرة «الإهانة في عصر الميكا أمبريالية» النجاح الجديدة الدار البيضاء 2003.

(17) هذا التقدير لرتشارد نايت بتاريخ 1995.

إن إحدى العواقب السلبية للتحرر المفرط والخوصصة، تتعلّق بالبحث العلمي، والتي لا تجد الحد الأدنى (ميزانية وطنية) ؛ والتي يتم تحويلها إلى الدول التي اقتنت الشركات الكبرى للدولة. ومن الأمثلة البارزة نذكر اتصالات المغرب Maroc Telecom وريضال (الماء والكهرباء).

وللأسف، فإن المبالغ المهمّة التي يُدخلها المهاجرون، لا تُسْتثمر لصالح البحث ؛ لكنّها تُسْتَثمر في العقار واستثمارات مغامرة أخرى.

وفي سنة 2003، ارتفعت هذه التحويلات بالعملة إلى 35 مليار من الدرهم، أي ما يقرب من 10% من الناتج القومي الخام. ويحتل المغرب الصف الرابع عالميا بعد الهند والمكسيك والفلبين في هذه التحويلات[18].

التحديات

توجد التحديات على مستوى التضامن في المكان والزمان. التضامن في المكان، هو المشاركة والديمقراطية، والتضامن في الزمان هو التوقّع، وعندما نجمع بين الإثنين، نحصل على الإبداع والخلق.

بدون محاربة الأمية، وبدون تقليص الفقر ؛ لا يمكننا مكافحة هجرة الكفاءات. تحدّ آخر يستحق الاهتمام، هو الثقة بالنفس والاعتماد على النفس. وهذا يسهّل تحديد المسار ومقاصده، لأنه بدون مقاصد لا يوجد نظام، كما عبر عن ذلك Von Bertatouf، الذي يقول : «إذا كان هناك هدف، هناك نظام» (حول الأنظمة 1942).

(18) انظر : «محمد نظيف : الهجرة والتنمية بالمغرب : ما هي التصورات ؟» مداخلة بالبرلمان الأوروبي يوم 2005/1/30 التي تذكر رقم 34.733,8 مليون من الدرهم. حسب لحسن محراوي رئيس جمعية المتخصّصين في علم الأحياء بالمغرب - بيمتك Biomatec - إن الباحثين الشباب الذين يتلقون تكوينهم بفرنسا يستقرون في دول أخرى خصوصا بالولايات المتحدة الأمريكية، لأن البحث الفرنسي لا يُرضي مطامحهم، من وضع قار وأجر مشرّف، حتى بعد 8 إلى 10 سنوات من البحث فضلا عن جودة ظروف العمل. إن ميزانية البحث في المجال الطبّي بالولايات المتحدة تفوق ميزانية INSERM بخمسين مرّة.
انظر (www:marocentrepreneurs.com/newsletters/4/interview.htm).

كيف لنا أن نواجه نظاما تربويا رذيئا، والذي يتفتّت يوما بعد يوم، ونبحث عن حلول ترقيعية في انتظار الحلول الصحيحة ؟

يجب أولا أن نبدأ بالنضال من أجل حرية أكبر، للتعبير والدفاع عن الكرامة الإنسانية، والتي بدونهما لن يستقيم أي تقدّم.

ثانيا، لنحاول وبجميع الوسائل، تقليص الفجوة الكبيرة بين المداخيل ومحاربة الرشوة التي تشجّعها الزبونية والمحسوبية.

ولنحاول الرفع من المصداقية كي ترتفع المعنويات.

وأخيرا، يجب تفادي الاستيلاب دون ضرر، مع الحفاظ على قدر قليل من الليونة واجتناب التعصّب، دون التخلّي عن منظومة قيمنا.

وتفادي كل نموذج تنموي غير مناسب على الإطلاق وبدون أي تطابق سياسي، اقتصادي أو سسيوثقافي ؛ ومن تم مواجهة المشكل الأساسي للتواصل الثقافي داخل البلد ومع الدول الأخرى.

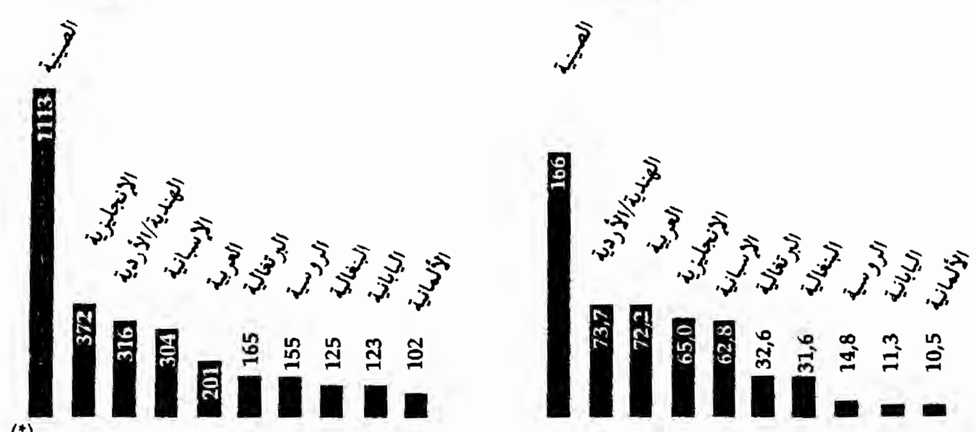
القيم

فيما يتعلق بقضية مبايعة القيم، تفيد دراسة أنجزها مؤخرا المعهد الأمريكي لاستفتاء الرأي ؛ بأن الدول العربية تولى بيعة للإسلام أكبر من تلك التي توليها للوطن. بالنسبة للمغرب، هذا التفضيل يمثل رأي 80% من الشعب.

زيادة على أن التعدد اللغوي يشجّع مسألة التنوّع. أما بالنسبة لتطور استعمال اللغات في العالم، فيتبيّن لحد الآن، أن 90% من الأبحاث العلمية تنشر باللغة الإنجليزية، والباحثون الفرنسيون ينشرون أيضا باللغة الأنجليزية تقريبا بنفس المعدّل في فرنسا وأوربا.

سنجد في البيان أسفله تطوير اللغات المستعملة من اليوم حتى 2050.

اللغات العشر الأكثر تكلما سنة 2050 — اللغات العشر الأكثر تكلما سنة 1995



(*)

وفي الختام، بما أنني كنت منشغلا بقضية هجرة الكفاءات منذ أكثر من ثلاثين سنة، فقد غيرت أخيرا موقفي اتجاه الجامعيين والباحثين المغاربة بالخارج منذ عشر سنوات، نظرا للتواصل المستمر بيننا ولتبادل أكثر من 1.000 رسالة إلكترونية ؛ وحول هذا المشكل أقول لهم اليوم «بلدكم هنا لأنه يشجّع البحث العلمي ويسمح لكم بالتنوير». لقد أدركت الحالة التي صارت عليها الأغلبية التي عادت إلى أرض الوطن ووضعها، حسب المراسلة، إلى درجة عاد أكثرهم من حيث أتى.

(*) تحسب وحدات الأعداد الموجودة بالأعمدة الإحصائية التمثيلية بالملايين.

14

أي مستقبل للإسلام في أوربا ؟(*)

أريد، في البداية، أن أشكر المنظمين لهذا المؤتمر، الفرع المحلي في فالانسيا لنادي روما، والمركز الثقافي الإسلامي بـ «فالانسيا»، على دعوتهم اللطيفة.

إن روابطي بنادي روما عميقة، حيث إني كنت من أوائل الأعضاء فيه وأصغرهم منذ ثلاثين عاما مضت، مثلما كان لي الشرف لأن أكون أحد المؤلفين الثلاثة لثاني تقرير للنادي، التقرير الذي عرف نجاحا باهرا وترجم إلى 12 لغة، تحت عنوان : لا حدود للتعلم (1979). إن الحضور لـ «فالانسيا» ضيفاً على المركز الثقافي الإسلامي لهذه المدينة، يحمل دلالة تاريخية عميقة لدى كل مسلم.

إن جزءا كبيرا من بحثي يهتم بالدراسات المستقبلية، ففي عام 1990، ساعدت في الجزائر على تنظيم المؤتمر الأول حول «المستقبل الإسلامي - بالجمع» (Islamic Futures)، حيث دعي له علماء وأكاديميون مسلمون. لقد كان تمة إجماع تام خلال المؤتمر على، أن الإسلام بلغ أدنى مستوياته في التاريخ، لأنه ركز كثيرا على الماضي ولم يفتح عينيه على المستقبل. ومثل

(*) محاضرة بنادي روما (**الجمعية المستقلة بفالانسيا**) بتعاون مع المركز الثقافي الإسلامي لفالانسيا ، 15 شتنبر 2005. بكتابتكم «المنجرة + مستقبل» على المحرّك كُوكُل، سوف تحصلون على 700 نتيجة، زيادة على هذا، كنت رئيسا للمنظمة الدولية للدراسات المستقبلية ومجلة Futuribles International. يستحسن الإطلاع على الدراسة التي تحمل عنوان «مستقبل العالم الإسلامي».

Hp://www.elmandjra.org/Livre 1/b158htm1990

هذه الآراء تؤكد، في الواقع، التحديات التي ما تزال أمامنا، خاصة إذا ما صدرت عن علماء دين أجلاء مثل الغزالي (رحمه الله) والغنوشي والترابي والقرضاوي، وكثير آخرون. ولعل أول توضيح تم طرحه، هو أن الإسلام دين يولي عناية فائقة بـ «المستقبل»، الذي ينبغي التمييز بينه وبين الغيب (المجهول).

وهناك إجماع آخر، على أن أولى الأولويات بالنسبة للمستقبل، تكمن في محو الأمية والتخلص من الفقر، من خلال توزيع أكثر عدلا للثروات والموارد داخل البلد الواحد وبين البلدان فيما بينها ؛ ومن خلال استثمار أكبر في مجال البحث العلمي، إذا ما كان العالم الإسلامي يريد ألاّ يظل متخلفا وغير قادر على تحقيق أهدافه.

أي مستقبل للاسلام في أوربا ؟

كيف يمكن كشف العلاقة بين هذه المفردات الثلاث ؟ تلك هي المهمة الصعبة التي سأحاول أن أقوم بها. إنك حين تقوم ببحث على كلمة «إسلام» (باللاتينية) Islam من خلال محرك البحث «ڭوڭل» على الأنترنيت، ستعثر على 19.000.000 مدخل. وعندما تجمع كلمتي «إسلام» و«أوربا»، تحصل على 14.900.000 مرجع ؛ ولعل هذه الإشارات الكمية تدل على مدى اتساع الموضوع وضخامته. ذلك أنه في أقل من 15 عاما، سيصبح عدد المسلمين في الرقعة الجغرافية الأوربية 210 مليون نسمة، أي بنسبة 12% من مجموع السكان المسلمين في العالم.

منذ عهد قريب، ذكر فيلسوف فرنسي، أن الحروب القادمة، ستكون حروب الدلالات اللغوية (سيميائية). هذا يعني أنه حين يكون بإمكانك فرض المعنى الذي تختاره للكلمات ؛ فإنك تكون حينئذ قد كسبت مثل هذه الحروب. وعلامة الاستفهام الموجودة في آخر الجملة ليست زائدة. ما هي إذن الإيحاءات المختلفة لكلمة «إسلام»، في أوربا اليوم، في الخطاب الرسمي والإعلام ؟

في الدراسات المستقبلية، يظل المستقبل دائما مفتوحا على مصراعيه، وكذلك الإشكالية التي تهمنا في هذا المؤتمر، هي بدورها مفتوحة على كل

ـالات ؛ وكلمة إشكالية هنا (problématique)، كانت الكلمة
لـ أوريليو بيتشيي، المؤسس لنادي روما.

ـسلمين واعون تماما بمشكلاتهم وحلولها ؛ لكن المؤسف، هو أن
ـم من تحقيق التغييرات المطلوبة بشكل سلمي، هو تواطؤ مضلّل
قادتهم الفاسدين الذي لا يمثلون الشعب ؛ هؤلاء القادة الذين
جزءا من «نخبة» من الانتهازيين والمرتزقة، وهم مشتركون في ذلك
ـع حكومات الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

ـت في مناسبات عديدة، وأعيد اليوم ما قلته ؛ بأنه ليس ثمة قوة
ـها الاستعداد لأن تقبل بظهور أنظمة ديمقراطية حقيقية في العالم
إن مثل هذا التغيير، سوف يقضي على الامتيازات التي تمنحها
لفاسدة الحالية.

ـه الأمور لديها بالتأكيد علاقة مباشرة بـ «مستقبل المسلمين في
أعتقد أن مضامين هذا التحليل، لها صلة بمستقبل المسلمين في
ـ من أي تقييدات سياسية أوروبية محلية أو تشريعات جديدة، لا
ـر كل يوم للحد من الحقوق المدنية الأساسية للمسلمين وغير
ـ على السواء.

ـتاحية لصحيفة «لوموند» الفرنسية، في حديث عن «الإسلام
(L'Islam du juste milieu ؛ عند ذكرها للمؤسسة التي أنشئت
ـي المجلس الفرنسي للطائفة الإسلامية)، وصفت هذه المؤسسة
ـفروضة من أعلى - مؤقتا - مع مكتب، تم اختياره بشكل مشترك
(صحيفة «لومند»، باريس، 21 يونيو 2005) ؛ وكما هو ملاحظ
ـم تستطع أية آلية من الآليات التي لجأت إليها البلدان الأوربية لـ
ـسكان المسلمين أن تمثلهم حق التمثيل. كيف بإمكانك إذن
مقراطية بطرق غير ديمقراطية وتمييزية ؟ ولعل هذا يشبه بشكل
ـحدث في البلدان العربية نفسها.

Le، باريز 21 يونيو 2005.

- المسيحية : 2,1 مليار.
- الإسلام : 1,6 مليار.
- مدني - لا ديني - لا أدري (غنوصي) - مخلد : 1,1 مليار.
- الهندوسية : 900 مليون.
- الدين التقليدي - الصينين : 394 مليون.
- البوذية : 376 مليون.
- بدائي : 300 مليون.
- إفريقي تقليدي وجاليات : 100 مليون.
- السيخية : 23 مليون.
- الروحانية : 15 مليون.
- اليهودية : 14 مليون.

بداية، ينبغي أن لا ننسى أن العالم العربي يمثل 20 في المائة فقط من مجموع السكان المسلمين في العالم. لذا، فحاضر الإسلام ومستقبله معا في آسيا.

من الملاحظ أن مستوى الخصوبة العام لدى المسلمين يتجاوز معدله بقليل 3 أطفال للمرأة الواحدة، كما أن 30 في المائة من السكان المسلمين تقل أعمارهم عن 15 سنة. وبالمقارنة، فإن مستوى الخصوبة في أوربا الغربية يصل إلى 1,6، و1,7 في المائة فقط من السكان الذين تقل أعمارهم عن 15 عاما. ومن ثم، فالمشكل ليس في الكم، وإنما في الكيف عند مقارنة الهرم السكاني للأعمار. ولهذا، حسب الأمم المتحدة، فإن أوربا ستحتاج إلى 159 مليون مهاجر بين عامي 2000 و2025. فمن أين ستأتي بهم؟

ونعرض هنا التوزيع الحالي للمسلمين بالنسبة المئوية لمجموع السكان في بعض البلدان الأوربية[4]، بناء على ما جاء في صحيفة «دي إيكونوميست» (لندن، 3 أبريل 2003) :

- فرنسا (7 في المائة).

---

(4) المصدر : L'économiste 3 أبريل 2005.

- السويد (3,9 في المائة).
- ألمانيا (3,4 في المائة).
- بلجيكا (3,4 في المائة).
- بريطانيا (2,7 في المائة).
- هولندا (2 في المائة).
- الدانمارك (2 في المائة).
- النرويج (1,6 في المائة).
- إيطاليا (1,4 في المائة).
- إسبانيا (1,1 في المائة).

قبل ثلاثة أيام فقط، ذكرت اليومية الإسبانية (أ بي سي)، بتاريخ 12 سبتمبر 2005، في مقال بعنوان «ضغط إسلامنا»، يحيل إلى تقرير سري يشير إلى أن المسلمين سيمثلون أغلبية سكانية في مستعمرتي سبتة ومليلية قبل حلول عام 2010.

إن نزعات الهجرة إلى أوربا تشير في المقام الأول، إلى الاستياء الكبير الذي يشعر به هؤلاء النازحون عن بلدان فشلت في منحهم أدنى فرص الحياة الكريمة. وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها أو الاستخفاف بها. وعلى الرغم من ذلك، فهذه البلدان نفسها، هي التي تجد مساندة لأنظمتها الاجتماعية والاقتصادية في الغرب. وفيما يخص التحولات الكبرى للسكان المسلمين في العالم بحلول عام 2020 حسب الجهات، فهي كالتالي : (حساب التوقعات بالملايين) آسيا : 1010 ؛ إفريقيا : 510 ؛ أوربا : 210 ؛ أمريكا : 30.

أي دور لـ «تركيا» ؟

إذا ما أصبحت تركيا جزءا من أوربا، فسيكون علينا احتساب 70 مليون مسلم إضافي، سيصبحون 80 مليونا خلال عشرين عاما ؛ بحيث ستتجاوز عدد سكان ألمانيا التي تعد حاليا أكثر بلدان المجموعة الأوربية كثافة. فأين هي أوربا اللادينية (اللائكية) ؟ في عام 1959، أي عامين بعد توقيع معاهدة

روما، طلبت تركيا الانضمام للمجموعة الأوربية ؛ ثم أعادت الطلب ثانية عام 1987 ؛ وفي ديسمبر 1999، تمت المصادقة عليه في مؤتمر رؤساء الدول في هيلسنكي.

وبعد أربع سنوات، في دجنبر 2004، قرر أعضاء المجموعة الأوربية بدء المفاوضات حول عضوية تركيا. وذكر آنذاك الرئيس الفرنسي جاك شيراك والمستشار الألماني شرودر، بأنه قد يتم اتخاذ قرار في أفق سنة 2010. ولعل السبب الرئيسي لهذه التأجيلات والترددات، يكمن في الخوف من تأثير سكان تركيا المسلمين على تطور أوروبا. ومن تم، فهي مسألة قيم ثقافية اجتماعية. وفي هذا السياق، يقول ميشيل روكار، رئيس لجنة الثقافة في البرلمان الأوربي :

«إن لتركيا ما يمكن أن يرعب. فهي العالم الثالث، وهي الإسلام على بعد خطوة من الباب. إنها 66 مليون قاطن، أكثر بقليل من إنجلترا أو إيطاليا أو فرنسا. خلال ثلاثين عاما، سوف لن يكون تعدادها بعيدا عن 100 مليون، لتتعدى بذلك الكثافة السكانية لألمانيا التي تعد البلد الأول في الاتحاد الأوربي[5]».

والواقع أن الأتراك والجاليات التركية في بلدان أوربا الغربية، وكذلك كل المسلمين في أوربا، يعتبرون نتيجة هذه القضية مسألة حيوية ستؤثر على مستقبلهم وعلى التسامح المتبادل فيما بينهم.

الخوف من الإسلام :

قبل سنوات، دُعيتُ من قِبَل القناة التلفزية الفرنسية في يونيو 1980، إلى برنامج بعنوان «ملفات الشاشة»، خُصص لموضوع : «توقعات السنوات العشر لأعوام الثمانينيات» ؛ وحينذاك، ذكرت أن الغرب تقلقه ثلاثة هواجس:

---

(5) «تركيا : قول نعم مهم جدا» Le Monde 27 نونبر 2002. على أي حال كان عنوان المقال دفاعا عن انضمام تركيا أساسا لأسباب «جيواستراتيجية».

http://www-in nocence.org/pages/documents/rcaro.html

الكثافة السكانية والإسلام واليابان. وقد تغيرت الصورة قليلا اليوم، فيما يخص الكثافة السكانية، كما تحول الخوف من اليابان إلى الصين.

واليوم، بعد عشرة أعوام، أفضى هذا الهاجس إلى ما يسمى بالخوف من الإسلام (Islamophobie) وسياسة الحكم بالترهيب (phobiocracy) ؛ حيث أصبح الخوف، هو العامل الأساسي والمحرك لخطوات أصحاب القرار في العالم الغربي. ومع ذلك، فقد كان الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت، هو الذي أكد خلال الحرب العالمية الثانية، بأن «الشيء الوحيد الذي ينبغي أن نخاف منه هو الخوف نفسه».

وذكر تقرير Islamophobie «الخوف من الإسلام» (الصادر عن مركز الرصد الأوربي حول العنصرية وكراهية الأجانب)، أن التزايد الكبير في الهجمات العنيفة ضد المسلمين، حدثت في بريطانيا وهولندا والسويد ؛ وبشكل كبير في الدانمارك. ذلك أن عددا من النسوة المتحجبات «أُهِنّ بالسبّ والبصق والضرب وحتى الاغتصاب ؛ وذلك في موجة عارمة من الهجمات عبر أوربا ؛ مما تسبب في عدول الكثير من المسلمات عن ارتداء الحجاب في الأماكن العامة»[6].

وحسب الأرقام التي أحصتها المنظمات الإسلامية في بريطانيا، فإن نسبة الهجمات على مسلمي بريطانيا، منذ الحادي عشر من شتنبر، تجاوزت حاليا ما كان يحدث خلال عام واحد بـ 13 مرة. وحتى التشريعات الجديدة، التي تُسَنُّ اليوم في كل مكان من أوربا، زادت أكثر فأكثر من معاناة المسلمين ووضعت حدودا صارمة على حريات كل السكان.

ولتجنب الخوض في هذه الإشكاليات، سوف لن أركز كثيرا على الهجمات على الإسلام، التي يحرض عليها رجال الدولة والساسة في أوربا الغربية[7] ؛ ولن أذكر المؤلفين الذين أصبحت كتبهم بين عشية وضحاها

---

(6) فقرات من تقرير EUMC بين 11 شتنبر 2001 وأواخر دجنبر من نفس السنة.

(7) أثناء خطاب أذيع مباشرة من طرف الإذاعة الفرنسية للأخبار LCI، أن Philippe de Villiers، رئيس الحركة من أجل فرنسا أعلن ترشيحه للانتخابات الرئاسية لسنة 2007، وصرّح بـ : «برنامجي يهدف إلى منع انتشار الإسلام في فرنسا».

أكثر الكتب مبيعا، ولا حتى الصحافيين المرموقين الذين تحولوا إلى التخصص في التهجم على الإسلام ؛ لأن هذا لن يجدي نفعا، ولذلك سأركز فقط على بعض الأمثلة التوضيحية.

ذكر وزير الداخلية الفرنسي، في البلد الذي يشتمل على أكبر عدد من المسلمين على أرضه، أثناء مؤتمر عقد الأسبوع الماضي، بأن الحلول المطلوبة فيما يخص الإدماج (إدماج المسلمين في الشعب الفرنسي) هي :

«أن نساعد مسلمي فرنسا على بناء هوية خاصة بهم، في بلد يعتمد التقاليد اليهودية المسيحية، والتي هي متجذرة بعمق في اللادينية (اللائكية)».

وأورد هنا اقتباسا للتصريح الذي جاء به وزير العدل الإيطالي، في البلد الذي يضم ما يناهز المليون مسلم، وذلك في 18 شتنبر 2005 ؛ فأية عدالة يتوقعها مسلموا إيطاليا ؟

قام وزير العدل الإيطالي، روبرتو كاستيللي، بالهجوم على الإسلام أمس، مؤكدا في فينيسيا، نيابة عن الحزب (رابطة الشمال)، «أننا لسنا ضد الإسلام، ولكن الإسلام هو الذي نجده ضدنا ويريد أن يقمعنا... لكننا في نهاية المطاف، سننتصر عليه، لأن ضمير مدينة بادانو (مدينة الوزير كاستيللي) قد استيقظ، على حد قول النائب العام المتحمس. وفي نقده الحاد للإسلام، تبنى كاستيللي لهجة الحملات الصليبية واستحضر مشهد الحرب في ليبانتو في 7 أكتوبر 1571، حين هزم الأسطول العثماني من قبل الجيوش الإسبانية بقيادة الدول البابوية وجمهورية فينيسيا، التي كان يتزعمها الإسباني خوان دي أوستريا.

ومثل أي شخص عاش في الغرب أكثر من ثلاثين عاما (10 سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية و4 سنوات في بريطانيا و20 عاما في فرنسا)، بإمكاني أن أؤكد بكل ثقة، أن هناك تراجعا ملحوظا في المواقف تجاه المسلمين، الذين يعانون بشكل قاس من هذا التحول الجذري. لقد أثر هذا

المنحى الجديد على مستقبل المسلمين في أوربا، ولعله سيتطور إلى وضع أحسن، تسوده درجة أكبر من التفاهم والتسامح في المستقبل ؛ وذلك حتى يضمن للمسلمين قسط أدنى من الكرامة الإنسانية. وهذا لاشك سيستغرق وقتا.. وقتا طويلا ليتحقق.

ولحسن الحظ، فإن هناك أصواتا أوربية أخرى، مثل كين ليفينستن، عمدة مدينة لندن، الذي عارض بشدة، خلال اجتماع لكونغرس اتحاد التجارة، سياسات جورج بوش، التي خلقت ما يسمى بـ «صراع الحضارات» بين المسلمين والغرب، مضيفا أن نظامه من المحافظين الجدد اليمينيين قد فجر «صدمة حضارات». كما حذر أيضا من أن محاربة الإسلام، لن يزيد الحركات الإسلامية المتطرفة إلا قوة وصلابة.

الجراح العميقة للذاكرة الجماعية المسلمة :

- ملايين الضحايا الذين سقطوا في حروب التحرر من الاستعمار.

- آثار جراح الفلسطينيين في حربهم من أجل الحرية، كما هو الشأن للآلاف من ضحايا صبرا وشاتيلا. السلام على طريقة «كامب ديفيد»، التي لا تجدي ولن تجدي، كما لن تنفع المهزلات الإعلامية، مثلما شاهدناه في الأيام الأخيرة بخصوص ما سمي بـ «تحرير قطاع غزة»[8] التي حشد لها ما يناهز 6 آلاف شخص من منابر إعلامية مختلفة. ولا ينبغي أن ننسى الأعمال الوحشية اليومية التي تحيق بالفلسطينيين في كل «الأراضي المحتلة»، بما في ذلك القدس، ثاني أقدس مكان لدى المسلمين.

- بدأت الحرب عام 1991 ضد العراق، وسقط ضحيتها بشكل مباشر أو غير مباشر ما يقارب مليوني شخص.

(8) لقد وظّف هذا الحدث ما يقربُ من 6000 عامل من منابر إعلامية مختلفة.

- حرب أفغانستان وضحاياها الذين لا حصر لهم، بصرف النظر عن الانتخابات الوهمية و«الديمقراطية».

- الحرب في يوغوسلافيا السابقة ؛ حيث قتل فيها 10 آلاف شخص في سيبرنيكا وحدها.

- حرب تحرير الشيشان وضحاياها، الذين يصعب حصرهم، لكنهم يعدون بالآلاف.

ويمكن أن نذهب بعيدا في اللائحة.

إن ما يزيد على 10 ملايين مسلم، لقوا حتفهم خلال الـ 15 عاما الماضية بسبب الحروب «المصدرة» والنزاعات المدنية المختلفة. وبالمقارنة، يمكن أن نلاحظ أن العدد الإجمالي للضحايا لكل الحروب الصليبية، يقدر بحوالي 100 ألف.

سيستغرق الوقت أجيالا حتى تلتئم هذه الجراح وتتعافى. ليس من المبكر جدا البدء في التفكير في برامج تربوية من أجل الأجيال المقبلة في أوربا، لمساعدتها على تطوير موقف إيجابي تجاه بعضهم البعض.

إن أهم عامل يسر المصالحة بين فرنسا وألمانيا (ما بعد الحرب)، تمثل في الخطوة الشجاعة التي قام بها الجنرال دوكول والمستشار أديناور لإنشاء بعثات لإعادة النظر في الكتب المدرسية من أجل شطب التعابير التي توحي بـ «التعصب». وهذه الخطة، كان ينبغي اتباعها عاجلا أم آجلا بهدف التخفيف من الاستياء المتبادل فيما بين البلدين، وتربية أجيال جديدة أكثر تسامحا ؛ وذلك من خلال تواصل ثقافي أفضل.

التنوع والوحدة

الإسلام يدعو إلى التنوع الذي يفضي إلى الوحدة. وهذه القاعدة جاء ذكرها في القرآن الكريم : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى،

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الآية 13، سورة الحجرات)[9].

يتحدث القرآن الكريم عن «أهل الكتاب»، الذين أنزلت عليهم الكتب السماوية، من مسلمين ويهود ومسيحيين. ومن هنا، يتجلى تقبل الإسلام للتعدد الديني. وكما لا يخفى عليكم، فالقرآن لا يزال الكتاب الأول من حيث المبيعات في العالم، بناء على إحصائية لموقع بيع الكتب الإلكترونية (أمازون) على الأنترنيت.

إن لمسألة الولاء، صلة وثيقة بموضوعنا. ففي دراسة حديثة أجرتها المؤسسة الأمريكية (بيو)، تبين أن الولاء للإسلام في البلدان العربية، يتقدم على الوطن. وفيما يخص المغرب، على سبيل المثال، ثمة نسبة عالية من السكان (80 في المائة) تضع الإسلام في المقام الأول. هذا الولاء الذي يتعدى الحدود الجغرافية والاعلام الوطنية وحتى جوازت السفر، فهو في الحقيقة ما يقوي تماسك وحدة الإسلام.

فالإسلام ليس دينا فحسب ؛ فهو ـ أولا وقبل كل شيء ـ رؤية، ومشروع مجتمعي ونظام لقيم مجتمعية ثقافية. إنه نظام يدافع عن مبدإ التعددية الثقافية. وهذا أحد الأسباب التي ساهمت في نجاحه وسرعة انتشاره ؛ لأن الإسلام لم يدعُ أبدا إلى فرض نظام ثقافي متجانس.

إن التعددية، هي ما يمنح للوحدة معنى الوحدة، التي لا تستثني التسامح مع كل الثقافات. وقد لخص المهاتما غاندي هذه الفكرة قائلا : «أريد لكل ثقافات الأرض أن تهب عند بيتي، على قدر ما تستطيع من الحرية.. لكنني أرفض أن تنسفني أية واحدة منها».

يعرف كريكوري بيتسون، باحث مشهور في ميدان التواصل، معنى المعلومات، على أن «الاختلاف الذي يخلق اختلافا» و«الإدماج» من دون اعتبار للاختلافات يمكن أن يقود إلى الانشطار.

(9) القرآن 13:49.

دور القيم ووزنها

لقد أكدت دائما على دور القيم الثقافية كمقومات أساسية للتنمية. وخلال الهيأة الأولى للشمال ـ الجنوب، التي تمولها جمعية التنمية الدولية (SID) في روما في ماي 1978، قلت :

«ينبغي أن ننظر إلى مسألة نظم القيم، على أنها مادة ذات أولوية حتى نستطيع أن نبين بأن الأزمة الحالية بين الشمال والجنوب لا يمكن تجاوزها فقط من خلال وعود تعديلية. والواقع، أن الأزمة تؤثر على النظام بأكمله. وهكذا، فإن أي حل سيتطلب إعادة النظر في الأهداف والوظائف والبنيات. ويستدعي هذا كذلك، إعادة توزيع للقوة والثروات والموارد بحسب القيم والمعايير التي يجب أن تكون مختلفة عن تلك التي أدت إلى انهيار النظام الحالي»[10].

في 2 أكتوبر 1986، خلال مناظرة تلفزية مع جان كاك سيرفان شرايبر حول مستقبل التعاون الدولي، على القناة اليابانية إن إتش كي NHK، صرحت بأن «أسباب النزاعات المستقبلية ستكون ذات طبيعة ثقافية»[11].

قد بمقدورك تفجير المدن وتخريب المباني، لكنك لن تستطيع فعل ذلك بالقيم، التي هي أصلب العناصر في المكونات الاجتماعية الثقافية في كل المجتمعات.

---

(10) المهدي المنجرة «الجوانب السياسية للحوار شمال جنوب» ورقة عمل رقم 4، 10 مايو 1978، SID، روما.

(11) سبع سنوات من بعد، صمويل هلنتينغتن، كتب في موضوع تحت عنوان «صدام الحضارات» : «إنها فرضيتي التي تقر أن المصدر الأساسي للنزاع في هذا العالم الجديد لن يكون ذا طبيعة ايديولوجية أو اقتصادية. ستكون الانقسامات التي ستعرفها البشرية والمصدر المهيمن على النزاع ذا طبيعة ثقافية واصطدام الحضارات سيهيمن على السياسة العامة. والخطوط المتعارضة بين الحضارات ستكون خطوط المواجهة في المستقبل.

الحرب الحضارية الأولى

عند اندلاع الحرب ضد العراق سنة 1991، سُئلت من قبل الأسبوعية الألمانية «ديرشبيكل» ؛ وخلال هذا الاستجواب، تحدثت عن ذلك الاعتداء، على أنه «أول الحروب الحضارية»[12]. وكان هذا هو العنوان الذي اخترته للكتاب الذي ظهر في العام نفسه باللغتين العربية والفرنسية وبعد ذلك باليابانية[13].

وكما ذكرت سابقا، نشر صامويل هانتيغتن مقاله (1993) وكتابه «صدام الحضارات» (1997) ؛ حيث أشار إلى كتابي في جملته الأولى من فصله العاشر، حيث يقول : «وصف المفكر المغربي البارز، المهدي المنجرة، حرب الخليج المشتعلة، بأنها الحرب الحضارية الأولى». وهذه هي المرة الأولى التي يُستعمل فيها مفهوم «الحرب الحضارية الأولى». وأود أن أؤكد هنا على الاختلاف الكبير بين منطلقين اثنين : إن المفهوم عندي وقائي، بحيث يحذر من أن أغلب النزاعات المسلحة ستصبح، منذ اليوم، ثقافية بطبيعتها ؛ والحل الوحيد لتفادي مثل هذه الحروب، هو توفير جو أفضل من التواصل الثقافي. أما طرح هانتيغتن فهو وصفي، يحدد فيه بأن الحضارات غير اليهودية المسيحية هي مصدر كل الأخطار القادمة.

ويكفي أن نقول، إن تكاليف حرب العراق تجاوزت اليوم ما كلفته حرب فيتنام. فالبنتاغون الأمريكي يصرف ما يناهز 6 ملايين دولار شهريا على العمليات في العراق[14]. وما ذكرته سابقا من عدد الضحايا (مليوني قتيل منذ عام 1991) في تزايد مستمر كل يوم.

---

(12) Derspiegel، 15 فبراير 1991.

(13) الحرب الحضارية الأولى (دار النشر العيون الدارالبيضاء 1991) و première guerre civilisationnelle دار النشر توبقال الدار البيضاء 1999 والنسخة اليابانية نشرت عام 2000 (éd. Ochnomizou, Tokyo).

(14) اقرأ «Common center Dreams, News, center» نشر فاتح شتنبر 2005 من طرف Inter Press Service.

السمات البارزة للتخلف الحالي للعالم الإسلامي

من أهم أسباب تخلف العالم الإسلامي : الأمية والفقر والانعدام شبه الكامل للبحث العلمي والتغريب الثقافي والوضع المجحف للمرأة، والقيود الكبيرة في مجال حقوق الإنسان وحرية التعبير. هذه لائحة مثيرة للعوائق التي ينبغي تجاوزها في المستقبل القريب، والتي صارت اليوم تؤثر بشكل بالغ على صورة المسلمين في أوربا وفي كل مكان في العالم. ويمكن للمرء أن يتساءل أيضا حول عدد مثل تلك المعيقات التي يمكن تطبيقها على واقع الجالية المسلمة في أوربا.

إن مستويات الأمية في البلدان العربية، هي من أعلى المستويات في العالم. لذلك، فلا أمل للعالم الإسلامي في تحسين وضعه مستقبلا، إلا إذا توفرت لديه العزيمة على خوض حرب فعالة ضد الجهل.

والواقع، أن العالم الإسلامي لا يعرف الكثير عن نفسه (إلا من غيره) ؛ ذلك أن الفاتيكان، هو الذي نشر في بداية الثمانينيات أولى التقديرات حول حجم الكثافة السكانية للمسلمين، بناء على دراسة جند لها 600 شخص على مدى 10 سنوات في أكثر من 200 بلد ونقطة حدود. وأبدت التقديرات لأول مرة في التاريخ، أن عدد المسلمين تجاوز عدد المسيحيين (الكاثوليكيين) في العالم.

والأكيد، هو أن التاريخ الحديث للعالم الإسلامي ما يزال مستعمرا ؛ ذلك أنه لا يتحكم تماما في حاضره ؛ وحتى مستقبله، فإن جزءا كبيرا منه بات مرهونا. والحقيقة القاسية، هي أن العالم الإسلامي لم يتحكم بعد في قدره، ويتمتع باستقلال صوري فقط في كثير من المجالات.

الانعدام شبه التام للبحث العلمي

يتطلب البحث العلمي جوا أكاديميا مناسبا وأساساً تربويا ثابتا، إضافة إلى حرية تعبير حقيقية تولد الابتكار والإبداع. ولسوء الحظ، فالبحث

العلمي في العالم الإسلامي، يجري وراء المصلحة الزائفة والألقاب فقط، ونادرا ما يتوخى الاستثمار. ونتيجة لذلك، أخذت ظاهرة استنزاف العقول تتزايد بشكل كبير، ودفعت كثيرا من العلماء إلى الرحيل عن بلدانهم، إما بحثا عن فرص عمل أفضل، وإما فرارا من بيئتهم الأولى، التي لم تكن تساعد على الترقي في مهنهم وتحقيق الإشباع الذاتي وبلوغ النجاح.

خلال الندوة العلمية بالجزائر لعام 1990، حول موضوع حول «مستقبل الإسلام»، أكدت على الدور الأساسي للنساء وكتبت :

«أعتقد بشكل راسخ، أن وضع النساء هو أحد أكثر القضايا إلحاحا وتحديا بالنسبة لنا اليوم. لذا، ينبغي علينا أن نواجه هذا التحدي حالاً، ونبحث عن الحلول المناسبة، بالاعتماد على أنفسنا، وباستخدام مواردنا الخاصة، وبحشد كل القوات ذات النوايا الحسنة والإحجام عن فرض أية شروط على النساء، مغايرة لتلك التي تطلب من الرجال».

ثمة كلمة واحدة، تختزل ما يعاني منه الـ 1,6 مليار من المسلمين : الإهانة ؛ إهانة زعمائهم من قبل القوى الكبرى، وزعماؤهم يحولون بدورهم هذه الإهانة إلى شعوبهم[15].

استنزاف العقول

هناك تحول مهم في تشكيلة المهاجرين بشكل عام والجاليات من العالم العربي وإفريقيا بشكل خاص. ففي فرنسا، ارتفع عدد المهاجرين من أصحاب «المهن العلمية العليا»، الذين يمثلون 2,4 في المائة من مجموع المهاجرين، وذلك بنسبة 10 في المائة على مدى 20 عاما. وفيما يخص المغرب، فإن 20 في المائة من الجالية المغربية في الخارج أنهوا دراستهم الثانوية، مقارنة مع 10 في المائة من الذين يعيشون في المغرب.

(15) الإهانة (الدار البيضاء، 2003) الإهانة في عصر الميغّاامبريالية الدار البيضاء 2003.

والواقع أن استنزاف العقول (أي هجرة الأطر إلى الخارج)، يكلف العالم العربي 200 مليار دولار سنويا، حسب دراسة حديثة نشرها مركز الدراسات الاستراتيجية للخليج في الإمارات العربية المتحدة. ووفقا لما جاء في هذه الدراسة، فالبلدان الغربية تستفيد من 450 ألف عقل مهاجر، بينما لا يرجع سوى 4,5 في المائة من الطلاب العرب إلى البلدان التي تصرف ما يقل عن 0,2 في المائة على البحث العلمي.

وهكذا، فالعالم الإسلامي، يزود أوربا بباحثين من ذوي القدرات العالية، التي صرفت عليهم بلدانهم الأصلية أكثر بكثير مما تحصل عليه من «المساعدات على التنمية». فمن يساعد من ؟ إن المهاجرين الحاصلين على درجة عالية من التعليم في ميادين العلوم والهندسة وعلوم الحاسوب، نادرا ما يجدون صعوبة في الحصول على التأشيرة أو الأوراق الضرورية للعمل في أوربا.

خلاصة

إن المشكلة لا تكمن في «مستقبل الإسلام»، لأنه لا مشكلة له. فهو سيظل يزدهر كما كان لقرون، وكما تؤكد على ذلك كل المؤشرات السكانية ؛ لكن المقلق، هو «مستقبل المسلمين في أوربا»، فهو جزئيا في متناول أيديهم، إذا ما احترموا قوانين البلدان التي يقطنون فيها. أعتقد أنها ستكون مسيرة صعبة على المدى القريب، لاسيما أن صورة الديمقراطيات الغربية اهتزت كثيرا في أعين المسلمين في أوربا والعالم. فهل ثمة أسباب تجعلنا نتفاءل على المدى البعيد ؟ إن الله مع الصابرين.

لقد كتب روبرت فيسك مقالا في صحيفة «الإنديباندنت» تحت عنوان «فقدنا بَوْصلتنا الأخلاقية منذ زمن، فكيف نستطيع إذن أن نخطب على العالم الإسلامي ؟» هذا هو السؤال. مثلما كان سيقول شيكسبير. ولعل مشكلة الأخلاقيات (Ethics)، من أهم القضايا عند دراسة مسألة مستقبل الإسلام في أوربا.

وعلى سبيل الاستنتاج، أطرح عنصرا حيويا فيما يخص المستقبل، وهو إحصائية ثقافية، تتعلق بتقدير حول تطور اللغات المستعملة في العالم والمكانة التي تحظى بها لغة القرآن من بين تلك النزعات. فاللغات الخمس الأولى الأكثر استعمالا في العالم، هي الصينية والإنجليزية والهندية... الأردية، والإسبانية والعربية. وحسب التوقعات لعام 2050 للمجموعات العمرية المتراوحة بين 15 و24 سنة، ستكون التقديرات كما يلي بالملايين: الصينية (166)، الهندية، الأردية (74)، العربية (77)، الإنجليزية (65)، الإسبانية (63)، البرتغالية (33).

من عادتي أن أقول دائما في تفاؤل: «مادامت الحروب قد أصبحت هي التعبير عن الاستعلاء الثقافي، فإن الذل الثقافي، هو الإسم الجديد للسلام اليوم»[16].

هكذا، سيبقى التسامح المتبادل، حاضرا ومستقبلا، هو الحل من أجل البقاء.

(16) المنجرة: التواصل الثقافي: «التحدي الأساسي للمستقبل».

15

مغرب الغد
محدّد بأعمال وركود البارحة(*)

«إنني أعتز بعلاقاتي مع الشباب»
«المخزن الجديد ليس إلاّ صورة شاحبة للسابق»
«إنني لم أتعرف على العهد الجديد بعد»
«إنني أومن دائما بإمكانية الحوار بين الشمال والجنوب»
«إن الجدل حول المملكة ليس بجدل صوري»
«عبدو الشريف وإبراهيم بولامي... نماذج جيدة للشباب».

عثمان بومليف : استجواب الأستاذ المهدي المنجرة ليس بتمرين صحافي بسيط وعادي، بل هو من أصعب التمارين... عظمة الشخص، جرأة تصريحاته ووضوح رؤيته المستقبلية للأمور، تصنّفه ضمن المثقفين الأكثر مصداقية في أوساط الشباب. الأستاذ المنجرة لا يُراعي أبدا كلماته...؛ بالنسبة له مغرب الغد محدّد بجمود البارحة.

التقينا به فأدلى لنا بتصريح... تصريح حب لمدينة الدار البيضاء... la métropole، في اعتقاده، فقدت الكثير من جاذبيتها. أدعوكم لقراءة هذا الاستجواب الذي تكرّم به علينا.

ع بو : لقد منعتم من إلقاء محاضرتكم 7 مرات منذ 1999، والأخيرة هي تلك التي كانت ستلقى بتطوان... ألا تعتقدون أن المخزن شبه الجديد ليس إلا انبعاثاً للسابق ؟

(*) Le courrier de Casablanca, 11/09/2005.

م.م. : أولا، تهانئي ومتمنياتي الصادقة لموقع الدارالبيضاء ؛ أما بالنسبة «للمخزن الجديد»، والذي كان شيئا ما محور كتابي الأخير «الإهانة»، ما هو إلاّ صورة قريبة من القديم، لأن النظام في معظمه لم يتغيّر.

ع.يو : ألا ترون أن العهد الجديد ليس إلا شعاراً فارغاً من كل معنى ؟

م.م. : لم أعرفه بعد، حتى يمكن لي أن أتحدث عنه بواقعية.

ع.يو : إنكم من كبار الخبراء في مجال المستقبليات على المستوى العالمي ؛ والمغرب الرسمي يبدو بعيدا عن الديناميكية العالمية في هذا المجال. ألا تعتقدون أنه حان الوقت لإنشاء معهد للمستقبليات ؟

م.م. : نعم لقد آن الأوان، لقد قمت بمحاولة منذ ما يقرب من 25 سنة مع تأسيس الجمعية المغربية للمستقبليات (AMP)، والتي أنجزت مجموعة من الدراسات الجيدة والملائمة عندما نقرأها اليوم (انظر http://www.elmandjra.org/amp.htm).

وللأسف، ونظرا لأسباب يطول شرحها، فإن هذه الجمعية انطفأت تدريجيا. ومعهد للمستقبليات يتطلب عدة شروط، التي لا تتوفّر بالمغرب وإن كانت الكفاءات موجودة، فالمحيط غير مناسب.

ع.يو : وكاحتجاج على «صمت النخبة»، قرّرتم عدم تقديم جائزة تواصل شمال جنوب...؛ هل يعتقد الأستاذ المنجرة، أن الحوار شمال جنوب لازال ممكنا ؟

م.م. : إنني أومن دائما بإمكانية هذا الحوار، لكنه يبقى هدفا على المدى البعيد، ويتطلب تحولات جدية بالجنوب والشمال :

أ ـ بالجنوب لا توجد حكومات أكثر تمثيلية لشعوبهم ونخب أقل تبعية من الناحية الثقافية.

ب ـ يجب انتظار الشمال حتى يعترف بوجود منظومة قيم غير منظومته ويحترمها بجدية ؛ ولن تتحقق هذه الأمنيات غدا، لكن يجب العمل من أجلها ابتداءاً من اليوم، لأنها الطريق الوحيد المؤدية إلى سلام دائم.

عـ ب : لقد ظهرت نادية ياسين على الصحف هذا الصيف، وأثارت جدلا حول المملكة بالمغرب، ألا تعتقدون أنه جدل مفتعل ؟

م.م. : أي جدل يتعلق بمستقبل المؤسسات الوطنية، لا يمكن اعتباره «جدلا مزوّرا»، إنه جدل يتطلب انفتاحا فكريا حقيقيا، وتنوعا في الآراء وحرية في التعبير وكثيرا من التسامح من كلا الطرفين. إننا جد بعيدون.

عـ يو : عدد كبير من الجامعيين يدعون إلى قراءة جديدة للإسلام ؛ أين موقعكم منهم ؟

م.م. : لا موقع لي في جدل وهمي. إن الإسلام يقدم مناهج للمواكبة المستمرة، وهذه المناهج أصابها الركود منذ قرون ولازالت راكدة. لا يحتاج الإسلام إلى قراءة جديدة، وإنّما على الذين يشرحونه أن يرجعوا إلى المنابع التي تشجّع على مسايرة التطور العالمي وتسمح للمؤمنين باختيار المساهمة في هذه الممارسات. يجب أولا محاربة الأمية والجهل الذي تفرزه، وهو جهل تستغلّه جميع الأطراف لأسباب لا علاقة لها بالإسلام. لنبدأ بتطبيق أول أمر في أول سورة من القرآن ﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق...﴾.

لنجعل القراءة من أولوياتنا، قبل الحديث السطحي عن «القراءة من جديد».

عـ يو : weblogs، wikis، والوسائل الحديثة للنشر على الأنترنيت، توهمنا أنه لم تبق هناك حدود بين المنتجين والمستهلكين للمعلومة. يتفق عدد من المحللين على أننا أمام مفهوم جديد، وهو «إعلام الجماهير»، عوضاً وبدلاً من وسائل الأعلام ؛ ما رأيكم في هذا الطرح ؟

م.م. : نعم هذا صحيح، إن الأنترنيت يشجّع هذا التوجّه، وخصوصا عندما نعرف أنه يوجد تقريبا مليار من مستعملي الأنترنيت بالعالم، وأكثرهم متمركز بالدول المتقدّمة. إن شعوب العالم الثالث في أوضاع مختلفة، وهوة الإعلام تتسع بين الشمال والجنوب، كما هو الحال بين الأغنياء والفقراء في الجنوب.

ع.يو : إنكم من أولئك المثقفين المغاربة القلائل، الذين استطاعوا أن يحتفظوا بنوع من المصداقية عند الشباب ؛ ما هو السر وراء ذلك ؟

م.م. : تقوله أنت ؛ وإذا قلته فإن لك حججاً ؛ هل لي أن أعرفها ؟ أنا أعتز بعلاقاتي مع الشباب في قاعات المحاضرات، من خلال قراءاتهم لكتبي وزياراتهم المستمرة لموقعي على الأنترنت www.elmandjra.org (وعدد الزوار قريب من 400.000 حتى اليوم)، وعدد كبير عبر تبادل المراسلات الإلكترونية ؛ ليس هناك سر. يكفي أن تحترم نفسك وتبقى وفيا لمبادئك برفض جميع الإغراءات والانتهازية والنفعية مع الشجاعة للدفاع عنها كيفما كانت الحواجز. لقد احتفظت ربما بقليل من المصداقية، مقارنة مع الآخرين الذين فقدوها بسبب التناقضات في تصرفاتهم.

ع.يو : تعاني الساحة الثقافية من نوم عميق ؛ ما هو العمل المطلوب لإحياء العامل الثقافي بالمغرب ؟

م.م. : يجب أولا أن تكون لدينا رؤية استراتيجية وسياسية وحرية تعبير أكبر من الآن، كي نشجّع التجديد والخلق بتوفير قليل من الوسائل ؛ التي لا نتوفر على أي منها في الوقت الحاضر، نظرا لانعدام المسؤولية.

ع.يو : عندما اتصلنا بك لإجراء هذا الاستجواب، تبيّن لنا أنكم تكنون حبّا خاصا لهذه المدينة، ألا تعتقدون أنها فقدت كثيرا من جاذبيتها ؟

م.م. : دون الغرق في الحنين، سأقول بدون تردد، معك حق. هناك عدة أسباب لهذا التدهور. التفاوت المتزايد في الأجور، والفقر الذي يفرزه هذا التفاوت والمتجسد في الفوارق الكبيرة على مستوى البنيات التحتية

والإمكانيات المادية. نلمس أيضا لامبالاة البيضاويين اتجاه مدينتهم، وأعتقد أن نافذتكم ستعمل الكثير لاسترجاع الاهتمام والحب لهذه المدينة.

ع.يو : زيارة خاطفة لموقعكم، أفادتنا عن التقدير الكبير الذي تكنّه، لمغربيين من الجيل الجديد، عبدو الشريف وإبراهيم بولامي ؛ ماذا يمثلون بالنسبة إليك ؟

م.م. : إنهم يجسدون النجاح كحصيلة لمجهود متواصل وسلوك الاعتماد على النفس، إنه نجاح كمقصد لصيرورة مخطّطة ومحترمة بعزيمة قوية، إنه مثل جيد للشباب.

ع.يو : في كلمات مختصرة، ما رأيكم في المرحوم المهدي بن عبود ؟

م.م. : إنني مدين له، لأنه علّمني أن أقول «لا»، أن أدافع عن الكرامة وأن أجعلها ضمن أهدافي العليا في الحياة ؛ أما بالنسبة لرأيي فيه، فإنه بإمكانكم الرجوع إلى كتابي «الإهانة»، للإطلاع عليه في صفحات خصّصتها له (الإهانة 2004).

ع.يو : ما رأيكم في المرحوم المهدي ابن بركة ؟

م.م. : لقد تعرفت عليه بالخصوص في المنفى. لقد أدرك أن مشاكل العالم الثالث، كانت لها عدة قواسم مشتركة ؛ ولا يمكن حلّها إلا بتعاون كبير جنوب جنوب، لمحاربة بقايا الاستعمار. ولربّما كان هذا هو السبب لإقصائه. إنني أحيّي ذاكرة هذا الإنسان المناضل، والذي سنحتفي بالذكرى الأربعينية لاختفائه يوم 29 أكتوبر 2005 بباريز. ويمكن الرجوع إلى الفقرة المتعلقة به في كتابي «الإهانة».

ع.يو : وماذا عن عبد الرحمٰن اليوسفي ؟

م.م. : معرفتي باليوسفي، ترجع إلى سنة 1944 بثانوية ليوطي بالدارالبيضاء وبعد الاستقلال. رجل كنت أحترمه كثيرا. إنه مناضل على درجة من النزاهة

لا شك فيها، وكان بالنسبة إلي من أحبّائي الناذرين. إلى يومنا هذا، لازلت أتساءل كيف قبل بمنصب الوزير الأول. موقف حطّ من قدره في نفسي وفي نفس عدد كبير من الأشخاص.

ع يو : ماذا عن المرحوم علال الفاسي ؟

م.م. : إنه من كبار الشخصيات في التاريخ المعاصر المغربي والكفاح من أجل الاستقلال، ولقد كان محبوبا عند أي مغربي من جيلي، وخصوصا عند تحفّظه على معاهدة ايكس ليبان Aix les bains ومساندته لجيش التحرير. لقد كان أيضا رجل أدب وشعر ؛ وله خصال كثيرة... وهنا أيضا لم أفهم أبدا الدافع وراء قبوله بمنصب الوزارة بعد هذا المسار المجيد.

هناك ضغط قوي داخل الأحزاب السياسية.

ع يو : ماذا عن مغرب الغد ؟

م.م. : إنه محدد بأفعال وغياب الأفعال بالبارحة. أما ما بعد الغد، فإنه مليئ بالأمل، لأنه في يد الآخرين ؛ وآمل أن يأخذوا بعين الاعتبار أخطاء الماضي والتي ستنعكس على الغد.

ع يو : الأستاذ المنجرة باسم قراء بريد الدارالبيضاء نشكركم شكرا جزيلا.



II

القيم والخلق والإبداع

16

نحو ثقافة كونية جديدة(*)

في موضوع هذا اللقاء «الثقافة المغربية ومعنى الحداثة»، يكون من الطبيعي أن نتطرق إلى مفهوم الكونية الجديدة، انطلاقا من انشغالاتنا الذاتية عوض مثال أو مثل مجردة. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، يعاني العالم من تسارع الأحداث، الذي يقاس بوثيرة التغيير. ولقد رافق هذا التسارع، انفجار هائل في المعلومات، الذي زاده أهمية. بعض الاكتشافات في الفيزياء النووية والبيوكمياء وعلم الوراثة، قادت أحيانا إلى عواقب وخيمة.

إن أكبر ثورة ثقافية، ترجع إلى اليوم الذي تمكن فيه الإنسان من تدمير البشرية بأكملها في بضع ساعات. واليوم، فإن المخزون النووي كاف للقضاء على سبعة أضعاف سكان القارة الأرضية ؛ وهذا ما نسميه «بالقتل الفائض». إن الوظيفة الأولية للثقافة عادت ـ كما كانت في بداية التاريخ ـ لتصبح مهمة البقاء مع تفاوت أساسي. بقاء رجل الكهوف كان محدودا وخاصا ؛ أما بقاء رجل اليوم، فهو مرتبط بإشكالية كونية مع حملة جغرافية كونية.

وإذا اقتصرنا فقط على ضرورة البقاء بجميع الثقافات المعاصرة، فإننا سوف نكتشف وظيفة كونية إضافية.

لا أعتقد بوجود ثقافة كونية منسجمة، لأنها ستكون نهاية الثقافة ونهاية الكون. ما هو أكثر كونية فيما يخص الثقافة، هو التنوع وأولا التنوع داخل نفس الثقافة. لا توجد ثقافة مغربية موحدة ولا ثقافة عربية موحدة ولا ثقافة إسلامية موحدة. إننا نشعر بمقصد الثقافة عند مستوى الفرد. ويقاس هذا المقصد بدرجة الحرية التي يكسبها ويتمتع بها.

(*) الفيديرالية الوطنية للجمعيات الثقافية ؛ ملتقى الرباط 11-13 أكتوبر 1978.

ومفهوم الحرية بمعناه الكامل، يمتد من إشباع جميع الحاجيات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية، إلى التنوير الثقافي الفني والروحي.

إذا اعتبرنا التنوير كغاية، فإنه في معظمه كوني ؛ لكن لا معنى لمضمونه إلا على المستوى الفردي. والأثر على المستوى الاجتماعي، يظهر من خلال الفرد المقيّد بالمحيط السوسيوثقافي الذي يحيط به.

يطبع العالم تفاوتات كبيرة في توزيع خيرات ومحاسن الثقافة والعلم سواء على المستوى الوطني أو الدولي، كما يعرف اختلافات إيديولوجية وروحية. وعكس ما يظهر لنا، فإن فجوة التفاوت، تزداد اتساعا والخلافات الإيديولوجية التي تتظاهر بالانطفاء، لا تزداد إلا سوءا.

لا معنى للحديث عن ثقافة كونية مع 900 مليون أمي في العالم، وهو عدد في ازدياد سنويا، وما قضية الأمية إلا مثالا ؛ لأن القيمة الثقافية الكونية هي التضامن الروحي للإنسانية.

ومن المفيد أن نشير إلى السهولة التي نقبل بها مفهوم الموروث الثقافي الكوني، وفي نفس الوقت، إلى مدى محاربة كونية الإنسان. في الحالة الأولى، نقصد المنتوج وفي الثانية سبب الوجود. مفهوم الكونية في حد ذاته الاموضوعي.

إن التاريخ يبين، وعلم الاجتماع (منذ أكثر من 600 سنة مع ابن خلدون)، يبرهن، على أن «الكوني لا ينبع من الأقوى» ؛ إذن من الذي يفرض نفسه ؟ إننا نعاني اليوم - وأكثر من أي وقت مضى - من استعمار ثقافة أكثر عنفا وسوءا من جميع أنواع الاستعمار السياسي والاقتصادي التي عشناها حتى الساعة. وهذه الأشكال، ما هي في الواقع إلا خطة تمهيدية للاستعمار الثقافي.

إن تصريحاتي لا علاقة لها بالتعصب، ولكن كثيرون هم الذين يخدعهم الجانب الكوني للتقدم، العلم، التكنولوجيا والثقافة. وسأكون آخر من يتنكر لصلاحية هذا التقدم بالنسبة للبشرية جمعاء، نظرا لقناعاتي العميقة وإيماني بكونية الإنسان. ما احتج عليه، هو «تحويل» هذا التقدم. إن كل

آلية ثقافية التي تستحق اسما، هي قبل كل شيء، ظاهرة باطنية ؛ لأن التحويل السطحي عادة ما يؤدي إلى التقليد والتبعية.

لا توجد ثقافة بدون منظومة قيم. لن أرجع إلى المفاهيم الأولية للهوية والشرعية، لأنني أعلم أنهما الآن شعاران فارغان. ولن تظهر بوادر التنمية الحقيقية، إلا «إذا أصبح» العلم ثقافة حسب تعريف روني ماهو René Maheu المدير العام السابق لليونسكو.

إن الأمر لا يتعلق بمشكل بسيط للتشبيه، لكنه مشكل إدماج عناصر خارجية ناتجة عن الخلق والاستقلال الذاتي.

لقد كان بيكون يقول «المعرفة هي القوة»، لكن المهم في المعرفة، هو التفكير الذي سبقه. ما لم نول اهتماما كافيا في العالم الثالث للتفكير، فإننا سنكرس علميا التخلف. ذلك أن المعرفة وسيلة، لكن التفكير غاية.

هنا يكمن الفرق بين المعرفة والخبرة من جهة، والتقنوقراطية من جهة أخرى. ويكمن خطر التقنوقراطية، في كونها تهيمن على كل مكان لا تكون فيه الفكرة حاكمة، وتربط الغايات بالوسائل ؛ إنها مرحلة قمة الجهل. ويظهر هذا الوضع سلبي ومتشائم اتجاه تطوير ثقافة كونية جديدة. لذلك يجب التأكيد من قبل، على عدد من الشروط السياسية، الاقتصادية الاجتماعية، الفلسفية والروحية.

أعتقد أننا في المستقبل، سنتحدث عن الثقافة الشمولية والثقافة الصغيرة أو المحدودة. ستتكون الأولى من إرث يعتبر كونيا من طرف جميع الرجال والنساء في العالم ومن منابع جد متنوعة. ومعايير هذه الثقافات الشمولية، ستكون بقاء الجنس البشري، وتحدّي للتعقيد المتصاعد وشمولية المشاكل الحضارية مع تخلف مناهجنا التعليمية والتربوية، والتي لا تسمح لنا حاليا باستعمال أكثر من 10% من قدراتنا الذهنية. وفي كلمة موجزة، وكرد فعل ضد المادية الوحشية والتقنوقراطية المهيمنة ؛ لنسترجع قيمة البعد الروحي

للوجود. إن الكونية والتنوع متلازمان ؛ وبدون ثقافة دقيقة، لن تكون هناك ثقافة شمولية ؛ حيث تسمح هذه الأخيرة للفرد بالخيار وتجعل التواصل الثقافي في الصدارة.

ومن أجل خلق استراتيجية للبقاء والتمسك بالبعد الروحي للحياة، حيث يكون فيه منطق التضامن الإنساني من أسمى القيم ؛ لا يمكننا إلا السعي وراء ثقافة كونية، وهذه الأخيرة، تفتقد هذه الصفة بمجرّد ما تصبح مفروضة.

لا نروم الانغلاق، لأن الثقافة أولا انفتاح واعي، يغذيه تواصل خال من كل الضغوطات. إن الحداثة قبل كل شيء، هي إعادة قراءة دائمة للماضي في رؤية مستقبلية للتاريخ. وليست الحداثة بضاعة قائمة على المنتوجات المستوردة، ولا هي برخصة نشتريها أو نموذجا ننقله ؛ وإنما هي إبداع يتكيف مع التطوير، وهو ما نسميه بفن الحياة[*].

17

التقاسم هو الاغتناء

Lumière[*] : مشروع Lumière (لوميير) هو إحداث التحام جميع القيم التي تعلن حضارة الألفية الثالثة.

بصفتكم رئيسا للجمعية العالمية للدراسات المستقبلية، من المؤكد أن لكم أشياء مهمة في الموضوع.

المهدي المنجرة : إننا في معمعة التطور، ولازلنا نميل إلى تصور المستقبل انطلاقا من الماضي بطريقة خطيّة، وهو الخطأ الذي يجب تفاديه.

< من الأعداد الأخيرة، صدر لنا عددا تحت عنوان : «نحن، ورثة المستقبل» إن له دلالة. قد أخذنا المستقبل ضمنيا ونحن مقيَّدون بالإسقاطات التي رسمناها للغد. وللدخول في حضارة الألفية الثالثة، فإن مشاكل التربية والإعلام تتهيأ لاحتلال الصدارة. أول نقطة أساسية : يجب التفكير في الإنسان بصفة شمولية. وإذا لم نحسن هذا التصور، فإننا حتما سنفشل في المستقبل. لقد كانت جميع أشكال التعليم والتربية في الماضي أشكالا محدودة، متخصصة ومجسّدة لأنماط خاصة بالطبيعة البشرية. أعتقد أنكم تشاطرونني الرأي في شمولية تصور الإنسان ؟

المهدي المنجرة : إن الأمر يرجع إلي مفهوم المقصد، وهو بسيط جدا وقديم جدا، وخالد بقدر وجود الإنسان نفسه.

ليس التعلم إلا حلا من الحلول الأخرى للحصول على تحرير المفهوم، إنه دائم، ديناميكي ومتطور بالمقصد. في الحضارة الحالية، ضاعت

(*) Lumière : مجلة باريز فرنسا مارس 1981.

المقاصد، والتساؤل عن الباعث (سبب الأشياء) ؛ إنه أمر خطير، ونجرؤ في الوقت نفسه على الحديث عن التقدّم.

التقدم في نظري، أصبح فكرة متجاوزة. في الواقع، هو صمود ؛ لكن من أين وإلى أين ولماذا ؟ وماذا سيحمل لنا ؟

حتى في أيامنا هذه، هناك عديد من الفلاسفة، تنازلوا عن فكرة الارتقاء وعن منحى التقدم، وهذا الأخير لا يقاس فقط بالأعمال المُنجَزة.

كوننا نملك آلات مصغرة، هو تقدم في حد ذاته ؛ ولكنّه سطحي. إنه ملموس، لكنه لا يصبح تقدما حقيقيا، إلا إذا كانت لانعكاساته آثارا إيجابية على سلوك الأفراد ؛ تتجلى ببساطة في إسعادهم.

هل كون آلة أصغر عشرة مرات وأكثر إتقان من الآلة السابقة تسعدني أكثر ؟ هل تحمل لي جديدا ؟ هل تسمح لي بالتنوير، بتحسين الضحك بتحسين الحب، بتحسين الأكل، بتحسين التفكير وبتحسين تعاملي مع الآخرين، سواء منهم الرجال أو النساء على هذه البسيطة ؟ هكذا يجب أن يُفهم التقدم.

لكن عندما نقيسه بطريقة خارجية للإنسان نفسه، فإن هذا التقدم في نظري زائف. ولهذا، فإن التعلم يقدم مفتاحا داخليا للإنسان ويسمح له بالتخلي عن مفهوم التقدم، ربما حتى التطور لأنهما أصبحا بدون معنى. إنني أحبذ جميع التطورات التكنولوجية، وأولهما المعلوماتيات ؛ لكن عندما نجد الناس يتجهون فجأة إلى حضارة التواصل والإعلاميات عن بعد télématique، ورغم أنني شخصيا أتطوّر في هذا الإتجاه، فإنه لديَّ تحفظات ؛ لأننا نجد أنفسنا مندفعين فقط بعدم الثقة في أنفسنا بمحاولة تعويض القدرات الباطنية للإنسان وتصوره الفكري، وقلبه ونسبة تنفسه وطريقة مشيه بآلات أو أشياء مادية محضة، نفترض فيها تأمين السعادة لنا !

لكن، ستبقى دائما وأبدا آلات وأدوات ؛ لأن المهم يكمن في التحكم فيها وتطويعها بالتعلم. ولن يحدث هذا، إلا عن طريق داخلي وليس عن منتوجات، مهما بلغت براعتها، على المستوى التكنولوجي والصناعي أو الإقتصادي.

» تقرير البنك الدولي في شتنبر من هذه السنة (1981)، يؤكد على أن الأفكار الجديدة التي نقبلها كأفكار صالحة أخلاقيا، هي أيضا موثوقة اقتصاديا. إنها نقطة في غاية الأهمية. هناك أشخاص يتصورون الأوضاع بطريقة أكثر إنسانية : المثاليون.

والمثالي أقرب ما يكون من الحالم. مثلا لن نكلفه بمواجهة التحدي الاقتصادي العالمي ؛ بينما يبدو الآن أن هناك لقاء، نوع من الاقتران القوي بين كل ما يتعلق بالحياة الإنسانية للأشياء، انطلاقا من الفرد وتقدمه الشخصي من الداخل، وما يمكن أن يكون معاشا، والذي ستكون له مردودية في العالم الاقتصادي الذي نعيش فيه.

المهدي المنجرة : السيد Mac Namara في تقريره الأخير الأول للبنك الدولي، قال عن التنمية، أن بعض الأفكار، مثل الإستثمار في التعليم الابتدائي، والتي حكم عليها بالسخاء والمثالية والإحسان منذ سنين، تُعتبر اليوم ذات مردودية من الناحية الاقتصادية.

وهو أمر جيد، لكن يدعو للقلق. في الواقع تطلب الأمر بعض الوقت لإكتشاف أن مثل هذه الفكرة تزيد في الربح لكي يأخذ القرار أولئك الذين لهم الإمكانيات لتطبيقها. على عكس ذلك، تبين أن أولئك الذين سميناهم بالمثاليين، والذين كانوا بعد عشرين أو حتى ثلاثين سنة مضت، يعتقدون أن الاستثمار في الموارد البشرية، بات ضروريا للتنمية الشاملة ؛ لم يكونوا مثاليين، لكنهم أشخاص توقّعوا فشل النماذج الاقتصادية التي أصرًت على جهل العنصر البشري.

نحن الآن بصدد اكتشاف من جديد، وبعد عدة سنوات، أنه لا تنمية اقتصادية واجتماعية بدون العنصر البشري. وتطور المجتمع، يستوجب تنوير قدرات مكونات هذا المجتمع، والذي هو أولا كنز بشري ؛ أعني بذلك الموارد البشرية.

➢ تقول مرارا بأننا نرفض اكتشافه لأننا نخشى التربية.

المهدي المنجرة : إن أولياء الأمر، يخشون تبعات تعميم حقيقي للتربية. إذا كان مضمون هذه التربية يتطور حسب حاجيات إعادة توزيع عادل للثروات، فهذا سيؤدي إلى إعادة النظر في مناصب النخبة، مما يبرر تلك الحجة التي تتكرر على مسامعنا لصالح الانتقاء ؛ وهي حجة في نظري ليست فقط مزيفة، لكن غير صادقة.

يقال لنا «منذ بضعة سنين، ومع عدد حاملي الباكالوريا الحالي، بإمكاننا قبول هذا العدد بالجامعة. اليوم، لا يمكن للجامعة أن تستقبل هذا العدد. نحن مجبورون على تصفية وتوجيه الطلبة، للحد من الولوج إلى الجامعة بواسطة مباريات أو ما شابه ذلك...».

في الواقع، إن الأشخاص الذين يتقلدون المناصب الحساسة العليا يعلمون أن عدد المناصب الحكومية محدودا. ويعلمون خصوصا، أن إعادة توزيعهم، سيجعل البنية الاجتماعية برمتها محطة تساؤل، وأن الشيء الوحيد القادر على زعزعة البناء الاجتماعي والاقتصادي الحالي، على المستوى الوطني والدولي هو التربية. تخيلوا التغيير الكوني الفعلي، لو كان اليوم لـ 3900 مليون أو المليار من الأميين في العالم الثالث في مستوى البكالوريا أو الإجازة ؟

نريد اليوم التطرق إلى جميع القضايا من الزاوية الدولية : وهذا يتبث أننا لم نفهم شيئا، ونظن أننا لازلنا في الخمسينيات، وأن نموذج أوروبا الغربية السابق والولايات المتحدة، يمكن نقله في حالة شمال ـ جنوب ؛ إنه خطأ فادح. تصميم مارشال بالنسبة للعالم الثالث، سيعرقل تطوير هذا الأخير، لأنه سيثبط الناس عن الاعتماد الذاتي ويضعف قدراتهم الإنسانية. أنا لا أقول إلا شيئا واحدا : «علموا مليارا من الناس في العالم الثالث إلى مستوى مرتفع بالكفاية وستربحون كل شيء !».

بعضهم ارتبك عند احتمال تعميم التعليم، ويفترض أنه سيصبح من الصعب العثور على حمّال في محطة القطار، أو حارس أو كنّاس أو ما شابه ذلك...

إن الخوف قائم بسبب غياب الشجاعة لتصور مجتمع مغاير تطبعه المساواة. جميع مناهجنا التعليمية، تحُضّ الناس على التمسك والدفاع عن الهياكل الموجودة كوسيلة لبقائهم الشخصي. وإذا رفعنا في المستقبل هذا المجتمع إلى المستوى الذي يصبح فيه المرء مهما وأساسيا، فإن الوضع يستوجب تصور علاقات مغايرة تماما.

< لو بحثنا في حجم الأبحاث العلمية التي هي في طور الإنجاز، والثورات القائمة في البحث عن الدلالة البيولوجية، والإكتشافات الفضائية والثروات البحرية...، لا يمكن لنا أن نتخيل أن التحدي المعرفي الموجود في كل مكان، والحاجة للمعرفة، لا يدفع الملايير من سكان الأرض لمطالبة مزاياهما. المبدأ الأول إذن، هو معالجة معضلة الأمية. لكن ليست بالمشكل الوحيد. هناك تيار يرى النور : وهو الحاجة للمشاركة في جميع الأعمال الحالية والماضية التي أنجزها الإنسان في جميع القارات. ومن المؤكد أننا أمام تحدي أهم بكثير من التحدي الاقتصادي أو التحدي العالمي.

المهدي المنجرة : معك حق ؛ أكثر من هذا، إنني أعتقد أنه مع نظامنا التعليمي وبتصوره الحالي، فإن الارتفاع المتصاعد للمعرفة، يساعد على اتساع الهوة (تفاوتات متصاعدة) بين الطبقات الاجتماعية وبين الشعوب. المعارف البشرية الكاملة ستتضاعف في أقل من 10 سنوات، ويقال لك بحماس :

«انظر إلى المجتمع : لقد وصلت الحضارة الإنسانية إلى درجة، أنه في ظرف 10/8 سنوات على أقصى تقدير، ستتضاعف المعرفة المكتسبة منذ ظهور البشرية. إنه أمر مذهل».

لكن هناك سؤال لا نطرحه أبدا : هل رفعت الشعوب قدرتها على المشاركة في تطور هذه المعارف وتقاسم ثمراتها ؟ وعندما أقول : «تقاسم الثمرات»، فإنني أقصد الجانب المادي لإسعاد البشرية. وعندما أقول «تقاسم فائدة المعرفة»، أقصد المشاركة والوصول على مستوى التكوين الشخصي إلى تحسين معارف الفرد ومواكبتها. وبالطبع ففي هذه الحالة، فالجواب : لا.

هناك فجوة تصاعدية بين تطور هذا الكم من المعطيات من جهة، وقدرة جزء كبير من البشرية على الاستفادة منه والمشاركة فيه واستيعابه، وهضمه من جهة أخرى. ومن تم، تنشأ الفجوة الناتجة عن الفرق المتزايد بين القدرة على خلق المعارف والقدرة على التحكم فيها.

يقول Comelis Van Niel الحاصل على جائزة نوبل سنة 1985، بأن إنتاج الأدب العلمي سيفوق في ظرف سنة فقط، ما أنجز بين عصر النهضة وسنة 1976. لكن أين هو جمهور العلماء الذي سيستفيد من هذه المعرفة ويفهمها ويطورها ؟ إن النظام الحالي، نظام يشجع الهيكل العمودي للمعرفة، لكن مع ذلك سيزداد عدد الأشخاص المؤهلين لمستوى جائزة نوبل.

«إن السيد الذي يتقن معرفة كل شيء لهو المثالي اليوم. ومع ذلك فإن فكره يشكل كارثة عظمى ! (إنه شبيه بدكان بائع الخرداوات، إنها فقط بقايا وفضاعة)» Oscar wiole..

سيكون لديكم باحثين محنكين، يتوفر كل واحد منهم على رصيد هائل ؛ لكن أين هو تقسيم مزايا هذه المعرفة ؟ وأين هي التسهيلات الأفقية التي تسمح لسكان الحضيرة والقرية بالدول المتقدمة أو الدول النامية بالحصول عليها ؟

لا يكفي الجواب بأننا «نتوفر على أبناك للمعطيات التي ستتطور»، وهي في الحقيقة ليست إلا أدوات. علينا أن نعرف أنها موجودة. ويجب معرفة

الوصول إليها وكيفية مساءلتها. وهذا الأمر يتطلب تكوينا، ومعرفة لم نهيئ إليها الأجيال القادمة. لقد تم خلق فوارق متصاعدة بين طبقات المجتمع. وهي ليست بطوائف جديدة، لأنها كانت موجودة سابقا، إنها طوائف التقنوقراطيين الذين لا قلب ولا روح لهم.

➢ المشاركة، التضامن، كلمات ساخنة جدا، كلمات إنسانية تبرز الحاجة بالنسبة للناس إلى الشعور بعدم العزلة، وإدراك أن هذا الواجب الاجتماعي والمدني يمكن له في النهاية أن يصبح تبليدا جماعيا، شيء يوقظ نوع من المنطق والاعتماد على الآخر والتبعية ؛ ألا تعتقدون أنها طبيعة جديدة للإنسان الذي سيفقد حسه الجماعي ؟

المنجرة : سأقول، وبمنطق الإنسجام، أنه في ميدان التعلم، يجب تحويل النهائية في التظاهرات أو المباريات الرياضية الكبرى الدولية إلى حفل. لأنه في ميدان التعلم، نتوفر على عدد محدود جدا من المهنيين ؛ أما بقية العالم الممثل في المتفرجين الذين يتظاهرون، الذين يستحسنون، يُصَفِّقون ويصفّرون، يفهمون أو لا يفهمون ولا يعيشون الحدث، إلا من خلال العمل الذي يمر أمام أعينهم فوق الخشبة. يجب تحويل هذه الأمور إلى حفل بشري يشترك فيه الجميع، ولن يكون هناك متفرج ولا لاعب.

المشاركة بالمفهوم التربوي، هو أولا اقتسام ما لديك، بتطبيق فكرة تقديم قطعة من خبز لجائع يموت جوعا بجانبك وأنت تأكل. وإعطاء بذلة من ملابسك الفائضة لمن يشعر بالبرد. ويجب التوصل إلى تقوية هذا التضامن في المكان، مع المشاركة على مستوى التعلم.

إننا مستعدون لإنجازه مع أبناك المعطيات. ولقد تعلمت الناس أن تقبله عن طريق التصور، لأنه شيء ميكانيكي تقوم بإنجازه الآلات وانطلاقا من الوثائق ؛ لكن نرفض نقل مفهوم التقاسم على مستوى المعارف. بالنسبة إلي، كقادم من العالم الثالث، كلمة التشارك لها دلالات أكثر خصوصية وممارسة.

عندما نسمع «تقاسم»، أُفكر في الطريقة التي حصلت بها على البكالوريا والإجازة والدكتورة وبالنفقات التي تَحَمَّلَها بلدي من أجلي، وأولئك الذين تكلفوا بالدفع من أجل أشخاص قلائل تمتعوا بهذه المزية وهذه النعمة لتتبع هذه المسيرة.

يمكنني القول، إنه سيكون من البديهي، لو أثناء مراحل التكوين، طلبنا من كل طالب، كشرط حصوله على الباكالوريا، أن يقوم بمحاربة أمية 5 و6 أشخاص، وعشرة قبل إحرازه على الإجازة، وهكذا دواليك... ؛ ستكون وسيلة في مساهمة هذا الطالب، نظرا لوضعه المالي الذي لا يسمح إليه بدفع ضرائب، ولكن باستطاعته تقاسم معارفه.

أؤكد لكم، أنه من الناحية البيداغوجية، فإن الطالب الذي سيحارب أمية 5 أشخاص، سيساوي قيمة عشرة طلبة ؛ لأنه سينتقل من مرحلة التعلّم إلى مرحلة التعليم. وهذا سيساعده كثيرا في مسيرته الجامعية. أعتقد أن فكرتي هذه واضحة وعملية ؛ فعلى مستوى التعلّم، فإن هذا الاقتراح له مزية عظيمة. على مستوى الواقع فإننا عندما نتقاسم ملابسنا أو غذاءنا أو مالنا، فسوف يقل رصيدنا ؛ لكن عندما يتعلق الأمر بالتعلم أو المعرفة، كلما تقاسمنا ازددنا تنويرا.

> إنه التقاسم ذو معنيين : منطق التقاسم الديناميكي والزيادة، كما أن «التعلّم» يمكن أن يدل على المعرفة أو يجمعها أو يبلغها. تحدثت سابقا عن المنحى المتزايد، وازدياد المعرفة. نشعر وكأننا في اتجاه لا متناهي ونتوقع نوع من التخمة. لكن يتبين لنا في ذلك الوقت، أنه على العكس، كلما ازدادت المعرفة بسرعة فتحت آفاقا هائلة. والميادين التي سنورط فيها هذه الجماهير الأمية على وشك الإستيقاظ، تثبت على أن طلب العلم لا نهاية له على الإطلاق. لقد توصلنا إلى مقياس الازدياد المتواصل للمعرفة، قوة المعرفة. وهذا الأمر لا يخفى على أحد. لكن في نفس الوقت، هناك كتلة من الناس ستمر حتما من الجانب الآخر، جانب كله غموض.

سندخل في ميدان مجهول، ميدان مجموع المعارف البشرية جمعاء، والتي ستوحي بشيء، ظل مجهولا بالتمام في العصور الماضية، عصر القرون الوسطى الدائمة التي كوّنتنا.

المهدي المنجرة : حقا، إنني أعتقد أن نموذج الآلة مهم جدا. تخيل آلة تنتج نوعا من الطاقة ؛ وبمفهوم المردودية أو المصداقية، هناك عاملان يتدخّلان ؛ الأول، هو كيفية توزيع هذه الطاقة في فترة تكوينها - خطر انفجار الآلة في حالة تمركزها بمكان واحد، أو تصبح غير نافعة لو في ساعة خروجها لم تُلتقط وتوزّع بطريقة فعّالة. والعامل الثاني الذي له دخل في المسألة، هو معرفة فعالية ومقصد هذه الطاقة بعد إنتاجها.

وبهذه الطريقة يفكر المهندسون، وبهذا المنطق، يتم تسيير المعامل وتقييم المردودية.

لو أخذنا هذا النموذج وقدرنا أن المعرفة كالمعلومة، تشكلان طاقات قادرة على تغيير الأشياء أو حل المشاكل، أو تحويل وضع من حالة لأخرى، ولو طبقنا قوانين الدينامية على الطريقة التي تتطور وتتوزع بها المعرفة وعلى المقاصد التي نستعمل من أجلها هذه المعرفة ؛ سندرك مباشرة أنه لا يمكن البقاء لأي آلة من هذا القبيل، كما أنه لا يمكن لأي آلة أن تحضى بالمصداقية التي صارت على نهج النموذج الإنساني الحالي، وهو مثال للتبذير الكلي. في الواقع، فإن المعارف لا تحضى بتوزيع منسجم ومتساو، ومردودية استعمالها غير معقولة، لأنها لا تخدم إلا فئة قليلة من البشر، سواء في الدول المتقدمة أو النامية. والمنحى المتزايد للمعارف لا يسعى إلا لتطور المعارف لصالح تطوير المعارف، باستثناء بعض التطبيقات العملية من حين لآخر. في الواقع، الغاية القصوى من تطور العلم، يجب أن تشابه تلك الغاية التي كانت موجودة عند صنع الآلة. ذلك أنه في كل نظام ديناميكي يوجد حتما مقصدا.

تدور الآلة لسبب معين، وفي غياب هذا السبب، لن تدور. كلّ نظام يحدد أولا حسب «مقصده» ؛ والسبب الرئيسي للفجوة الإنسانية، هو أن تطور هذه الطاقة وهذه المعارف، لا يطابق قدرتنا على التحكم فيه أو تحديد شيء معين، اجتماعيا وإنسانيا ؛ إذ يساوي آلة تدور في الفراغ وتستمر في إنتاج طاقتها - ولكن بدون فعالية - ولو أن هذه الآلة شاركت في صناعة معينة، باستطاعتها أن تساهم في إفلاسها.

نحن على وشك الإفلاس، بسبب الطريقة التي نرى بها من خلال هذه الآلة المعارف، التي تنطلق وتدور في الفراغ دون أن تستفيد منها البشرية جمعاء، ودون أن تقدم لها المشاكل الكبرى التي تواجهنا كلها، والتي تصبح أكثر تعقيدا، عوض التبسيط على نفس الوثيرة دون قيد لتقدم العلم.

> يبدو أنكم تثيرون مشكل سبب الوجود الإنساني كله ! ما هي دلالة الطبيعية البشرية ؟ إن آليات التقدم وميكانزمات الحضارة لم تتفضل بتحديد أهدافها وألقت بنفسها في متاهات تبعدها بتزايد...

المهدي المنجرة : في تاريخ الإنسانية، ساعدت أساساً المعرفة دائما على تحسين حياة الإنسان. لقد اكتشفنا النار وقاية من البرد والأسلحة (البدائية) حماية من الآخر. قمنا ببناء منازل لمواجهة ظروف الطقس الصعبة. كما أنجزنا الطرقات لتواصل أفضل والحصول على الغذاء أو للتواصل مع الآخرين، وهكذا دواليك. لكن كان دائما هناك مقصدا. بينما اليوم، كثيرون هم الأشخاص الذين يعتقدون أن حتى طرح هذا السؤال ليس فقط بالنافع، ولكن غير مطابق لتطور المعارف والعلم من أجل فن العلم. أنا لست من أولئك الذين يؤمنون بالعلم من أجل العلم.

> إنها موازاة الفن من أجل الفن، إذن هناك غاب للمعنى.

المهدي المنجرة : أتمنى أن يكون الفن من أجل الفن، لأنّه في نظري الحياة فن. لكل واحد منا فنه في الحياة، ويمكن لي أن أتصوّر جيّدا الفن من أجل فن للحياة، لكن العلم من أجل العلم بدون فن، يتعارض مع أسمى أهداف العلم.

18

الإبتكارات التقنية والقيم الإنسانية(*)

يستحسن أن نمهد لعرضنا هذا بتوضيح مقتضب جدا للعلاقة القائمة بين العلم والتقنية، فالتقنية ابنة للعلم ؛ لكن القطاع الواسع من الناس لا يدرك العلم إلا من خلال التقنية، مما يمكننا من أن نؤكد أن العالم، وبصفة عامة، يعاني من "أمية علمية" و"نصف أمية تقنية"، ذلك أن قلة قليلة من الناس تعايش يوميا العلم ؛ بينما الأغلبية الساحقة منا معرضة يوميا لمنتوجات التقنية التي أضحت الوسيط بين العلم والحياة اليومية.

الشرط الأول : طرق التربية والتعليم :

يقصد بالتجديد بصفة عامة، القطيعة التي تحصل مع ما هو موجود، أو التطور حسب خط جديد من إبداع الخيال وإعادة رسم المخططات القائمة أو تعويضها بمنظومات جديدة.

ولا يمكن لأحد أن ينكر تأثير التجديد التقني على القيم الإنسانية، لكن الخلاف يبدأ حينما يتعلق الأمر بتحديد كيفية هذا التأثير وطرق ملاحظته ووصفه وقياسه في الزمان والمكان. وبينما يؤكد البعض على أن تأثير التطورات التقنية في القيم، يتم بشكل مباشر، يرى آخرون أن هذا التأثير غير مباشر. بحيث يمكننا أن نتساءل هل تتناقض مبتكرات التقنية مع سلم

(*) محاضرة دولية حول «القيم الإنسانية». المعهد الياباني لتقدّم البحث (NIRA) TSUKUBA، اليابان يناير 1983. ErRai رقم 17,221 يونيوه 1983 تونس ؛ الأكاديمية رقم 1، 1984 الرباط المغرب ؛ Temasعرب، المنظمة العربية تونس دجنبر 1987.

القيم من حيث الأهداف ؟ ذلك أن الابتكار، كما يدل عليه إسمه، يعني التغيير، في حين تنحصر مهمة القيم في التركيز والمحافظة على أنماط الحياة وأنواع السلوك. لذا تعتمد منظومات القيم على "الطرق التربوية" التي نعتها (نادي روما) في تقريره "التعلم المستمر" بـ "تعلم التكرار". فالملاحظ أن طرق التربية الحالية السائدة في العالم، تشكل مانعا للابداع وحاجزا خطيرا لانطلاق الخيال الخلاق. ولا يمكن بالتالي، تحطيم احتكار القلة للابتكار التقني، دون تغيير طرق التربية بإنشاد "التعلم الابداعي"، لكن هذا ليس دعوة لهدم القيم الموجودة ؛ بل مطالبة بمحاربة المنطق السكوني الثابت الذي يكبلها. إن الوجاهة والمعقولية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعلم والتقنية للقيم، مشروطة بمدى حركيتها وقدرتها على تقديم الحلول لمشاكل الساعة، بل والتصدي لتلك التي تلوح في الأفق. ولقد كان هذا هو دور "الاجتهاد" طيلة عصر الابداع في الحضارة الإسلامية، وكان اغلاق بابه فاتحة عصر "التقليد"، أي عصر التكرار الذي لا يسمح بالتجديد ولا يترك له مجالا.

زمن القيم، وزمن...

نلاحظ اليوم في العالم تقلصا مزدوجا : في مجال المكان، وفي مجال الزمن، والتقنية تقوم الآن بإنشاد حيزها المكاني الخاص باستقلال عن العلم. وبذلك، تبتعد التقنية شيئا فشيئا عن القيم الإنسانية. من ذلك ما يؤكده بعض الأخصائيين في مجالات الآلية والذكاد الاصطناعي والتقنية الاحيائية، من أن تقنياتهم قادرة على توليد تقنيات أخرى دون المرور بالعلم.

أما عامل الزمن، وهو خميرة القيم الإنسانية ؛ فإن Jean LADRIERE يقول فيه : "إن اضطراب مفهوم الزمن، سيؤدي حتما إلى خلل مقابل في المنظومات الثقافية، وذلك بهدمه للتماسك القائم. فمفهوم الزمن القائم حاليا في البحث العلمي والمشاريع التقنية، يساهم في هدم النظم الثقافية التقليدية المؤسسة على مفهوم آخر للزمن"[1] ولقد ربط برجسون في كتابه

---

(1) Jean Ladrière رهانات العقلانية باريز 1977.

التطور المبدع بين الزمن والابتكار واختراع الأشكال والإنشاء المستمر لما هو جديد مطلقا.

وهناك مفهومان آخران يسود حولهما غموض، إذا ما تعرضنا لموضوعنا هذا بالتحليل، وهما : "حياد العلم والتقنية" و"عالميتهما"، وتساعدنا القيم على إدراك صحة هذين التصورين من حيث المبدأ، وزيفهما من حيث الواقع المعاش. ولقد برهن ايليا بريغوجين، الحاصل على جائزة نوبل للفيزياء، في كتابه «La Nouvelle Alliance»[2] على مدى تكييف الثقافة ومنظومة القيم لتطور محتوى النظريات العلمية ولتطبيقاتها التقنية ؛ بحيث لا يمكن اعتبار العلم والتقنية حياديين تماما، لأنهما يتأثران بالقيم الاجتماعية الثقافية المرتبطة بها. يقول ايليا بريغوجين : "إننا نطالب بتخلي العلم عن حياد آخر، إنه الحياد الثقافي. فمن الأكيد، أن يعترف العلم بنفسه كجزء لا يتجزأ من الثقافة التي يتطور فيها". ثم يضيف : "نرى أن علومنا ستنفتح على ما هو كوني، عندما تتخلى عن دعواها بأنها غريبة عن مشاغل وتساؤلات المجتمعات التي تعيش وتتطور فيها، وعندما تصبح قادرة على إجراء حوار مع الطبيعة ومع البشر الذين تتمكن من احترام مشاغلهم"[3].

الغطرسة الثقافية والتقنية

تكمن هنا قضية "مركزية الحضارة"، فلقد كانت من بين سلبيات التجديد التقني، ترسيخ الغطرسة الثقافية.

وإن كانت هذه الظاهرة لا تعد خطأ مباشرا للتقنية في ذاتها، فإن هذه الأخيرة، أضحت عاملا مؤثرا وسلاحا في يد النظام الاقتصادي، أي وبعبارة أوضح، أصبحت أداة سلطة وسيطرة. ومن جهة أخرى، فإن الابتكار التقني قلما يهتم بالغائية، فهاجسه هو الإجابة عن سؤال كيف ؟ لا عن سؤال لماذا ؟

Ilya Prigogine et Fsabelle Seghers, La Nouvelle Alliance, Gallimard, Paris, 1979 (2)

Ibid., p. 23 (3)

والاهتمامات الاجتماعية هي الأخرى، لا تشكل أول التوجهات ؛ وإلا كيف نشرح، حوالي ثلثي الطاقة البشرية والمالية في القطاعين العلمي والتقني، موجهتان لغايات عسكرية ؛ بل إن حتى ما نجنيه من تقدم في حياتنا اليومية (مواصلات، اعلامية، طيران...)، ليس إلا من نتائج البحث في المجال العسكري.

وهنا تبرز قضية القيم بشكل واضح ومقلق : العدالة الاجتماعية، الحرية، الهوية الثقافية، التنوع الثقافي، الكرامة الإنسانية ؛ قضايا وإن كانت حاضرة في أذهان الباحثين المجددين، لا تشكل مؤثرات سياسية اقتصادية، وتبقى في حدود المشاكل المعنوية الأخلاقية.

ونعود مرة أخرى لقضية التربية، لنبرز الحاجز المتزايد العمق، بين سرعة الابتكارات التقنية وبطء التجديد على المستويين الاجتماعي والثقافي.

ولكن بالرغم من ذلك، فإن التجديد والابتكار التقنيان، يمثلان قوة تقدم ؛ لأنهما يعتمدان على البحث العلمي والابداع والخلق. والسؤال المطروح من اختصاص المجال القيمي (لا المجال النفسي) وهو : كم يبلغ عدد المستفيدين من هذه الابتكارات على الكرة الأرضية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال، لن تتم إلا عبر تجديد اجتماعي وإعادة ضبط ديناميكي للقيم الإنسانية ؛ وهو الأمر الذي تم أكثر من مرة خلال التحولات الكبيرة في تاريخ البشرية.

19

تكنولوجيا اليومي
نظرة أخرى(*)

إبداء «نظرة أخرى» بالنسبة لنظرات أخرى، ذات تنوع كبير ومحفّز ؛ تتطلب أوّلا بعض التوضيح. «أخرى» بالنسبة لمن ؟ ولماذا ؟ عندما طلبوا مني هذه المساهمة، كان المسؤولون على هذا العمل يتمنّون إعطاء «نظرة أجنبية» لقراء معظمهم فرنسيين وأوربيين لتنويع معالجة موضوع : «الحياة اليومية والتقنيات».

أولئك الذين شرّفوني بإشراكي في التفكير، منحوني الحرية الكاملة لتقديم هذه النظرة الأخرى. وهذه الفسحة تعقّد عملي، وترغمني على تحديد المرجعية لهذا التصور الآخر، والذي ليس في نظري، «بالأجنبي» ؛ لكن تعطى الحرية لكل فرد في بعد التصور. وسأنطلق من منظومة القيم الناجمة في جملتها عن هوية ثقافية خاصة بمنطقة جغرافية معينة، والمشاكل والانشغالات التي تطبعها بتنوع أكيد، لكنه تنوّع يستجيب أُنموذج أو ألغوريتم Algorithme منسجم، وهو ألغوريتم الثقافة.

وعند إقرار الأمر، سأقول كسارتر، بأن «الآخر ضروري لوجودي». وهذا بالضبط هو مرجعي الحقيقي، لأنني أعتقد أن التواصل الثقافي اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، يشكل الشرط الأول للبقاء البشري. وإذا صحّ أن سارتر، كتب أيضا «جهنّم، هي الآخرين»[1] في مسرحية «Huit clos»، فهو

(*) التكنلوجيات اليومية : رثاء التقدم، رقم 3 باريز، مارس 1992.

(1) النص قيل، سنة 1965 من طرف سارتر في مقدمة التسجيل الفتوغرافي لمسرحية «Huit clos».

بذلك، يعني الخوف والقلق، الذي يثيره «الآخرون»، والمرور العادي من المفرد إلى الجمع لهذا المفهوم «للآخر»، ينتج تغييرا جذريا في تصور الآخرين. إن أحد التحديات للتواصل الثقافي بين الناس والمجموعات أو الطوائف، هو تعلم كيفية تجاوز هذا التناقض بين السلوكات تجاه الآخر بداخل منظومة القيم من جهة، واتجاه الآخرين من جهة أخرى. إنه امتحان حقيقي للتسامح : خصلة إنسانية، والتي لا وجود لها إلا عندما تصبح نتيجة تبادل مَبْني على الاحترام المتبادل.

هناك عجز تقني في الآليات الحضارية، لأن حياتنا اليومية يزداد فيها تحكم تكنولوجيات التواصل، ولكن بطريقة أتوماتيكية ؛ والتي هي في حد ذاتها حجّةً لغياب التواصل والحوار مع الآخر والآخرين. في مجتمع معين كما لاحظ إيڤان إليش Ivan Ilitch في دراسة حول مدينة كندية، فإن تطور التواصل بين الأشخاص، لم يكن متساويا مع تطور تقنيات التواصل (الهاتف، الراديو، التلفزة، النقل، المعلوماتيات، التكنلوجيا الفضائية...) ؛ إذ قيل إن العالم «تقزّم» بسبب هذه التقنيات الجديدة. فهل هذا التقزّم حقيقي وله دلالة ؟ ما هي انعكاساته على هؤلاء والآخرين في الحياة اليومية وفي العلاقات الثقافية بين الأشخاص ؟ وهل يُنظر له ويعاش بنفس الطريقة في الشمال والجنوب ؟

الحياة اليومية في الجنوب

بالنسبة للجماهير الساحقة، أكثر من 80% من شعوب هذا الكوكب، من الذين يعيشون في العالم الثالث أو دول الجنوب، أي الآخرين ؛ وأن «التقنيات اليومية» المستوردة، هي التي تحتل الصدارة للبقاء ومحاربة الفقر والجوع والمرض والجهل والتفاوتات والظلم واستغلال النفوذ المحلي والتدخل الخارجي والحروب المُصَدَّرة. كثرة التحاليل الخارجية وحتى الداخلية، تحول هذه «التقنيات للبقاء»، إلى سلوكات يسيطر عليها الاستسلام والإيمان بالقدر، وسلوكات تجعل الحاجيات الأساسية للعيش اليومي، تقضي على فرص التفكير في أهداف المجتمع ومُستقبله.

ومثل هذا الاختزال ليس فقط بالبدائي، لكنه يجرّد هؤلاء الناس من ثروتهم الثمينة ـ وهي الكرامة ـ ويحرمهم من معنى التاريخ ومن التراكم ومن نقل القيم. إن الكرامة الإنسانية والقيم في الواقع، هي المفاتيح الأكثر فعّالية لفهم تقنيات البقاء. وأنماط التطور المستورَدة، والبرامج المزعومة للمساعدة التقنية، فشِلت كلُّها ؛ لأنها غفِلت هذا المعطى الأساسي للكرامة، والذي ليس إلاّ مرحلة تمهيدية للحرية. إن الكرامة والتعطش للحرية، جزءان من الإرث الثقافي الجيني للجنس البشري. وعلينا أن نتذكّر أن الصعوبات الكبيرة اليومية في دول الجنوب، لا يجب أن تنسينا أن هذه المشاكل ناجمة عن السياسات التي لم تأخذ في الحسبان هذا النقد الإنساني وقيمه ؛ إذ حضرت وصفات مثل الوجبات السريعة لتنمية «جاهزة».

ومن غريب الصدف، أن الإنسانية تتوفر اليوم على معارف وتقنيات، كما لها أيضا موارد مادية وبشرية كثيرة، لتجاوز هذا الوضع المزري وإعادة التوازن وتقويم الخلل. تقنيات البقاء تُحارب يوميا تقنيات اللامساواة والتي تتحسن فعاليتها يوما بعد يوم.أما النظرة الأخرى، فهي بالتالي، لا معنى لها، إلا إذا تصورناها في قالب مقاربة شاملة وكونية ؛ لأن دول العالم الثالث تعاني، أكثر من دول الشمال، من أضرار النظام الدولي الذي أصبح بدون ضوابط.

وهنا، لا أصدر حكما على الحكّام بالجنوب، ولا أقلّل من مسؤولياتهم الخاصّة. إن العالم الثالث لا يعيش في قفص مسدود. إنّه جد تابع لما يحدث في الشمال وخصوصا في المجال التكنولوجي، لأن الدول المصنّعة تصْرف 95% من مجموع النفقات في البحث العلمي على المستوى العالمي.

وهذا اليومي لشعوب الجنوب، مراقب بصفة منتظمة من طرف دول الشمال، الذين يتمتعون يوميا بثمانين في المائة 80% من الموارد المادية العالمية، بفضل تقنيات الهيمنة على شاشاتهم التلفزية وفي صحفهم. سكان الجنوب، وبفضل نفس الثورة الإعلامية، يتقاسمون يوميا أيضا، في مخيلتهم، نوعا من حياة «الآخرين» عبر برامج تلفزية، والتي تملأ بها دول

الغرب دور الصفيح. وعيهم بالفجوة التي تفصل العالمين يتزايد، وهذا التبادل اليومي اللامتكافئ ؛ يبين أن التقنيات التي تسيء أكثر إلى العلاقات بين الدول، كما هو الحال بداخل هذه الدول ؛ هي تقنيات «إعادة توزيع حقيقي» وليس فقط تقنيات إعادة توزيع «وهمية» بالصورة.

تثير التفاوتات مشاكل كبيرة ومتعددة، منها الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والسسيوثقافية ؛ وتقيّد نظرتي، ولو أنها نظرة محظوظ بالنسبة «للآخرين» من بلده. إنسان محظوظ الذي يتوفّر ويستعمل، يوميا، تقنيات مستعمَلة من طرف الفاعلين الآخرين من الضفة الجيوثقافية الأخرى. إنني واع بذلك.

الفجوة الإنسانية

أزمة تقنياتنا الحضارية، تجعل أنه كلما طورنا المعرفة والتكنلوجيات نكون أقل تحكّما فيها، واستيعابها وتطبيقها بإتقان من أجل مقاصد اجتماعية، لتقليص الفوارق والظلم مع السعي إلى تنوير كل الناس. وهذه الفجوة المتزايدة بين المعرفة والتقنيات، من جهة، وعجزها المتزايد لتحقيق سعادة الآخر يوميا من جهة أخرى ؛ هو نوع من عدم فعّالية الثقافية التي تعاني منها جميع الثقافات. وهذا ما سمّيناه في تقرير نادي روما بـ «من المهد إلى اللحد» و«الفجوة الإنسانية» ؛ وهي إحدى النتائج لتسارع التاريخ، التي لها عواقب ذات طبيعة هندسية متغيرة حسب الطوائف الاجتماعية والدول.

وبما أنني مطالب بإلقاء ضوء «آخر» غير ضوء المتدخلين الآخرين، الذين استفدت من قراءة مقالاتهم ؛ فهم يثيرون مجموعة من المشاكل بخصوصية، تبعث على التحفيز من الناحية الفكرية. ذلك أن الانشغال المشترك لهؤلاء الكتاب، هو بالتأكيد حضاري ؛ لأنه مرتبط بالعلاقة بين

---

(2) بوتكين، م. مليتزا، م. المنجرة «من المهد إلى اللحد» باريز إكنميك 1979.

التطور السريع للتقنيات والوثيرة المطلقة لفاعليتهم في الحياة اليومية من جهة، وجودة أو رداءة الحياة من جهة أخرى.

الإشكالية الخالدة للثلاثي : علم ـ تكنلوجيا ـ ثقافة، لا تبرز في مختلف المواضيع المدروسة ويتحكّم فيها انفجار المعرفة. تنشر حاليا مليونين من المقالات العلمية سنويا في أكثر من 60.000 مجلّة متخصّصة، أي ما يعادل 5500 مقالا يوميا أو ما يقرب من 4 مقالات في الدقيقة. أكثر من 350.000 رخصة وُضعت سنة 1990. سيفوق مجموع «المعرفة» الإنسانية الضعف قبل نهاية القرن.

معيار آخر، من بين المعايير الأخرى لتسارع هذا التاريخ، يكمن في سرعة حساب «الحواسب المتميزة» ؛ فمنذ سنة، كان باستطاعة Cray 2 أن ينجز مليونين من العمليات الحسابية في الدقيقة ؛ في مارس 1991 الآلة المفكّرة، توصّلت إلى إنجاز أكثر من 5 ملايين من العمليات في الدقيقة وفي يونيو 1991، توشتون دلت Touchtone Delta حققت 8,6 ملايين من العمليات في الدقيقة، ونقدّر أننا سنقترب من 10 ملايين عملية في الدقيقة سنة 1992. توشتون دلتا دنتل، سَيُسَوَّق السنة القادمة، بثمن حوالي 20 مليون من الدولار. ومثل هذه التطورات الكمية والتقنيات، ستؤدّي إلى انشقاق نوعي ؛ حيث إرثنا الفلسفي الإبيستيمولوجي يجد نفسه غير مُهَيًّأ، إن لم أقل متجاوَز. وقبل وفاته في مارس 1984 كتب أريليو بيس Aurelio Peccei، مؤسس نادي روما التالي :

«إن الحاجز الأساسي للمهمّات الصعبة، الذي على البشرية مواجهته (...)، هو الطابع غير القابل لتسيير المجتمع في تنظيمه الحالي (...)، أكيد أن التطور البشري مذهل، لو اعتبرنا تراكم المعارف العلمية والتحكّم في التكنولوجيا والقدرة الصناعية، بالرغم أن العناصر المذكورة تتطور بطريقة فوضوية، وترفع من حدّة الانقسام بين المجتمعات المختلفة. ومع ذلك، فإن هذا «التقدم» لم يرافقه لا تطور موازي للإبداع ولا إنجازات اجتماعية أو سياسية»[3].

---

(3) أريليو بيس Aurelio Peccei «نادي روما : النقط المحورية لنهاية القرن»، باريز مستقبليات أبريل 1984.

لا يمكن لتحليلاتنا أن تقتصر فقط على الفهم أو النقد البسيط لمكونات هذا المثلّث (علم ـ تكنولوجيا ـ ثقافة)، لكن عليهم أن يفكّروا بطريقة مباشرة بعواقب تفاعلاتها.

ومثل هذه الخطة لا معنى لها، إن لم نفكّر مسبّقا في تحديد المقاصد، لكي لا يصبح هذا العلم مقصدا في حد ذاته، بل وسيلة لإنشاء موازين جديدة، تهدف إلى ضمان جودة البقاء. لكن كيف نحدد أصحاب هذه المبادرة ؟ وكيف سنتفادى النظام الفاشي التقنوقراطي ونتجاوز الحدود للإبداع والتجديد ؟ «إن الحياة اليومية والتقنيات»، تشكّل محورا يثير بالضرورة قضايا تتعلق بإعادة هيكلة التقنيات اليومية.

تقنيات وديمقراطية الحياة اليومية

إن مثل هذه الإصلاحات، وهي بالضرورة متعددة، تتطلب عدم قداسة العلم والتكنولوجيا والثقافة، التي ينظر إليها كعقائد وأصنام ؛ كما تستوجب الاعتناء بمقاصدها وتوافقها الأخلاقي والعملي لتفاعلاتها. ويجب التفكير في أنظمة سامية للتصور، لضبط الأنظمة التكنولوجية الكبرى، التي تسيطر على الحياة العادية من الناحية الفكرية والعلمية والاجتماعية. والتحديات الجديدة للديمقراطية، تتكفل بخلق الوسائل التي تسمح بمشاركة حقيقية للشعوب في اختيار هذه التوافقات. إنها خيارات تغيب بتزايد عن البرلمانيين والحكّام، ومؤسسات عمومية أخرى تزداد ضعفا في قدرتها على ضبط جميع الجوانب للخيارات التكنولوجية التي تُمليها قوانين السوق والمنافسة الدولية[4].

يُلاحظ آلان كْرا Alain Gras في مقالـه «السعـادة منتـوج مثلـج»، أن الاستعمال المقصود، نفسه هو الذي يحدد التغيير في الحياة العادية ؛ ومن

(4) ريكاردو بتريلا Ricardo Petrella «عولمة الاقتصاد» باريز المستقبليات رقم 135 شتنبر 1991.

الصعب إذن معرفة من أين ومتى يبدأ التغيير[5]. وهنا يكمن المشكل برمته. إن أولئك الذين يراقبون الدورات والتغيرات، يصبحون عبئا على آلية التغيير، حتى ولو أنه أحيانا يصبح صعبا بالنسبة لأولئك الذين يوجدون خارج الدائرة؛ فمعرفة «كيف وأين»، يحدث التحريض على التغيير. والقدرة التكنولوجية لإحداث التغيير، من الخصائص الجديدة للسلطة الحقيقية؛ سلطة لا تخضع لأي دستور ولا أي معاهدة ولا أي تصريح دولي.

إن مفاهيم الديمقراطية والمشاركة والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، تفرُغ يوميا من محتواها بتحوّل ـ استراتيجي مخطّط من طرف المنظمة الحقيقية لمراكز القرار ـ للدوائر «التقليدية» إلى الشركات الكبرى والمتعددة الجنسية، مرورا بالقطاع العسكري للقوات العظمى والشبكات الخفية التي تأخذ طابعا دوليا متزايدا. إن الأغلبية الساحقة من الناس والدول، لا يستطيعون خلق أو تسيير التقنيات التي تستجيب لحاجياتهم، ويعتمدون على نماذج الاستهلاك المستعملة من طرف الآخرين. لقد لاحظ جورج بلندي Georges Balandier مؤخرا أن :

منافسة، استهلاك، تنافس؛ تبدو وكأنها ثلاثة علامات تخيّم الآن على الخيال الفرنسي[6].

إن ما قاله جوكس Alain Joxe، فيما أسماه «امبراطورية الفوضى»، يعد مناسبا جداً :

«دور السلطة العسكرية في إمبراطورية الفوضى، يكمن في تسهيل حرية مجرى التيار فوق كل مساحة العالم، وإرغام الشعوب على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للسوق» وهي التي ستتكلّف لوحدها بتحديد تيارات اليقين ونواة السلط الصاعدة؛ شريطة أن تكون هذه النواة أمريكية. ستتم السيطرة على هذا الكوكب بتدخلات عسكرية، ليس فقط بفضل القوة البحرية والجوية، لكن بواسطة القوة الفضائية والهرتزية[7].

---

(5) انظر Supra «السعادة منتوج مثلج».

(6) جورج بلندي : «المجتمع» لومند 31 ماي 1991 صفحة 25.

(7) Aain Joxe Le cycle de la dissuasion باريز La découverte FEDN 1990 - P. 288.

وهذا ما يؤدي مباشرة إلى التقنيات التي لها أكبر أثر في تحديد تسيير حياتنا اليومية، سواء برغبة منا أو دون وعي بذلك. أكثر من هذا، فإن انعكاساتها المدنية، هي التي طبعت أكبر مشهد تقنيات الحياة اليومية. وهي مقاربة يجب استحضارها باستمرار. وهذا ما قام به آلان كْرا Alain Gras عندما كتب :

«إن الحرب العالمية الثانية، أدّت إلى تعجيل إدخال التكنولوجيا إلى البيوت، ووضعها في المكان المناسب ؛ وبعد الحرب، فإن منتوجات المعرفة قد أتخذت شكل الاستهلاك السلمي للعلم»[8].

التدمير العسكري

لقد كتب مشيل سير Michel Serres : من الآن فصاعدا، «فإن السياسة للأسف لها القدرة على التدمير ؛ والبقية لنا» ؛ البقية في الخيال هائلة، لكن في الواقع ؛ الترسانة العسكرية، التي تتوفر عليها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، قادرة لوحدها أن تدمر عدة مرات مجموع سكان الأرض. كما أن القتل الفائض، هو أيضا تقنية ترهن بقاءنا على الدوام.

منذ بداية تاريخ الإنسانية، كان تطور التقنيات دائما مرتبطا بحاجيات «الدفاع». **ومفهوم الدفاع تمت تصفيته بالتدريج، ليدلّ على الاعتداء على الآخر.** ومع الوقت، كما لاحظ كلوزويتز Clausewitz، إن الحرب تصبح «ضربا من العنف الهادف إلى إخضاع العدو لإرادتنا»[9] ، إرادتنا ضد إرادة الآخرين. الفرق يكمن قبل كل شيء، في منظومة القيم والرغبة في فرض إرادتها كأداة للحكم. إن عملية التجانس هي أنزيم (enzyme) لعملية الهيمنة.

إن العلاقات بين العلم والتكنولوجيا والدفاع، بصفتها قوة للتدمير ؛ قد ازدادت عمقا، إلى درجة أصبح فيها العلم والتكنولوجيا تحت الرقابة الكاملة للدفاع. وما يقرب من ثلثي العلماء في العالم، يعملون لصالح

---

(8) انظر ألان كْرا : «السعادة، منتوج مثلج» Voir Supra «le Bonheur, produit surgelé».

(9) Karl Von Clausntz, La queue, livre 1, chap. 1.

القطاع العسكري ؛ والنفقات العالمية في التسلح، تتجاوز حاليا 2000 مليار دولار ؛ وهي تقترب من تلك التي تتعلق بميزانية البحث العلمي.

بفرنسا، البعثة العامة للتسلح، التي تغطّي مراكز البحث العسكري بوزارة الدفاع، «أنفقت 104 مليار من الفرنكات سنة 1990، أي ما يقرب من 2,6% من الناتج الداخلي الإجمالي. وتوظف نفس الوزارة 55.000 شخص، وتخصّص 30 مليار للبحث والتطوير»[10].

باستثناء أرلندا وبعض الحالات للحرب الأهلية في دول الشرق، لم يعرف الشمال، الصراع العسكري منذ نهاية الحرب من 1939-45. حيث إن أكثر من 200 صراع مسلّح من مجموع الصراعات، طوال 46 سنة الماضية، جرت بدول الجنوب. وفي معظم الأحوال، كانت حروب بواسطة دول بين القوى العظمى فوق أرض الآخرين.

إن الحروب بالنسبة لدول الجنوب، ظاهرة لها عواقب وحشية متصاعدة بسبب «تقدم» التكنلوجيات، التي توظف فيها دول الجنوب كمختبرات عملية بإتقان»[11].

ومنذ 1946، تسجّل هذه الحروب معدلا يفوق مليونين ضحية مدنية[12] ومن الصعب على شعوب دول الشمال، التي لا تعيش هذه الحروب، إلا بواسطة الصحف والراديو والتلفزة ؛ أن تفهم حقيقة هذه التقنيات المدمّرة في الحياة اليومية للشعوب البريئة بالجنوب. وعلى العكس، من السهل أن

(10) «علم ودفاع : الروابط تتعزّز» باريز، العلم والمستقبل مايو 1991.

(11) في washinglou Post بتاريخ 26 دجنبر 1990، و3 أسابيع قبل اندلاع الحرب، يمكننا أن نقرأ : «واشنطون – البنتاڭون، رغبة منه في استغلال المزايا التكنولوجية الأمريكية على العراق وحرصا منه على تزويد الجيش الأمريكي بترسنة أكثر....، عجّل بتطوير عدة قنابل للاستعمال المكثف في حرب الخليج حسب مصادر رسمية من إدارة الدفاع الأمريكي».

(12) المنجرة : «3 سيناريوهات لمستقبل التعاون الدولي» الرياض، أكاديمية المملكة المغربية، أبريل 1988 وفي مجلة Futuribles، رقم 121، باريز مايو 1988.
انظر كذلك المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية رقم 127، فبراير 1991، باريز.

يخوض الإنسان نقاشات، يقال عنها ثقافية فلسفية وأخلاقية، حول «الخير» و«الشر» وحول منافع وأضرار منهج السلام، عندما نكون بعيدين عن ميدان القتال، وعندما يتعلق الأمر بحياة «الآخرين».

إن الحرب التي أعلنتها الولايات المتحدة يومه 17 يناير 1991 في الخليج - وهي لم تنته بعد - ما هي ببساطة إلا امتدادا لسيناريو يزداد وحشية : إنه سيناريو حالة الأمور الحاضرة والدفاع عن الاستقرار والأمن في العالم وغايته الحفاظ ودعم التفاوتات. في دراسة مؤرخة بإبريل 1988، وصفت حسب توقعاتي بعض عواقب هذا السيناريو، وقلت :

«سيكون العالم الثالث مسرحا لمجموع الصراعات المسلّحة ومعدلها 25 صراعا في السنة بالعالم، وسيذهب من جرّائها ما يقرب من 2,5 مليون ضحية وستساهم في تشجيع تطور صنع الأسلحة بالشمال. وهذا السيناريو سيعطّل مسلسل الدمقرطة ويشجّع على عدم احترام حقوق الإنسان ويحدّ من التسامح الديني بالجنوب ويغذي التطرف والنزعة المركزية بالشمال»[13].

لقد عاش شعب العراق ولمدة 40 يوما، من 17 يناير إلى 28 فبراير 1991 محنة جهنمية ؛ عرف خلالها جميع الأرقام القياسية : أكثر من 110.000 طلقة نارية، أي ما يعادل 114 طلقة في اليوم (42 ضعف الرقم السابق المؤرّخ بمهاجمة اليابان أثناء حرب 1939-1945 والتي كانت ترتفع إلى 65 طلقة في اليوم). إنها تقنية جهنّم المتوحشة، والتي ذهب ضحيتها أكثر من 200.000 شخص، الذين ستضاف إليهم على الأقل 150.000 ضحية أخرى في الشهور القادمة، فضلا عن مئات الآلاف من الجرحى وآلاف من المعاقين إعاقة دائمة. وفضلا عن التدمير المباشر لجميع البنيات الاقتصادية والصناعية والعلمية والثقافية لبلد له حضارة 6 آلاف عام من التاريخ، والذي كان إحدى معالم الذاكرة الكونية للبشرية.

إن لم تكن مجزرة، ما هي دلالة كلمات «البعض» و«الآخرين» في عالم يشتغل بوتيرتين من السرعة ؟ أي نصر هذا ؟ حرب ممولة من طرف

(13) المنجرة : Ibid Futuribles رقم 121 مايو 1988 صفحة 12.

الآخرين ؛ حيث تبيّن أن الكذب اليومي أصبح تقنية آخر طراز. إن حربا بدأت على بغداد «بالألعاب النارية» فأبهرت، وأثّرت وأرضت أحيانا المتفرّجين الغربيين، المنشغلين باحترام النظام العالمي الجديد والدفاع عن حقوق الإنسان، لدرجة صرفهم الأمر عن الاهتمام بحياة الأبرياء المستهدفين. «ألعاب نارية» أخرى ـ ومن أكبر الألعاب لكل الأزمنة ـ ساعدت الأمركانيين بالاحتفال بهذا النصر العظيم.

ولم يكن للآخرين حتى الحق في ذاكرة أرواح أمواتهم. أين هي تقنيات الحنان والتضامن الإنساني ؟ تقنيات ذاكرة بعضهم وُجدت لتطوير تقنيات فقدان الذاكرة (amnésie) عند الآخرين. يبقى الحق لبعضهم في الذاكرة، أما الآخرين فلهم حق النسيان. أليس التمييز حتى بعد الموت كان أسوأ بكثير من ذلك التمييز الممَارس في الحياة ؟

إن هذه الملاحظات ليست «للآخر» على الإطلاق، ولا هي ناتجة عن نظرة «الأجنبي» أو «البعيد». إنها فوق كل التحاليل السياسية، ومرتبطة جوهريا بطريقة التقنيات المدمّرة، التي تمس وتُبيد حياة الملايين من البشر مع مرور الأيام من كل سنة ولمدة تفوق 4 عقود من الزمن.

إنها ملاحظات إنسان، يؤمن بالحق في الحياة في ظل الكرامة بالنسبة للبشرية جمعاء، دون أي تمييز أيا كان نوعه ؛ إنسان كرّس حياته كلها للتعاون الدولي، وسيواصل عمله بكل إصرار يتطلّبه احترام وحب الآخر.

مقاييس نظرة الآخر

قبل الختام، يبدو نافعا تلخيص مقاييس التحليل الناتجة عن المقاصد التي تقيّد سيرورتي اليومية، وحتى عقلية «نظرة الآخر» :

ـ دراسة طبيعة القوى السياسية الاقتصادية والسسيوثقافية، التي تحرّف أو تمنع التغيير على المستوى المحلي والدولي ؛

ـ بذل مجهود لفهم آليات الإنجاز ومراقبة القوانين، التي تسير هذه القوى، بما فيها نسبة احترام تعددية منظومة القيم والتعدد الثقافي ؛

ـ الأهمية المخصّصة لمبادئ حرية تحديد الخيارات والعدالة الجيوثقافية في تطبيق هذه القوانين ؛

ـ الدفاع عن الحرية، عن العدالة الاجتماعية، عن جودة الحياة والإبداع، والتي نعتبرها كشروط وكمقاصد لتنوير الإنسان ؛

ـ أهمية الرؤية على المدى البعيد، وأهمية المستقبليات لبناء عالم «آخر» في مستوى الحذاقة الإنسانية، التي طورت هذه التقنيات وفي مستوى التحديات التي تتعرّض لها.

إن التفاعلات بين هذه العناصر، تحدّد على المدى المتوسط والبعيد، ما اعتبره «باليومي»، سواء منه ما يتعلق بالتقنيات أو بالوجود فقط.

ـ نظرا لتأثُّري بالدراسات المستقبلية، لم أعتبر اليومي، إلا نتيجة لتيارات ثقيلة من الماضي وحصاد للمستقبل. ومن الصعب علي أن أتصوّر شكلا من اليومي في حد ذاته، قارا ومنفصلا عن الشرعية المكانية الزمانية. إن النظرة الأخرى، هي أولا نظرة اليومي، الذي يَتحكّم فيه تحليل البارحة وتوقع الغد.

مواجهة «الكوني»

يقول آلان كْرا Alain Gras بوضوح، ما عبّر عنه كاتب هذا المؤلّف بطريقة غير مباشرة بشكل أو آخر : «إن تكنلوجيات الحياة اليومية هي ميتافيزيقية (métaphysique) بالنسبة للإنسان العصري، وتجسيداً لمادية الحلم الغربي...»[14] ؛ ويجب أن نوضح، أنه بالنسبة لكاتب هذه الجملة «كون التقنية تشكّل جزءا لا يتجزّأ من كائننا الاجتماعي»، هو أمر حديث. ما هي البقايا التاريخية والكونية في تطوير العلم والتقنيات أمام مثل هذا التصريح ؟ لم يبق لنا إلاّ اختزال التاريخ العلمي والثقافي للبشرية في القرنين أو الثلاثة قرون

---

(14) أنظر السعادة : المنتوج المثلج ؛ مرجع سابق ذكره.
Voir supra «le bonheur produit surgelé»

الأخيرة، ابتداء من تاريخ عصر النهضة أو الثورة الصناعية. إن سلّم الزمن معطى ملموس ومؤهل لاختبار الثقافات : لكل منها عمقها الزمني.

ليس باستطاعتنا التوصل إلى امتلاك الكون في الزمان والمكان، بمجرّد محو عطاء آلاف السنين من الثقافة والقيم وإدماج عدم الاستمرارية في الزمان والمكان ؛ مما يوهم، مع ذلك، أن التقنيات الحديثة، هي المنتوج الخاص بنموذج التطور الغربي. ومن تم، تصبح كلمتي «عصري» و«غربي» مترافدتان. ومن المؤكد، أن مثل هذا التفكير بعيد جدا من فكرة ونوايا الكاتب، لكنه تفكير سائد بوعي أو بدون وعي في عقلية كثير من الغربيين. ومن حسن الحظ، أن نموذج اليابان يبرهن بحياء/دون استعلاء للناس، أن العصرنة لا تتم عبر التقليد والغربنة. لقد عرّف، روني ما هو، المدير العام السابق لليونسكو، التنمية تعريفا جميلا في قوله : «التنمية هي العلم عندما يصبح ثقافة»، وهذا ما يُميّز تقنية «اللعب» gadget داخل نفس الأداة أو الشيء.

لنستحضر كذلك ما قاله برغوجين، الذي أحرز على جائزة نوبل في الكيمياء حول الروابط بين العلم والثقافة والكون :

«من المستعجل أن يعترف العلم بكونه جزء لا يتجزّأ من الثقافة التي يتطور في محيطها (...)، ونعتقد أن علمنا سينفتح على الكون، عندما يتوقف عن نفي زعمه بعيدا عن انشغالات المجتمعات ؛ حيث يصبح العلم قادرا على حوار مع الناس من كل الثقافات باحترامه للقضايا[15]».

إنني أتبنّى هذه الخاتمة، وهي خلاصة شخص «آخر» غيري ؛ لكنها تبقى للآخر الذي يرفع من شأن التنوّع، ويجعل منه قاعدة للكون، عوض اختزاله في إسقاط ذاته وهيمنتها ؛ وهي الطريقة التي يتواجد بها «كآخر» بين «الآخرين». التحالف بين العلم والثقافة يستوجب ذوبان الاثنين، حتى نسمح لتقنياتنا اليومية بضمان يوميات مستقبليات أخرى.

---

(15) Ilya Prigagine, la nouvelle Alliance Paris Gallimard 1979 pages 23, 28.

20

السينما والتربية(*)

إن إشكالية العلاقة بين السينما والتربية مهمة جدا، لكنها جد معقّدة. وهي مع ذلك، تلخّص بعض جوانب الأزمة الحضارية التي نعيشها.

وبما أنني متواجد بمؤسسة للتربية، سأطرح الإشكالية بهذه الطريقة : من جهة السينما، ومن جهة أخرى التربية : فإذا كانت السينما هي الإنتاج، فإن التربية تعتمد على إعادة الإنتاج. في الواقع مناهجنا التربوية لا تفرز إلاّ النماذج الموجودة : إن الآباء والأمهات، يتمنون أن يكون أطفالهم نسخة منهم كما يرغب الحكام في جعل خدّامهم صورة منهم.

وهكذا، فإن المهمّة الأساسية للتربية، هي إعادة الإنتاج. وكمثل على ذلك، فإن مؤسسات تكوين المدرسين، تُكَوّن المدرسين الذين سيكررون لتلاميذهم نفس الدروس ونفس التحاضير ؛ وهذا شيء طبيعي بالنسبة لجميع المؤسسات.

إنكم أساتذة وأدعوكم، كلما تطرقتم إلى سؤال ما، أن تبحثوا في القاموس، لأنه أمر جيد، ولأنه بالنسبة للأستاذ عملية رِبْحُها مضمون. وبالمناسبة إذا فعلتم كذلك، فستفهمون ما أقصد بإعادة الإنتاج.

دخل مصطلح السينما إلى اللغة الفرنسية سنة 1894 بعد «سيماتغرافي»، عندما اخترعت «لوميير» Lumière أول جهاز سينمائي. لكن منذ 1834، نجد الأصل اليوناني «سينما» (والذي يعني حركة) في كلمة «سينماتك» Cinématèque، والتي تعني دراسة الحركة أو دراسة «ديناميك»

(*) ملتقى دولي، نظمته المدرسة العليا للأساتذة تطوان 30-28 نونبر 1996.

La dynamique، وهي شعبة في الفيزياء. وهكذا، فإن السينما تتحرّك ؛ أما التربية، فإنها تهدف إلى الإلصاق بالمكان. وهذه الوظيفة التربوية، لا توجد ببلدنا فحسب، بل توجد في كل مكان بالعالم. ولهذا تموّل الدولة التعليم وتوظف جيشا من المدرسين يبلغ عددهم 250.000.

وفي الواقع، فإن مهمّة هذه الأخيرة، لا تكمن في نقل المعارف، ولكن في نقل نموذج فكري ومنظومة قيم لضمان الاستمرارية واستقرار النظام الاجتماعي. وعلى العكس من ذلك، فإن السينما تتضمن الحركة والدينامية.

وإذا شكّلت هذه الأخيرة التغيير والتحويل والثورة، فإن التربية، على العكس، تشبه ماءا راكدا غير صالح للشرب، لأنه سينقل حمّى المستنقعات (ذاء الملاريا) والكوليرا ؛ وتنتج عن هذه العملية عدة أشياء.

وكما تعلمون، من الناحية التاريخية، فإن الصورة سبقت الكلمة ؛ وهذا ما بينه مؤرخ كبير في الفن، مايرسترو، في مؤلّف متميز في تاريخ الصورة. إن الكتابة الهيروغليفية، والتي تشاهد على الأهرام، أو في علامات أخرى، تمثل لغة تحمل رموزا. وبعد سنوات من الدراسة اكتشفنا، مثلا، أنه عندما تقدّم الهيروغليفية وجها لها ؛ فإن ذلك يرمز إلى العقل والتفكير والحلم والخيال ؛ بينما عندما يمثل وجه أمامنا، فإنه يأخذنا إلى الميدان المسرحي، إلى السياسة، والإنشاء.

وبالتالي، فهل كانت هناك لغة بالصورة قبل أن يعبر عنها في كلمات ؟ ومن هنا أعتقد أنه باستطاعتنا، ودائما في سياق السينما والتربية، أن نتوصل إلى شيء، وهو الحلم. ومنذ سنة تقريبا، في ندوة جمعت عشرين متخصّص، فإن التصريح الأخير، كان مسبوقا بهذه الجملة الصغيرة والتي أرغب في ذكرها :

«إن أولئك الذين يرون اللامرئي فقط، باستطاعتهم ولوحدهم أن يقوموا بالمستحيل».

السينما في نظري لا تقيم وزنا للمرئي، والسينمائي الحقيقي هو الذي يرى اللا مرئي، هو الذي له رؤية وله خيال، وهو الذي يحول هذا اللامرئي لنا إلى المرئي على الشاشة. ومن جهة أخرى، فإن المربي يجد نفسه أمام مهمة مستحيلة. لكن لو كان باستطاعته أن يتعلّم رؤية اللامرئي، ولو كان بإمكان السنمائي أن يبذل المزيد من المجهودات ليجعل اللامرئي ممكنا ؛ لتوصلنا إلى تحقيق المعادلة سينما/التربية. لأن الرؤية مهمّة جدا. وكما تعلمون، فإنني أهتم بالمستقبليات أكثر من 30 سنة. وأصل الكلمة (Prospective) وهي كلمة يونانية، تعني «الطريقة التي نرى بها».

وبالتالي، فإن المستقبليات لا تكمن فيما ترون، لكن في الطريقة التي تبصرون بها الأشياء ؛ وهكذا، فإنني أعتقد أن المشكل الحقيقي الذي يلاحقنا اليوم، ليس مشكل البطالة، ولا ارتفاع أسعار البترول، أو انخفاض العملة لهذه المادة الخام أو تلك ؛ بقدر ما هو أزمة، أو بصفة أدق، غياب الرؤية، وهو مشكل خطير وقاتم السواد Sournoirs بدول العالم الثالث. ومع ذلك، كانت لهذه الدول رؤية في الحقبة التي كانت فيها مستعمرة، لأن شعوبها كانت متحمّسة الرغبة، كما كانت تعانق حلما يبدو تحقيقه مستحيلا.

إذا قلت لأحدهم بالمغرب سنة 1944 «ستحرزون على الاستقلال في ظرف 12 سنة»، فإن ذلك الأمر، كان ضمن المستحيلات. وأولئك الذين يبصرون اللامرئي، ويكافحون بطريقة خالية من المصالح، استطاعوا لوحدهم أن يحققوا ذلك المستحيل، لأنه كانت هناك تلك القوة المجندة : وهي الرؤية ؛ وأتحدّى أي كان اليوم، أن يدلّني على بلد من الدول المتخلفة لها رؤية ويقول لي ما هي هذه الرؤية ؟

إن الرؤية لا تختزل في أرقام، وفي بناء عدد من الكيلومترات من الطريق السيار أو ما شابه ذلك.

إن كل عمل نشرع فيه، يجب إدراجه ضمن ما نسميه في الرياضيات بألغوريتم Algorithme، ويجب أن يوضع ضمن رؤية شاملة، تكون فيها

جميع العناصر منسجمة فيما بينها. ألا تحاولون، في ندوتكم هذه، أن تُقرّوا نوعا من الانسجام بين السينما والتربية ؟ ومثل هذا البحث، يتطلب أولا وقبل كل شيء، رؤية ؛ وإنني أؤكد على هذه النقطة. إنها أزمة الرؤية التي نعاني منها : يعني أننا نفتقد الخيال. وعندما نفتقد الحُلم، فإنها بداية النهاية ؛ وينضاف إلى هذا غياب روح الفكاهة والمرح ؛ وعندما نصبح عاجزين عن الحلم والضحك، فمن المستحيل أن نحبّ.

إن السينما تنقلنا إلى قفزة ـ السينما تغنينا بفضل قدراتها على تجسيد ترجمة هذا الخيال في الملموس الواضح. تساعدنا على الحلم بصوت مرتفع.

صحيح أن المدرسين يخشون الحلم بصوت عال، لأنهم يخاطرون بترقيتهم، وبالتالي، لا يمكنهم أن يتقلدوا منصب عميد أو وزير.

إن الأزمة التي أشرت إليها قبل قليل، هي موضع انشغال. لقد تحدثت لكم عن تاريخ السينما الذي هو فن ووسيلة التغيير، حديث العهد، لا يتعدى عمره قرنا واحدا. إن الأفلام الأولى التي ظهرت على الشاشة بفضل آلة Eddison، يرجع تاريخها إلى 1894. في نيويورك كان يطلق على هذه الأفلام اسم «peep show»، لأننا كنا نشاهد مقاطع مصوّرة عبرَ ثقبة لمدة 30 أو 60 دقيقة. ولقد تمّ اختراع السينما بهذه الطريقة. ولهذا السبب، فإن الإنجليزية مهمّة من الناحية اللغوية. لم يكن مصطلح «سينما» موجودا في هذه اللغة، ولم تظهر هذه الكلمة إلا في الخمسينات. لا نقول «إننا ذاهبون إلى السينما». إذا تكلمتم بهذه الطريقة فسيندهش الجميع وستظهرون متغطرسين. والأمريكيون باستعمال هذه الكلمة، من حيث مشتقاتها، يقولون «الصورة المتحركة»، يعني الصور التي تتحرك ؛ ولهذا نطلق على «الرسوم المتحركة» اسم الرسوم التي تتحرك، ولهذا فإن الحركة يُقْصد بها فكرة «حركة الصورة»، ومن تم جاءت كلمة «movie».

وفكرة الحركة في السينما «motion picture»، رُسِّخت وبشكل حيوي في منظومة القيم الانكلوسكسونية. الرؤية الفرنسية للسينما، كما يفسّرها قاموس Robert تشير إلى الهدوء ؛ والسطحية ؛ إن فكرة الحركة لا تبرز كما

هو الحال بالنسبة للسينما الأمريكية ؛ حيث ترتبط ارتباطا لا مفرّ منه بالجانب المادي للكلمة.

الحركة، هي جزء من السينما على المستوى المادي للكلمة وكوسيلة، ترتبط بها كطريقة عمل. حاولوا بأنفسكم، خذوا فقرة من شريط W.C Felds وأعرضوها على متفرجين غير أمريكيين. لن تصل درجة الفهم ورد الفعل بالنسبة للفيلم إلاّ إلى 30% حتى 40% على مستوى التواصل الثقافي للأفلام التي تترجم فعلا طريقة تفكير ما. بعضهم لم ينتبه في بداية الأمر، إلى أن هذه الأعمال كانت منتوجا لثقافة محلية ؛ مما يثبت أهمية التواصل الثقافي من خلال نظامنا التعليمي والسينما في بلادنا.

نحن نعيش بفضل القروض، وبعضهم يَسْعَد عند حصوله على تمويل من السفارة الفرنسية لتنظيم أنشطة ثقافية. ألا تعتقدون أنها إهانة لبلد يدفع الملايين من الدراهم للقيام بأنشطة زائدة، في حين يعجز عن إيجاد بضعة آلاف من الدراهم لتنظيم مثل هذا اللقاء ؟

إنني لست ضد التعاون ؛ ولكن، عندما تصبح عضوا في شركة للسلف، فإنك تنسخ أشكال ونماذج الآخرين. إنك لا تستعير اللغة فقط، لكن العلامة والصورة أيضا. والصورة تخدع. تخدعك الصورة عندما لا تكون جزءا منك. والأمر واضح لاريب فيه ومفجع.

ومن جهة أخرى، لا يمكننا جهل المحيط العالمي الذي نعيش فيه، وهذا الأخير يوصف شكليا بالطريقة الآتية : 20% أقل من سكان العالم تستغل 85% من موارد هذه الأرض في أشكال مالية وأخرى ؛ 85% من النفقات العالمية في ميدان التعليم تسيطر عليها 20% ؛ و95% من البحث والتطور في ميدان المعلوماتيات والإعلام والسينما تنجز بدول الشمال. حاولوا تقييم ما تبقّى. إذا رجعنا إلى قضية العلاقة بين السينما والتربية، والتي عبّرت عنها بالإنتاج وإعادة الإنتاج، يجب إضافة ظاهرة انفجار المعرفة. وبدون مناقشة، فإننا نعيش فترة تحوّل.

البيئة التي تكلمت لكم عنها، تطابق هذه الصورة الجديدة : صورة تحول مجتمع الإنتاج إلى مجتمع المعرفة والعلم. والفرق ملموس. إن المجتمع المبني على الإنتاج بالطريقة التي تطور بها في القرن 19، ازدهر بفضل رأس المال والمواد الخام. اليوم انتهى الأمر. يعتمد مجتمع العلم، في ثورته الحالية، على المعرفة والموارد البشرية وعلى المعلومات. المعلومة المنظمة تفوق مصدر السلطة. لكن العبور إلى مجتمع العلم صعب جدا.

لفهم ما هو مجتمع المعرفة، سأعطيكم مثالا : يمكنكم أن تقرأوا بالصدفة في الجريدة، أن المدير العام لأي من الشركات، قدم من بلده والتقى بوزير معيّن من أجل استثمار عدد من الملايير. بينما الاستثمار بهذه الطريقة يعني الانتقال. الانتقال مثلا هو تحويل شركة إنتاج الدراجات النارية من بروكسيل إلى الدارالبيضاء عين السبع لسبب بسيط ؛ هو أن اليد العاملة غير مكلِّفة. لكن العقل المدبِّر لهذه العملية يبقى في بروكسيل.

فليس هذا هو التطور، بل هو بعيد كل البعد عن التطور ؛ لأن العامل المكلَّف بتركبة هذه الدراجة عاجز عن معرفة كنه هذه الآلة، دون الرجوع إلى التعليمات التي يتلقاها من بروكسل. ونفس الشيء بالنسبة لهؤلاء النساء اللواتي تشاهدهن على الشاشة يصنعون الحواسيب الدقيقة ؛ هذا لا يعني أننا دخلنا إلى عهد المعلوماتيات ؛ بل إننا لازلنا بعيدين ! إن مشهد هؤلاء النساء مسَبّة للإنسان، بحكم العمل الذين يقومون به، عمل ميكانيكي، عمل الآلة، لا خلق فيه ولا إبداع.

لمن أراد أن يفهم مجتمع العلم، أنصح بقراءة مقال لجوزف ني (الرئيس السابق للجنة الدفاع والمخابرات الأمريكية) تحت عنوان «information edge» والمنشور في مجلّة «الشؤون الخارجية» في مارس 1996 ؛ لقد كتب ما يلي :

«إن المستقبل لنا ولا يجوز للولايات المتحدة أن تفرّط في هذه الريادة، والقيادة لنا في هذا العالم فيما يخصّ المعلومات».

وبالطبع، فإن المعلومة يقصد بها التواصل عبر الأقمار الاصطناعية والتلفزة... ؛ وهنا تكمن القوة والسلطة الجديدة، وليس في كمية الأسلحة. إنه يقول بطريقة غير مباشرة، إنه يجب السماح لدول العالم الثالث بشراء الأسلحة التي ستستعملها ضدها. بالواضح، إن العالم في يد أولئك الذين يتحكّمون في الأقمار الاصطناعية والذين بإمكانهم إنتاج ونقل المعلومات. وهذه القدرة للمعلومة، يطلق عليها اسم «السلطة» والتي تعني سلطة القيود دون استعمال القوة.

لكي تجعل دولة ما، تلبّي طلباتك (رغباتك)، يجب عليك أن تقوم بجلبها وانجذابها، لأنه الآن أصبح مفهوم السلطة، يعني القدرة على تحويل نظرة الناس إليك. يجب تقديم صورة إيجابية عنك وعن قيمك ؛ وازدهار الثقافة يعتمد على هذا.

وأحسن من يقوم بهذه المهمّة، هم المعاهد الفرنسية والمعاهد الإسبانية ؛ الذين يقومون بأعمالهم والتي تترجم وتمرر رسالة ؛ والمكلّفون من فرنسا وإسبانيا يعوّضونهم عن هذا العمل ولو كنت فرنسيا أو إسبانيا ؛ كنت سألومهم على عدم إتقانهم لعملهم، لكن الصدفة أرادت أن يتقنوه. وإن قاموا بعملهم على الوجه الأكمل، فلأنهم وجدوا فراغا. وزارتنا للثقافة غير موجودة ؛ لنا وزير الثقافة يشغل مكتبا بالرباط، لكنه يكتفي بالحضور من وقت لآخر في الحفلات ويتوقف دوره هنا.

في بلدنا، تقوم المعاهد الأجنبية بأنشطة وزارة الثقافة. ما العمل أمام هذا التناقض ؟ أي علاقة بين محورنا الافتتاحي وهذا اللغز ؟ في حقبة الحماية الفرنسية، كان المركز السينمائي المغربي نشيطا منذ 1924 بظهير من ليوطي.

في الواقع، منذ نشأة مركز سينمائي بفرنسا في فبراير 1917، انطلقت شعبة سينمائية تحت الرعاية العسكرية. لقد أسست فرنسا مركزا سينماتغرافيا خاصا بالأشرطة الوثائقية وتغطية أحداث الحرب العالمية الأولى، كي تخبر شعبها بما كان يدور في الجبهة والعالم.

- في المغرب تم إنشاء المركز السينمائي المغربي امتدادا لهذه المؤسسة. عندما كنت في المدرسة الابتدائية، أتذكّر أنهم كانوا يذهبون بالأطفال إلى ثانوية ݣورو وليوطي لمشاهدة شريط سينمائي مرة في الأسبوع.

في كتابه، يقدم بوتبوقالت الطيب، إحصائيات مهمّة تتعلق بعدد الأفلام، وساعات العرض في قاعات الثانويات والمدارس المغربية، أثناء فترة الحماية حتى سنة 1956. إذن السينما هي جزء من ثقافتي. إنه من المهم أن يحتك الإنسان منذ طفولته بتقنية معينة. وهكذا، فإن حفيدتي وعمرها 4 سنوات، ورغم أنها لا تقرأ ولا تكتب، فإنها تتعامل مع الحاسوب أحسن مني، لأنه هناك برمجيات خاصة بالأطفال وهذه البرمجيات تحتوي على صور تتحرّك.

وللرجوع إلى حديثنا السابق، نحن في عصر انفجار المعلومات، وهذا الوضع يتجسد في التحول المنتقل من المادّي إلى اللامادّي. أول جهاز استعمله أديسن، لالتقاط صور، كان علوه 1,50 م وعرضه 40 سم ويبلغ وزنه 90 كلغ، لكي يسجّل شريطا من 30 ثانية أو دقيقة واحدة. أما اليوم فإن الوضع قد تغير، فأصبحت آلات يبلغ وزنها 250 غرام تسجل شريطا من 3 ساعات. في الحقيقة حاجتنا المادية للقيام بعدة مهام وبإتقان أصبحت ضعيفة. إن هذا الحاسوب الذي الآن أمامي لا يزن إلا 3 كيلوغرامات، بينما حاسوبي الأول كان يزن 15 كيلوغراما، وهو أقوى من السابق بـ50 إلى 60 مرة، وآخر مثال يعجبني سرده هو الخط الهاتفي. بالنسبة لطاقة 50.000 مكالمة، يتطلب الخط 33 طنا من النحاس، اليوم، 50 غرام من الألياف البصرية Fibre optique كافية لاستيعاب نفس الطاقة.

في ظرف 4 أو 5 سنوات وعلى أسطوانة من الحجم الذي أصبح رائج الاستعمال، باستطاعتكم الحصول على - وهذا ليس بعلم الخيال - مجموع خزانة الكونغرس بواشنطن : يعني 96 مليون من المجلّدات. وما هو مهم أيضا، هو التقليص المستمر للوقت الذي يستغرقه نقل الأخبار. لقد مررنا من 2000 إلى 4000 بيتس bits ومن 18.000 bits لنصل إلى 36.000 bits. وفي ظرف

4 سنوات ستضم هذه الأسطوانة 96 مليون من المجلّدات (ملايير من الصفحات)، وسيتم نقلها من واشنطون إلى أي اتجاه آخر في ظرف 10 دقائق.

ما هي الأزمة في خضم هذا الوضع ؟ في تقرير نادي روما ـ «من المهد إلى اللحد» (1979)، لقد عثرنا على معادلة جد بسيطة. وكان واضحا أن أزمة التربية تكمن في وظيفة إعادة الإنتاج. لنقم جميعا بهذا التحليل : عندنا طلبة يحضّرون أطروحات ؛ كم حققنا منهم في ظرف 10 سنوات ؟ ومن بين هذه الأطروحات، ما هو عدد الأطروحات التي أنجزت في الميادين العلمية ؟

أريد منكم أن تحلّلوا مضمون التعليم وتقاريره منذ 10 سنوات خلت مع ما ينجز اليوم، وأريد كذلك منكم أن تعطوني درجة التنويع في محتوى التعليم. لماذا هذا السؤال ؟ باحث كبير انكلوساكسوني، والذي أستحضره معظم الأوقات Richard kinght، أقرَّ معطى بتقديم رقم والذي أعرضه عليكم كما هو، لأنني لم أتوفر على الوسائل للتأكّد منه. إنه يقدّر أن مجموع المعرفة الإنسانية ـ التي تراكمت خلال 10 آلاف سنة السابقة ـ تضاعف أثناء الثلاثين سنة الماضية ؛ وبطريقة أخرى، ما أنجز على مستوى المعرفة خلال 30 سنة الماضية، يساوي ما تراكم لمدة 10 آلاف عام. وسوف يتضاعف هذا الرقم في ظرف 15 سنة القادمة.

أنا لا أعلم إذا ما أدركتم تحسّن نسبة ارتفاع المعرفة ! إضافة إلى هذا، لو رسمتم منحنى (Courbe) يُمثل تطوير إمكانياتنا في التعليم وما يُدرَّس اليوم، ستلاحظون الخلل. رغم التطور الذي يعيشه العالم، نحن نعلّم أساتذتنا التخلّف والرجوع إلى قرون خلت.

ولا يظهر هذا الخلل فقط في كتبنا المدرسية، ولكن نلاحظه عند مدرسينا كذلك. ولهذا السبب، يجب عليهم أن يجبروا أنفسهم على التعلم المستمر، بالرجوع إلى المدرسة كل يوم والبحث المتواصل في القواميس. ورفض هذا الشرط، يوحي بالاستعلاء، ويؤدي إلى التخلف ؛ لأن المعرفة لا تسمح بالتكبّر.

سأتطرق بعجالة إلى موضوع الثورة الذي يمس السينما، الناتجة عن الإعلاميات. لدي هنا أسطوانتين، إحداهما أمريكية والأخرى فرنسية، وهما يعطيان مشهدا كاملا للسينما. وستجدون بهما كلما تريدون معرفته حول الموضوع والأشرطة.

لقد تم اختراع جهاز رقمي، وهو عبارة عن ثورة حقيقية سواء على مستوى الصورة والضنع، والجانب الفني واللمسات الأخيرة finition أو عدد النقط بالسنتمتر. ومعي أيضا، هنا شاشة مصنوعة من مواد زجاجية سائلة والتي أدّت إلى ثورة، لأنها تعطيك ملايين الألوان المختلفة ؛ وقواعد أكثر إتقان 800/1000 pixels.

لقد استطعنا أيضا صنع شاشات مسطحة (plats)، وهذه الشاشات لها الآن علاقة بالسينما. إن جودة (...) شاشات السينما عرفت تأخرا كبيرا أثناء الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، كانت السينما سكوب، عبارة عن جهاز ثقيل جدا تعجز عدة قاعات للسينما عن اقتنائه فتكتفي بكرائه. إن الشاشة المسطحة، هي أيضا ثورة تكنلوجية، وفي أقل من 5 سنوات يمكنكم مشاهدة كل ما يتعلق بقدوم ثقافة بأكملها.

وفي الأخير، الثورة الكبيرة الأخرى التي كانت بطوكيو، هي الشاشة بدون جهاز مادّي. إذن هنا أصبح اللامرئي ممكنا بالتأثير على الجزئيات عن طريق تقنية تحت الحمراء infra-rouge. ومع هذا الاختراع الهائل، فإن مشكل الحجم، لم يعد مطروحا أبدا. بإمكانكم التوفر على الشاشات بالحجم الذي تريدونه. لكن يشكّل هذا كلّه بالطبع استثمارا في البحث.

إن مشروعكم نافع ومحمود، وأعتقد أنه من الضروري شكر وتهنئة المنظمين والمشاركين، وكذلك كل من ساهم من المغرب ومن خارجه في إنجاحه بشكل لطيف. وأعتقد أن هذه المبادرة ستكون نافعة وستثير عدة تساؤلات. إن تقرير نادي روما، الذي يحث على الانتقال من تعليم الإنتاج إلى تعليم مجدّد، يؤكد على التشارك (التضامن في المكان)، وعلى التوقع (التضامن في الزمن).

إذا لم نكن متضامنين في الزمن، ولم نتقاسم نفس الأحلام ونفس الرؤية للمستقبل ونفس القدر ؛ لا يمكننا التجديد. وهذا يستوجب إشراك الجميع ويتطلب الحرية والخلق.

إن إشكالية السينما كما هي مطروحة ببلادنا، مرتبطة بقضية البنية التحتية. أعتقد أنه يوجد حاليا بالمغرب 183 قاعة للعرض، وإن أخطأت صححوا لي الرقم ؛ وأنا أتعمّد إعطاء أرقام، وهو الشيء الوحيد الذي أضبطه. وأقل من 80 قاعة تتوفر على تجهيز لائق، وفقط 10 أو 15 قاعة تعرض أفلاما جديدة. في بلادنا وبساكنة تبلغ 30 مليون نسمة، تم إنتاج 4 أفلام مطولة فقط السنة الماضية و11 فلما متوسطا وقصيرا. وإذا كان المغرب يحتل درجة 120 في التطور البشري (وهذه الأرقام تعود لهيئة الأمم المتحدة) في مجال السينما، فإنه لا مجال لنا للافتخار.

إن هذه المؤشرات جد معبّرة، لأن التطور يقاس على جميع المستويات. إذ لا يمكنكم أن تزعموا التقدم الحقيقي، بالاقتصار على إتقان صناعة الجلد أو على السمك المصبّر، إذا لم يكن لديكم مبدعين وفنانين ومطربين ومخرجين ؛ وبالتالي لا يمكنكم أن تعتبروا أنفسكم متقدمين تقدما حقيقيا. في الواقع التقدم يقتضي تكامل عدة عناصر ؛ ولهذا أجد أن المحور الذي اخترتموه لندوتكم جيد ؛ لأن المغرب لا ينتج الأفلام وعدد الأفلام المنتوجة، تعد مروعة.

في سنة 1896، كانت بداية السينما ؛ حيث دخلت لوميير Lumière ميدان السينما قبل فترة الحماية، قبل المهمّة العلمية بطنجة سنة 1906. وفي سنة 1897 أنتج الأخوان لوميير بالمغرب شريط «الفارس المغربي». إذا اعتبرنا 51 شريطا التي أنتجت بالمغرب بين 1947 و1897، فإننا سنكتشف أنه لا علاقة لهذه الأفلام ببلادنا. هناك شريطين يجب مشاهدتهما إن لم يسبق لكم ذلك، هما «المغرب» مع مولين دترنش و«الدار البيضاء» مع هنري بكارت وانكريد بركمان. والهدف من هذين الفيلمين، هو إشعار الناس بوجود بلد

يسمّى المغرب. وهذا ما عجز عنه وزراؤنا في السياحة أو غيرهم أثناء 50 سنة. فعندما ذهبت إلى الولايات المتحدة وعمري آنذاك 15 سنة، لم يكن المغرب بلدا مستقلا، وعندما كنت أقول لهم «المغرب» يجيبونني «آه نعم».

هذه العناوين ليست إلا كلمات، لكن عندما يتدخل الخيال، ليس هناك أكثر خلقا منه. عندما كان هيمر في بوكّار يقول «هي لك أنت يا حبي»، دخلت في اللغة وأصبحت ثقافة تمسّ ملايين البشر، وما وراء هذا كله كان هناك شخصا يفكر ويكتب سيناريو، مثله مثل رسام يتساءل «أي لون أضع ؟ الأخضر أم الأزرق ؟». هذا هو الإبداع، الولادة ؛ واليوم الذي تصبح فيه التربية ولادة والسينما ولادة وإنتاج، تصبح هناك علاقة بين الاثنين، ويمكن لهما الاقتران، وسنأتي جميعا للاحتفال بذريتهما.

21

صلاح الشرقي : جولة في ذاكرة الموسيقى المغربية(*)

في الأربعينيات، كانت للكلمة هيبتها شعرا ونثرا، وللحن قيمته الرفيعة.

استطاع الطرب المغربي في تلك الفترة، التقليل من هيمنة الموسيقى الشرقية.

«جُلْ» ترى المعاني، شطر أول من قصيدة أندلسية، اختاره صاحب القانون الأول في المغرب الفنان صلاح الشرقي عنوانا لكتاب أراده إحياء للذاكرة الموسيقية المغربية وفك «العزلة» عن الإبداع الفني الحقيقي في زمن تكاد تطغى فيه «شبه الأغنية ونصف الإبداع».

لقد رسم صاحب لحن «يارسول الله خذ بيدي»، الذي أدته سيدة الطرب العربي أم كلثوم عام 1968، صورة الموسيقى المغربية العصرية والأصيلة وأثار أوضاع الفنان الموسيقي الحقيقي، الذي يعيش من أجل فنه ويرفض أي نوع من التقاعد بما فيه «الإداري».

يقول الأستاذ المهدي المنجرة، في كلمة صدر بها للكتاب، «إني أعتز بالتصدير لهذا الكتاب، لأن ذلك يتيح لي فرصة ثمينة لأعرب لصلاح الشرقي عن كل ما أكنه له ولعمله من إعجاب وتقدير ومتمنياتي لرمز مدرسة زنيبر الموسيقية والساهر الأمين على بقائها... أوصي القارئ بالتغاضي عن مقدمة الكتاب، ليتنغم بقطعة من تأليف صلاح الشرقي، ويواصل في الوقت

(*) تقديم لمؤلف «جل» ترى المعاني، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء 1997.

ذاته قراءة الكتاب ؛ وإذا حدث ولم يحرك الإصغاء لديه ساكنا، فإني أدعوه لطي الكتاب، لأن القراءة هنا تأتي بالأذن وليس بالعين».

ينطلق هذا الفنان العصامي، الذي اختار فترات من حياته الفنية ليعود بانتظام إلى كراسي الدراسة والتحصيل، ليواكب الجديد في الموسيقى من بدايات تأسيس الأغنية المغربية العصرية في الأربعينيات، ليذكرنا بأيام كانت للكلمة هيبتها شعرا ونثرا، وللحن قيمته الرفيعة.

في تلك الفترات، استطاع الطرب المغربي التقليل من هيمنة الموسيقى الشرقية، ووقف ندا أمام أكبر الفنانين في الشرق، رغم أن الجوق العصري وبعده الجوق الوطني، على سبيل المثال، لم يكونا يعتمدان في العزف على النوطة الموسيقية.

ويجول المؤلف عبر تراث موسيقي خالد، فيذكرنا بأغاني كنا نسترق السمع إليها من خلال المذياع أو جهاز التليفزيون بالأبيض والأسود، والآن نفتقدها بالحسرة، وأحيانا بالألم ؛ فأين الأغنية المغربية، من «قل لمن صد وخان» للأستاذ الراحل أحمد البيضاوي، وتقاسيم البيانو لعبد الوهاب أكومي، الذي توفي وهو يؤدي واجبه نحو الموسيقى المغربية ؛ و«علاش يا غزالي» للمعطي بن قاسم ؛ و«اذكريني» لعبد النبي الجيراري ؛ و«أوما لولو» للمرحوم محمد فويتح ؛ و«بنت المدينة» لمحمد بن عبد السلام ؛ و«خويا يالغادي مسافر» لعباس الخياطي واللائحة تطول. فقد خصص الأستاذ صلاح الشرقي، عشرات الصفحات، المعززة بالصور للعدد الهائل من القطع الموسيقية، التي تزخر بها الخزانة الموسيقية في الإذاعة الوطنية.

لم يكتف الأستاذ الشرقي، بجرد عدد ونوعية الأغاني المغربية العصرية ؛ بل تعدى ذلك إلى إدراج صور وأسماء مطربي الأمس والأمس القريب ؛ منهم بعض «المجهولين» أو «المنسيين» نسبيا، كالمطربتين شموش وبهيجة إدريس، اللتين أديتا إلى جانب عبد الهادي بلخياط رائعة «القمر الأحمر»، ولطيفة أمال. كما «أنصف» البعض الآخر، ومنهم «فقيد الأغنية المغربية، المرحوم عبد السلام

عامر، الذي ترك بصماته الخالدة... ؛ لقد كان موهبة خلاقة متجددة، وظاهرة خاصة حتى وهو لا يعرف القواعد الموسيقية والأوزان».

خصص الفنان صلاح الشرقي، أقساما أخرى من كتابه إلى الموسيقى الحديثة بالمغرب، ولم يستثن ظاهرة الغيوان وجيلالة، التي «نجحت في استرجاع الشباب المغربي من بين فكي الأغنية الغربية، وإدماجهم في الأنغام والموروث المحليين» ؛ لكنه استنكر في الوقت ذاته، «تمييع هذه الظاهرة الفنية من قبل موسيقيين أميين متعسفين»، في إشارة إلى العدد الهائل من المجموعات التي تناسلت هنا وهناك «لكن لحسن الحظ لم تعمر طويلا».

لم يترك الشرقي في المغرب، أي نوع أو شكل موسيقي مغربي، لم يتحدث عنه في أسلوب سلس ومباشر، محللا الموسيقى ومؤكدا على أن «شربة جيدة لن تتأت إلا في طنجرة قديمة».

ولد صلاح الشرقي سنة 1923 بسلا، وتتلمذ منذ صغره على الأستاذ الكبير محمد زنيبر، والتحق بأول جوق عصري بالإذاعة المغربية عام 1952، وانتقل إلى باريس لدراسة الصولفيج سنة 1957. وألف عدة كتب في الموسيقى ؛ منها «القانون في الموسيقى المغربية»، الصادر سنة 1965، و«أضواء على الموسيقى المغربية» سنة 1976، ومؤلف «الموسيقى المغربية»، الذي ترجم إلى اللغتين الفرنسية والانجليزية عام 1981 و«الإيقاع والمقامات» الذي صدر سنة 1993.

حاصل على وسام الرضى من الدرجة الأولى (1974)، وعلى ميدالية الكفاءة الفنية من طرف الجمعية الدولية للمؤلفين بباريس في نفس السنة، كما حظي بتكريم من عدة أوساط فنية وإعلامية.

«جل تري المعاني» صادر عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء سنة 1997 في 254 صفحة من القطع الكبير. تصدير المهدي المنجرة وتقديم علي الصقلي.

22

لنا التلفزة التي نستحق

حسب الخبير المغربي في المستقبليات أ. المهدي المنجرة، فإن تاريخ السمعي البصري بالمغرب، يرجع إلى الخمسينات، عندما أخذ القرار باسترجاع الشركة «تلما» Telma التابعة لراديو المغرب آنذاك، وجعلها أول تلفزة بإفريقيا قبل أن يلغي المشروع نفي محمد V رحمه الله. في سنة 1959 المهدي المنجرة، المدير العام لدار الإذاعة والتلفزة المغربية آنذاك، جعل الحكومة المغربية تصادق على ظهير يعطي السيادة للدولة. وبعد ذلك دخل في مفاوضات مع «تلما» لشرائها من طرف الحكومة المغربية. وكان الأمر كذلك في ماي 1960 على بضعة أيام من استقالته من دار الإذاعة والتلفزة. ورأت الإذاعة والتلفزة المغربية (RTM) النور يوم 3 مارس من سنة 1963، حيث بثت برامجها لأوّل مرّة.

عرفت حاليا، القناتان الوطنيتان، تغييرا على مستوى المديرية، القرار الذي أثار جدلا واسعا حول مستقبل القناتين، الأولى والثانية. وللمهدي المنجرة تصور واضح للقناتين، عندما يتبث أن هاتين القناتين لم تعرفا أي تغيير. منذ زمن بعيد، والنظام يستعمل الإذاعة والتلفزة المغربية لخدمة مصالحه ؛ إنها مؤسسة تابعة للمخزن. بينما القناة الثانية، تأسست على يد مجموعة من الأشخاص الذين يبحثون عن التواصل مع أقلية مغربية ؛ بما أن 3/4 من برامجها تذاع باللغة الفرنسية ؛ وهو استفزاز ثقافي وضد الشعب المغربي، لكن الأهم أن لنا التلفزة «التي نستحق». نقطة أخرى، يهتم بها

(*) 03/06/2000 الدار البيضاء Le journal

الباحث، تتعلق بإمكانيات تطوير المشهد السمعي البصري، «إنني لا أعتقد أنه بمجرّد تغيير مدير أو رئيس، يمكننا تطوير أو خلق تلفزة حقيقية ببلدنا. الطريقة الوحيدة للتطوير، هي أن تكون لدينا سياسة عامة، ورؤية مدروسة ومقاصد مع سياسة واضحة في إطار نموذج تنموي داخلي. ولن يتم هذا، إلا في إطار قانوني، يتكيّف مع مجتمعنا ؛ ويعني هذا، خلق مجلس للسمعي البصري. ما لم يكن هناك انفتاحا حقيقيا، وأقصد هنا حرية الخلق المغربي، كقنوات جديدة وإنتاج مغربي، يصدر عن مؤسسة وطنية في إطار قانوني ؛ فإن التطور الحقيقي ستعترضه حواجز في السير إلى الأمام».

فيما يتعلق بالقناة الثانية، والتي كانت بالنسبة لعدد مهم من الاختصاصيين، الفرصة الوحيدة لإنشاء تلفزة مستقلة ؛ فإن الأستاذ المنجرة يصرّح بأن : «القناة الثانية والتي كانت في البداية تلفزة حرّة والتي استفادت من إمكانيات فعلية مادية وبشرية، لم تقم أبدا بالدور المنوط بها، ولا حتى بعدما أصبحت تلفزة وطنية وعندما بدأ المواطن يؤدي من أجلها بطريقة مباشرة ؛ والسبب يرجع إلى عدم ملاءمة برامج هذه القناة مع الوضع المغربي اجتماعيا وثقافيا».

هناك نقطة أخرى، تطرق إليها الأستاذ المنجرة، وهي مستقبل التلفزة والتغيير الذي سيعرفه هذا القطاع مع التقدم التكنولوجي : «على المسؤولين أن يفهموا الأولويات، مع ثورة الأنترنيت والتكنولوجيا الجديدة ؛ إننا في اتجاه تلفزة حرة ومتواجدة، سيجد فيها الشباب فرصة للخلق وبثّ مهاراتهم دون أي مراقبة أو اعتبار سياسي».

23

لا تنمية بدون رؤية، بدون حرية وبدون إبداع(*)

الدكتور المهدي المنجرة الاقتصادي والباحث في المستقبليات، هو ضمن الألفين شخصية، التي طبعت القرن العشرين حسب أحد المراكز الكبرى الدولية للتراجم. ومسؤول سابق بقطاع الثقافة والعلوم الاجتماعية والإنسانية باليونسكو في السبعينات. وهو صاحب عدة مؤلفات، نذكر منها : «الحرب الحضارية الأولى»، «عولمة العولمة»، «القدس العربي» ؛ بالإضافة إلى عدة محاضرات ومداخلات، والتي يمكننا الاطّلاع عليها على موقعه بالأنترنيت(**).

في هذا الحوار يدلي لنا، بصفته ناقداً ومفكّراً بآرائه حول الفنون التشكيلية وعلاقة الفن بالمجتمع، كما سيتحدث لنا عن شروط انتفاضة خلاّقة في العالم العربي.

س : ما هو مكان الإرث الحضاري المغربي في مجال الفنون المرئية بالنسبة للإرث العالمي ؟

ج : سأبدأ بملاحظة عامّة : إن الدول الفقيرة ليست بتلك التي لا تملك موارد طبيعية، كالغاز والنفط ؛ لكنّها هي تلك الدول التي ليس لها فنّانوها وتعيش بدون فن. إن الفن من الناحية الجمالية، يكمن في مكوّنات الذهن وفي العلاقة مع الجمال الذي يجب البحث عنه. كل شخص يعيش حياة، يجهل فيها الجمال أو ينكره بالنسبة لي، هو شخص حي ـ ميت.

(*) اجرى معه الحوار أحمد فاسي برنامج «علون» راديو طنجة يونيو 2000 دار الإذاعة والتلفزة المغربية، طنجة – المغرب.

(**) <www.elmandjra.org>

وإن أردتم معرفة وضع الحريات وحقوق الإنسان والديمقراطية في مجتمع معيّن، يكفيكم ملاحظة العلاقة بين المسؤولين والفن والفنّانين. وإن أردتم اكتشاف خلل وسبب الشر، ابحثوا عن أولئك الذين يشجّعون الرداءة.

إن مكانة المغرب في الإرث الإنساني، تجاوزت وإلى حد كبير، حدود المغرب، والإرث الثقافي المغربي لا يكفّ عن التأثير في الفكر والتعبير الفني.

س : هل يعكس المنتوج الفني المغربي ثروة إرثه وتنوّعه الكبير ؟

ج : إن الإرث الحقيقي، هو عندما لا نعيش على حساب هذا الإرث ؛ لكننا نعتبره كقنطرة لأمور أخرى. وهذا لا يعني أن لي حكما مسبّقا اتجاه الماضي، أو التقليص منه. الماضي لا يكون ماضيا إلا عندما يكون، في وقت معين، مستقبلا لماضي سابق.

الفن يُقيّد طريقة رؤيتنا ويشجّع على تنوير الرؤى. ذلك أن التخلّف في الدول الجنوبية، سببه غياب الرؤية التي تحرمنا من تصور شامل وصحيح للأمور على المستوى الثقافي والاقتصادي والاجتماعي. ومثل هذه الرؤية لا يمكن أن تصدر من شخص واحد ؛ بل من مجتمع يتمتع بالحرية والإبداع الفنّي.

لنستحسن النموذج الياباني، ليس فقط على المستوى الاقتصادي، لكن على المستوى الفنّي أيضا. يجب اعتبار المسألة التالية : عندما نتحدث عن الفنون التشكيلية، نتحدث عن محيط، تكون فيه الظروف الملائمة للخلق والإبداع مجتمعة سواء في مجال الرسم والنحت والموسيقى أو الشعر...؛ بصفة عامة، فإن النتيجة تظهر بسرعة.

فعندما كنت مسؤولا عن الثقافة باليونسيكو، في الوقت الذي كان فيه André Mahause وزير للثقافة في فترة حكومة دكول، كنا نتداول على 1% من القوانين، مما يعني أن 1% من الميزانية المخصّصة لبناء الإدارات الرسمية

للحكومة، يجب أن تُخصّص لتشجيع الإبداع الفنّي بفرنسا. حاولت إقناع المسؤولين بتبنّي قوانين مُشابِهة في دول أخرى، خصوصا في العالم الثالث، لكن بدون جدوى.

ثم إن وضع الفن مرتبط ارتباطا وطيدا بوضع التربية. إذا كان لديكم شعبا يعاني نصفه من الأمية و 50% يكابد مرض «فقر الدم»، كما هو الحال بالنسبة للمغرب، كيف لكم أن تتوقعوا أن تكون لوحات الرباطي والدمناتي والقاسمي والغرباوي والشرقاوي، موضع استحسان ؟ في حين أنني لم أذكر إلاّ موتاهم، هناك أولويات. اهتمامي بالفنون التشكيلية بالمغرب، لا يرجع فقط إلى لقائي بمولاي أحمد الشرقاوي أو بفنانين آخرين مغاربة ؛ إن يؤكد هذا الاهتمام، هو إيماني بأن الفن هو المفتاح الأساسي لفهم المجتمع المغربي.

وهذا ما عبّرت عنه وبصورة واضحة في كتابي «مسار فكر» ؛ حيث عبّرت فيه عن أملي في محاربة جهل الفن عند المسؤولين. في دولة متخلفة، يؤسف له أن يقود الجهل إلى السلطة. في دولة متقدمة، هناك معايير، وشروط ضرورية للولوج إلى السلطة، منها ثقافة المرشح. ففي ديننا يقال، إن «الله جميل يحب الجمال»، لكن تواجد الفكر في العلاقة مع أمور الفن، ليست بقضية تربوية، إنها إشكالية ترتبط بمسلسل تقدّم مجتمع.

هل لنا في برامجنا التعليمية تخطيطا دقيقا مناسبا لبداغوجيا الجمالية ؟ هنا يكمن تخلفنا ! ويظهر التناقض ؛ لأنه في الوقت الذي نعيش فيه تخلّفنا، سواء على المستوى الاجتماعي أو على مستوى السياسات الحكومية ؛ نلاحظ أنه رغم كل هذا، نتوفّر على مبدعين من درجة عالية ومُعْتَرف بهم على الصعيد الدولي. لكنني أخشى هجرة هؤلاء المبدعين، إن هم لم يجدوا الأجواء المناسبة كنظرائهم المهندسين والكفاءات الأخرى. وسوف يشكل هذا خسارة كبيرة لبلدنا.

س : وهذا ما يحصل، إذا رجعنا إلى ميدان الفن، للناقدين الشباب الذين ينبدون ضعف بلادهم ويكتبون بانتظام في مجلاّت أجنبية، لأن وسائل إعلامنا لا تقيم وزنا لكتاباتهم أو تمنحهم تعويضات هزيلة، إن كان لهم الحظ فيها.

ج : إنها ليست هجرة. إنّهم لا يهاجرون، بل هم مطرودون لذلك. إنها سلوكات تثبّط الكفاءات. في السبعينات، عندما كنت باليونسكو، وبما أننا بصدد الحديث عن الفنون التشكيلية، كانت هناك بالعالم العربي أربعة مدارس، مدرسة سودانية والثانية عراقية ؛ وكان المغرب يحتل الرتبة الثالثة وتونس الرتبة الرابعة ؛ أين نحن الآن ؟ حتى في مجتمعنا، لا نعطي للفنان الأهمية التي يستحقها. ربّما سيحصل هذا في القرن القادم !

س : لنرجع إلى ناقذي الفن بالمغرب. منذ الستّينات وبداية السبعينات، لم تعرف الساحة الفنية هذا الجدل حول إشكالية الهوية، والمناقشات التي أثارتها نصوص محمد الشبّاع ومحمد بنيس والنيسابوري...؛ هل هي فترة ركود أم فترة تأمّل...؟

ج : سؤالك مهم. نتكلم عن أدب عندما يصحبه نقد ؛ ونفس الشيء بالنسبة للفن. لا أعتقد أن لنا أكثر من 4 أو 5 كتاب لهم مؤهلات لنقذ الفن. إنه عمل يتطلب ثقافة ودراية واسعة بتاريخ الفن، وعلاقة الفن بالمجالات الأخرى من المعرفة ؛ دون أن ننسى دراسة معمّقة للقيم وعلاقتها بعمل الفن، مع تجديد متواصل للمعرفة. ويقتضي هذا كذلك علاقة لا مفر منها مع أشكال أخرى من الفن. وكل مجال له ظروفه ومعاييره.

إنه لمن المحرج، أن يتخيل الإنسان حياة تجهل الجمال. الأشياء الجميلة بكل بساطة، من الصباح إلى المساء ؛ جمال الطيور، الورود والأشجار، السماء، النجوم وجمال الإنسان. لا يهم، إن كانت لنا ميولات للملحون أو الموسيقى الكلاسيكية أو الجاز أو البوب ؛ المهم أن نتأثر بجاذبية الجوّ الذي نتواجد فيه، بالجمال. إنه الزمن الوحيد للحياة، للوجود الحقيقي. وهكذا أتصور دور الفنون التشكيلية ووظيفتها في الحياة.

س : الفنانون المغاربة رسامون بارعون، لكن لا نحس بتورطهم الحقيقي في التيارات المختلفة والحديثة للفن المعاصر.

ج : إنها مرحلة ؛ عندما يشتغل الفنان، كما هو الحال في جميع دول العالم الثالث، بدون مؤسسات صلبة وبدون بنية وبدون أي اهتمام من المؤسسات الحكومية ؛ وفي غياب النقد والمتاحف والدوائر المستديرة والندوات والحرية... ؛ في مثل هذه الظروف ماذا تريدون منه أن ينتج ؟ من جهة أخرى، فإن كل فنان يمر عبر عدة مراحل. والفترة الحاسمة بالنسبة للفنان، هي الفترة الانتقالية التي يمر بها من مرحلة لأخرى. المعاصرة أو العصرنة، هي تلك التي تخرج من باطن الفنان ومن تبادل الآراء مع الآخر.

هناك ميولات دولية تظهر ؛ يتكيف الفنان معها دون أن يبقى راكدا. إذا أخذنا حالة الفنون التشكيلية بالمغرب مثلا، فسن لوحة المصوّر المغربي لا تتجاوز 60 إلى 70 سنة. إنه مجال يقتضي حرية كبيرة للفنان سواء تحدث عن المعاصرة أو العصرنة... إن المصطلحات لا تهمني. المهم هو علاقة الفنان بلوحته، وحواره مع إبداعه والثقة بنفسه، ويكون هذا الإنتاج نقطة انطلاقة لمرحلة أفضل. إنها الحركة الباطنية بين الفنان وما ينجم عن ذلك ؛ ومن تم بين المنتوج الفني والمجتمع والصّدى الذي يخلّف...

س : فيما يتعلق بالإبداع على المستوى العالمي، ما رأيكم في بعض الميولات الحديثة للفن، مثل الفن الجسدي عندما يصبح جسد الفنان وسيلة، أو الفن الأرضي الذي يقتضي تدخلات هائلة فوق الرمال، وفي الغابات... أو بصفة عامة، الفن الذي يطلق عليه الفن التصوري، الذي ينطلق من مفهوم أو من فكرة بسيطة، قد تعني مثلا طلب فنان من متطوعين أن يُصوروا على شريط وهم عراة، نراهم من الخلف وهم يركضون..؟ ما رأيكم في هذه التيارات أو الأهواء البسيطة ؟

ج : إنني لا أستقبح أي تجربة، كيفما كان نوعها في ميدان الإبداع الفني. إنها مسؤولية الفنان، والكلمة الأخيرة تعود إلى الجمهور العريض

والاستحسان الجماعي. كنت مؤخرا بكندا، حيث شاركت في شريط حول الفن الجسدي، وهي مدرسة يكون فيها المنتوج، لوحة أو نحتا، مُكوَّنا من مواد حيّة أصلها من الشجر والحيوان وأحيانا من العظام.

بالطبع، لدي رأي وموقف أخلاقي ؛ لكن ليس من باب الأخلاق، التي لا تخضع لمذاهب صارمة لتصبح بالتالي مقيّدة ؛ وإلاّ بأيّ حق ننتقد فنانا ما لم يؤذ أحد ؟

س : هل لنا أن نتفاءل بالنجاح والاستمرارية للفن المعاصر، أم هل لنا أن نتوقع حنينا أو عودة إلى الفن القديم ؟

ج : هناك تأويل بسيط جدا، بالنسبة إلي : كل فن فهو معاصر، لأنني لم أعرف فنا في يوم من الأيام، لم يكن معاصرا. لو رأيتم حاليا Van Gogh، فهو لازال معاصراً منذ عدة عقود ؛ ونفس الشيء ينطبق علٰى Michel Age ولم لا ؟ وPicasso من القرن الماضي الذي سيظل دائما موضع إعجاب ! إن الفن يتعدى المكان والزمان.

س : وهل تعتقدون أن لنا الحظ في بروز فنانين جدد كـ Dali Rembrandt أم تعتقدون أن التقدم التكنولوجي قدّم تسهيلات ولن نعرف إلاّ نماذج منسوخة عن المعلّمين السابقين ؟

ج : هناك مبدعين أعطوني درسا في الفن ولن أنساه طالما حييت : أولهما، Kenzo Tange، أكبر مهندس في القرن العشرين، الذي قال لي ذات يوم : «أتعلمون ما الفرق بين مهندس مبدع وغير مبدع ؟».

والثاني، يفسّر لي، منطلقا من المضمون، ويتصور البناية كما يبصرها، بينما المبدع الحقيقي، يتخيل التصميم انطلاقا من لا شيء. وفي هذا التصوّر كان الفارابي، العبقري الأول في الموسيقى العربية، يدرس نفس الشيء بطريقته حول الصمت في الموسيقى ؛ إذ كان يتحدث عن التركيز، الصمت بين نوطتين (notes).

ومرة أخرى، سمعتها من كاتب الكلمات الموجي رحمه الله، عندما قلت له : «لقد كنت رائعا !»، فأجابني : «إن الروعة هي الأذن التي تسمع». سأقول نفس الشيء فيما يتعلق بمستقبل الفن الكوني، سيكون هناك Rembrandt وآخرين، و Picasso وآخرين ؛ لكن في قوالب تكون فيها عيون لرؤيتهم. المنتوج الفني المغربي، هو مرآة لوضع اقتصادي سوسيوسياسي وثقافي، وعند ازدهار هذا الأخير، فإن الفن سيزدهر كذلك.

س : ما هي أفضل وسيلة لتشجيع الإبداع التشكيلي بالمغرب، هل بالعودة إلى المنابع، العلامة، الرمز، المواد المحلية، البحث عن الإلهام في الإرث ؟ أم الإبداع الذي يجهل كل توجيه وكل إيديولوجيا ؟

ج : المصداقية الحقيقية هي احترام الذات...، إن الفنان الذي لا يحترم نفسه، لا يمكن أن يكون مرجعية لا بالنسبة لمحيطه ولا لإرثه الثقافي ولا بالنسبة للمادة والألوان المخيّمة التي تؤثر فيه.

الإبداع يقتضي الاستقلالية. في مدارس الفنون : يجب تزويد المتعلم بمقاربات متنوعة كي يكتشف مجموعة من الطرق، تجعل علاقته بهذا التيار أو أي نوع إبداعيّ، تأخذ طابعا ولمسة خاصة به. وإذا لم نكن أحراراً في اختيار نوع التعبير والوسائل، أو بالأحرى أحراراً في اختيار مواد الإبداع ؛ فإنه ليس هناك مجالا للحديث عن الفن. لا يهم أكان عملا تصويريا أو عملا من نوع آخر ؛ يكفيني أن أبصر في العمل نوعا من الجمالية.

إن العلاقة مع العمل الفني، تحصل من النظرة، من إحساس مثله مثل قطعة موسيقية، أغنية ؛ من اللحظة الأولى إمّا تستهوينا أو تمر مرّ الكرام عليها.

س : في رأيكم ما هو السلوك المثالي للفنان ؟

ج : في البداية، عليه أن لا يخضع لأي وصية ماعدا إلهامه. بعد ذلك يتبادل الآراء مع الآخر. وفي الحالتين، يجب إعطاء الأولوية للفطرة. والمبدأ الأكبر هو النزاهة، إن الفن نظيف والعلاقة بالفن يجب أن تكون في مستوى هذه الخصلة. إن الفن نوع من الصلاة، وعلى الفنان أن يكون مقتنعا بفنه، بنفسه

كفنان وعليه أن يحافظ على كرامته، لأن هذه الأشياء تترجَم في لوحته. وأخيرا فإن التواضع ضروري، إنه مفتاح تطوير الفنان وعمله.

س : كيف تنظرون إلى النقد الفني ؟

ج : عليه أولا أن يكون له ميلا للفن. وهذا أمر طبيعي، لكن عليه أن يكون على درجة من الإطلاع إضافة إلى حد أدنى من معرفة كل ما يتعلق بتاريخ الفن : المقاربات المختلفة والأشكال المتنوعة للاقتباس وفنّ تمييز الأساليب ؛ وعليه كذلك أن يكون متخصّصا. كيف لنا أن نبرع في هذا الميدان، عندما نحضّر في الصباح ورقة تتعلق بمؤتمر سياسي، وفي المساء ورقة في الرياضة، وفي فترة الاستراحة نشرع في عمل ربيع أو القاسمي ؟ إنه يستوجب قدرا من الجاذبية.

إن التشابك مع القطعة الفنية ضروري. رغم أنني كتبت المقدّمة لأول أطروحة للمرابط حول الفن التشكيلي بالمغرب، ومقدمة مؤلف حول بن يسف، فإنني لا أزعم أنني ناقد في الفن ؛ إنها مسؤولية. وفي الأخير، يجب على الإعلاميين أن يعطوا مكانا للنقد الفني، كما أعطوه للرياضة، بتخصيص على الأقل صفحة للنقد الفني، كما هو الحال بالنسبة للمسرح وللشعر. إن النقد مدرسة...، إنها درس الحضارة والحب.

24

الإنتاج الثقافي
واقع وتصورات

منذ الاستقلال، احتلت الثقافة بالمغرب الدرجة الثانية. والمهن المرتبطة بالثقافة لا تعتبر كمهن حقيقية. وكحجّة على ذلك، فإن ميزانية وزارة الثقافة هي الأصغر. في هذا الاستجواب، يحاول المهدي المنجرة أن يبرز واقع رهان الإنتاج الثقافي ببلادنا.

الصحيفة(*) : لا أحد يشكّ في ثروتنا الثقافية بالنظر لأكثر من 11 القرن من التاريخ. ومع ذلك، فإن الإنتاج الثقافي بالمغرب يعرف فقرا مرعبا. برأيكم ما هي أسباب هذا الفقر ؟

المهدي المنجرة : إن أسباب هذا الفقر تكمن في السؤال. في الواقع، إن أحد هذه الأسباب، تكمن في وجود فجوة بين الإرث الثقافي والإنتاج الثقافي. في الحقيقة، تكوّن الإرث الثقافي في فترات من التاريخ، كان فيها المنتوج الثقافي جد نشيط (متحرك)، الشيء الذي أنعش الإرث وأغناه ؛ إذن هناك علاقة عضوية بين الإرث والإبداع. وعندما يتقاعس هذا الأخير، فإن الأمور تتقلّص، ونشاهد آنذاك تجميداً للإرث، وتقزيمه ونشعر بالتالي بحنين إلى الماضي.

وبعيدا عن كل تعلق بالماضي، فإعطاء القيمة للإرث الثقافي، يعني أنه لدينا إنتاجا يكون في مستوى ذاك الإرث، وعدم تحويله إلى فلكلور. وإذا

(*) Le journal Hebdomadaire, Casablanca 12/05/2001

سردنا فقط هذا المثل : «زمن المغرب»، الذي شكل صورة استهزائية للإرث المغربي وحجّة على غياب الإبداع الذي تفتقر إليه بلادنا اليوم.

الأسبوعية : في هذا العالم الذي يؤدي إلى ثقافة موحدة بشكل متزايد، ما هي الأخطار التي تتعرض إليها بعض الشعوب فيما يتعلق بالمحافظة على الهوية الثقافية ؟

م.م. : إنني لا أومن بوجود ثقافة موحّدة، ذلك أن Fernand Braudel في هذا الصدد يقول : «نكشف ثقافة بما ترفض استيراده». لأن تفاعل الثقافات أمر غير سلبي، شريطة أن يكون هناك ضبط التبادل لتفادي التقليد الأعمى، الذي يفرغ هذه الهوية من محتواها. لكن إذا كان هناك خطابا ذاتيا ديماغوجيا، فإنه سيكون حاجزا لتطوير الإنتاج الثقافي الصادق.

وفي بلدان كبلدنا، فإن الانعكاسات المتواصلة للاستعمار، تجعلنا في وضع تبعية ثقافية، وتقليد يرجع سببه إلى الشعور بالخوف الناجم عن عقدة النقص اتجاه الأجنبي من جهة ؛ ومن جهة أخرى، إلى جهل قيمة الثقافات الأخرى من طرف المتعصّبين للهيمنة. في الحقيقة، إن القوي يرغب في تكيُّفك مع ثقافته بقدر ما يميل الضعيف إلى التشبّه به.

الأسبوعية : في نفس التصوّر، ما هو دور الدولة في تطوير الإنتاج الثقافي ؟

م.م. : إننا نعاني من نقص في التواصل، مُضاعف بأبوية مرضية للدولة فيما يخصّ الإنتاج الثقافي. طالما هناك غياب تمثيلية حكومية ؛ ولذلك لا يمكن أن تكون هناك تنمية ثقافية، لأن على الدولة أن تستجيب لحاجيات منتجي الثقافة وتتفادى التوجيه، وتعيش الواقع، بجسّ نبض المشاكل كما هي، وتحترم الكفاءات وتضمن «للفنّانين» أدنى قسط من المشاركة في خلق سياسة ثقافية حقيقية. وبشأن هذا الموضوع، ألح على أن استدعاء أجانب إلى الساحة الثقافية لتنظيم مهرجانات، كالمهرجان الدولي للسينما، والذي ستحتضنه مدينة مراكش في شتنبر، لهي مسبّة للجمهور، بقدر ما هي

إهانة للكفاءات الفنّية في الميدان. علينا أن نعمل كل ما بوسعنا لنتجنّب «مخزنية» الإنتاج الثقافي.

الأسبوعية : جُل المتدخّلين في الإنتاج الثقافي، يطرحون الصعوبات المالية كأول حاجز يحول دون الإنتاج الثقافي. هل لا زلنا نعيش في العقلية التي تفرض انعدام إسقاطات اقتصادية ثقافية مؤكدة ؟

م.م. : بصفتي أولا اقتصادي، لقد ناضلت طويلا، في إطار اليونسكو ومؤسسات أخرى، من أجل فكرة التكامل بين الاجتماعي والاقتصادي في تنمية المجتمع. وأدركت أن هذا التكامل لن يكون فعّالا إلا إذا تُوِّجَ بتشجيع الثقافة. في الواقع، إن الثقافة هي مفتاح التنمية في جميع المجتمعات، كما صرّح بها René Mahen (مدير عام لليونسكو في فترة ما بين 1961 و1974) : «إن التنمية هي عندما يصبح العلم ثقافة». في الحقيقة، التنمية الثقافية تضمّ جميع أنواع الثقافات الأخرى. بالمغرب، للأسف، فإن الهرم عكس ذلك : إن الحصيلة لأكثر من أربعين سنة من الاستقلال تعلن عن نسبة %60 من الأمية، وعن مدخول سنوي لكل فرد حوالي 1000 $ وتفاوت متزايد بين الأغنياء والفقراء ؛ فضلا عن غياب معطيات دقيقة حول واقع الإنتاج الثقافي، مما يجعلنا نرتجل ؛ والنتيجة هي أن غياب الرؤية يعرقل بآزدياد أي تنمية ثقافية في بلادنا.

الصحيفة : في نفس الاتجاه الفكري، هل يمكن للثقافة أن تكون عاملا حيويا للواقع السوسيواقتصادي ؟

م.م. : لدينا عدة مبدعين بالمغرب، لكن كل نشاط إبداعي يتطلّب محيطا مناسبا وإمكانيات مادية ضرورية. إضافة إلى ضرورة مجهود الرفع من قيمة الإنتاج الثقافي لتشجيع وإعطاء قفزة للإبداع. بالمناسبة، إنه مُخجل لبلدنا، الذي توجد به مدرسة كبيرة للفنون التشكيلية، ان لا يتوفر على متحف للفنون المعاصرة. وغير معقول، أن تكون لوحات الفنانين، كالرباطي والدمناتي والشرقاوي والغرباوي رحمهم الله، غير

معروضة بالمغرب. إنها ذاكرة آيلة للضياع والخطر، تكمن في كون الطبيعة لا تحبّ الفراغ.

وإذا لم تقم الدولة بتأطير وتشجيع الإنتاج الثقافي، فإنها ستعطي الفرصة لآخرين للقيام بهذا الدور ؛ وفي هذه الحالة، فإن الدور الذي سيلعبه المتدخلون الأجانب، هو الذي سيبرز، والإنتاج الثقافي سيبقى على الهامش. أريد أن ألقي اللوم على غياب سياسة ثقافية في بلدنا. المفروض من الدولة، أن تؤمن إطارا اجتماعيا ودعما اقتصاديا حقيقيا للمبدعين، لأن الصعوبات المالية، تحول دون إبداعهم وبالتالي إنتاجهم ؛ وهذا يهمّ جميع قطاعات الإبداع. وإذا لم يتغيّر الوضع، فإن المبدعين سيبحثون عن دعمهم في أماكن أخرى.

25

سعيد الشرايبي : نشيد العود(*)

من الأقوال المأثورة، أن «الصمت من ذهب» ؛ وفي الموسيقى يغدو الصمت قاعدة ذهبية. ويستعمل الفارابي في رسالته في الموسيقى مصطلح «التركيز»، للتعبير عن الصمت المتخلل لنوتتين موسيقيتين. وقد سألني يوما منير بشير، أحد أكبر رجالات العود في القرن العشرين (وهو الذي عبر لي في حياته عن إعجابه الكبير بمهارة سعيد الشرايبي) : «كيف يمكننا التعرف على شخص مولع بالموسيقى ؟». فكان أن علمت منه أن من يتذوق الموسيقى، ينصت بالأحرى للصمت الذي يتخلل النوتات أكثر من إنصاته للنوتات نفسها.

ولا يمكن للمرء منا أن يتذوق فعلا موسيقى سعيد الشرايبي، إلا إذا هو أنصت للصدى المغناطيسي للصمت المنبعث من عوده. قال بول كلي (Paul Klee) : «إن الفن لا ينسخ المرئي، وإنما يجعل الكائنات مرئية. وأنا أعتقد أننا إذا نحن طبقنا هذه القولة على مضمار الموسيقى، فإننا سنجد أن «الموسيقى لا تنسخ المسموع ؛ وإنما تجعل الصمت مسموعا». فالصمت الذهبي لعود الشرايبي، شاهد مقنع على ذلك، ويستحق أيما استحقاق «العود الذهبي»، الذي منحته له النقابة الحرة للموسيقيين يوم 12 يناير 2002. وهي مبادرة تشرف فنانا مرموقا وفنا راقيا، ومعهما المؤسسة المانحة لهذا الاستحقاق.

إن موهبة سعيد الشرايبي، تُبرز الجانب المتعدد الإحساس للموسيقى. ذلك أنها تساعدنا على الإنصات إليها بأعيننا، والنظر إليها بآذاننا، وإدراكها

(*) الاتحاد الاشتراكي 31 مارس 2002، وبالصحيفة يوم 2002/01/18.

من خلال مسامعنا. فعوده يسحر الأذن ويغنيها. ويحرّك المشاعر ويبعث السكينة في النفس. كتب يهودي منوحين، بأن «بتهوفن قد أصبح أصمّا كي يحسّن السمع». فالموسيقى العجيبة الرائعة تساعد الحواس على تبادل مواقعها أو التمازج حين ينبعث سموُّ المرئي والمسموع في الآن نفسه. لهذا يتطلب الإنصات لسعيد الشرايبي، تركيزا يكون حسيا وروحيا في الآن نفسه ؛ وذلك قصد التمتع بالرقة والعذوبة التي تحتويها ارتجاجات أوتار عوده، وتوتر الموجات الصوتية التي تنبعث منها.

إن حاسة السمع مركزية. فعلم الأجنة يعلمنا بأنها الحاسة الأولى التي تنمو لدى الجنين ؛ والقرآن الكريم يذكر دائما السمع قبل البصر ﴿فالله سميع بصير﴾. ومن تم، تساعدنا عبقرية الموسيقيين ليس فقط على تقدير روعة الأصوات والتناغمات ؛ بل تساهم أيضا في تربية الحواس. ولا يسعفني إلا أن أستشهد مرّة أخرى بالمرحوم منير بشير، الذي أجابني عندما عبّرت له عن إعجابي بعد أحد عروضه الموسيقية : «ليس تمة من موسيقيين رائعين، تمة فقط آذان رائعة».

وعود سعيد الشرايبي يمحو أمية السمع ؛ فلا تتمالك مشاعرنا إلا أن تهتز أمام شاعرية أنغامه وذكاء مضرابه، ورشاقة أنامله والحميمية العاشقة التي تجمعه بعوده. هذه الآلة العريقة والصوفية والأسطورية والربانية والفتانة، التي خصص لها في الأنترنيت ما ينيف على 318 ألفا من الوثائق (محرك البحث غوغل)، نعثر من بينها على العديد من الإحالات لسعيد الشرايبي، من موجز سيرته الذاتية إلى إصداراته الموسيقية، إضافة إلى نصوص تكرم هذا المبدع الموهوب وتضع اسمه في مصاف أسماء، من قبيل منير بشير وناصر الشمة ورابح عبو وآخرين غيرهم.

إن سعيد الشرايبي فنان «عظيم»، بما تحمل هذه الكلمة من معاني سامية. ذلك هو رأي أفضل الاختصاصيين، أولئك الذين منحوه العديد من الجوائز، كجائزة العزف على العود (ببغداد سنة 1986)، وجائزة

مهرجان العود بالسويد التي نصبته أفضل عازف للعود في العالم منذ سنتين. ناهيك عن جوائز أخرى لكن سنكتفي بهذا القدر...

وإذا ما نحن أردنا فهم تاريخ وتطور الغناء والموسيقى في العالم العربي، فإن ذلك يمرّ لا محالة بالحديث عن موقع العود فيه. لقد كان الغناء العربي في بداياته يسمى «الصوت» ؛ وكان العود وقتها الآلة المصاحبة الوحيدة ؛ ومن تم، تلك القرابة الوثقى بين العود والصوت. وهذه العلاقة تفسر لنا لماذا يكون أغلب عازفي العود أيضا موسيقيين ؛ فالموسيقيين المرموقين عازفي عود، بارزين، كعبد الوهاب والقصبجي والسنباطي والموجي والبيضاوي وعبد القادر الراشدي ؛ حتى نكتفي فقط بذكر الراحلين. إن هذا يساعدنا على فهم تعددية مواهب سعيد الشرايبي والتنوع الغني لإبداعاته الفنية، بحيث من الصعب التمييز فيها بين الموسيقى والعازف.

لقد آن الأوان لكي نعترف بأن لا وجود لنماء اقتصادي وتطور اجتماعي ممكن، بدون تشجيع للإبداع الفني وبدون تقديس للجمال (فالله جميل يحب الجمال). إن ما ينقصنا هو إيديولوجية معاصرة للجماليات. وقد قال أندريه مالرو، بأن علينا أن «نفتح أعين الشعب على الجمال بالشكل نفسه الذي علينا فتحها على الروابط الوثيقة بين الفن والحرية». فكل شيء متفاعل ؛ ذلك أن الجمال والفن والحرية والإبداع والتفتح، تشكل كلها منظومة واحدة، لا يحفظ سرها إلا المبدعون الكبار من أمثال سعيد الشرايبي.

لدينا فنانون كبار من طينة الشرايبي، بيد أننا لا نزال عموما فقراء من الناحية الفنية. من هنا تنبع أهمية تثمين مكانة الفنان في المجتمع والمبادرات المحمودة، من قبيل مبادرة النقابة الحرة للموسيقيين المغاربة، التي تحتفي بمساهمة فناننا وعوده، في الصراع ضد القبح والبشاعة، ومن أجل انتشار الجميل والأجمل.

لقد كتبت هذه السطور، وأنا أنصت مرات ومرات لإحدى الأسطوانات المدموجة لسعيد الشرايبي، التي سجل فيها عرضا موسيقيا قدمه أخيرا بباريس يسمى «مفتاح غرناطة». وفي أحد معزوفات الأسطوانة التي تحمل عنوان «تكريما لأستاذي»، أي فريد الأطرش، نعيش على الأقل مع ثلاثة أساليب أو مقامات لحنية تتوالى تبعا لحالات عازفنا المحتفى به. فهناك لحظة الحميمية بين الفنان وعوده، حيث يداعبه ويلاطفه ويلامسه ويدغدغه استعدادا للمقام التالي. ويتميز هذا المقام بهيمنة اللغة الموسيقية والمهارة التقنية، الهادفتين إلى بلوغ تملك كامل مكتمل للآلة والمقطع المعزوف. وفي المقام الثالث، مقام التجاوز، يبدو العازف وقد تحرر من كل واجب إزاء العود وبلغ مرتبة الثقة الكبرى بطريقة عزفه، لينكب بفرحة عارمة على نفسه ؛ فيتولد لدينا الإحساس، بأنه يمرر قدراته للآلة كي تعزف هذه الأخيرة في انطلاقة حرة وفي علاقة مباشرة ما تحسه إزاء «سيدها»، سيد العود.

إن هذه الشهادة موجهة في المقام الأول لمبدع، أكن له الاحترام الكبير ؛ غير أنها من خلال ذلك، تعبر عن اعتراف بما يقوم به الموسيقيون عامة، والمغاربة منهم خاصة، من إغناء لحياتنا ؛ وبالثراء الذي أسبغوه علي. وقد تعلمت من مسؤولياتي في الإذاعة وفي اليونسكو كمسؤول عن القطاع الثقافي في المستوى العالمي، أن ما يمكننا تعلمه من الفنانين لا يوجد في أي كتاب ولا يدرس في أي جامعة. فبفضلهم أدركت أن الحساسية اتجاه فتنة الجمال، تمنح لمعنى الحياة ولجدوى ووجاهة المعرفة إضاءة لا مثيل لها. فأنا مدين لهم بالكثير منذ صباي. وسأكتفي هنا فقط، بذكر بعض عازفي العود المغاربة الذين تعرفت عليهم شخصيا. مضيفا أنهم سواء أمواتا أو أحياء، سيصفقون بلا تردد لاختيار سعيد الشرايبي صاحب «العود الذهبي» :

عثمان التازي، كنون، عبد الوهاب أكومي، أحمد البيضاوي، عبد الكريم الرايس، بنيس التازي، مولاي أحمد الوكيلي، محمد افويتح، عبد

القادر الراشدي، الغالي الشرايبي، محمد العربي التمسماني، عبد الرحيم السقاط، عمر الطنطاوي، عبد الواحد الصميلي، محمد بنعبد السلام، عبد الوهاب الدكالي، عبد الهادي بالخياط، الحاج يونس...

هذه اللائحة أبعد ما تكون عن الاكتمال ؛ فهي نتاج لذاتية الرؤية والمعيش والمسموع. ولا يخرج سعيد الشرايبي عن هذه السلالة، وبفضلهم استطاع أن يسير بالعود المغربي أشواطا أبعد على المستوى الموسيقي العالمي. إنه ليس فقط عازف عود أو موسيقيا، إنه مدرسة. أتمنى له طول العمر، حتى يستمر في نضاله من أجل العود من خلال تآليفه ومنجزاته عبر العالم، وكذا من أجل إمتاع محبيه وعاشقي فنه. وقد قال دوستويفسكي : إذا شئتم أن تدرسوا رجلا، فعليكم بتأمله وهو يضحك». وبدوري أقول : «إذا أنتم أردتم الاستماع لسعيد الشرايبي، من الأفضل أن تنظروا إليه حين يطلق عوده بسمته» ؛ لك العود الذهبي الذي لن يذهب النوم بأجفانه ولا ببسمته.

26

«ابن يسّف»
حياة مكرّسة للفن،
وفنّ مكرّس للحياة(*)

في الإمكان مقاربة تجربة فنان، انطلاقا من النظر إلى مشواره الفني ذاته، أو استنادا إلى جوهر إبداعه، أو تركيزا على محصلة تقاطع هاتين المقاربتين ؛ وهو ما سوف يثير انتباهنا في هذا المقام. أعتقد أن أكثر اللحظات خصوصية في حياة الإنسان، تلك التي يُشركنا فيها الفنان تجربته الإبداعية، عندما يمنحنا الفرصة لنتأمّل ولادة إحدى أعماله(**). كنت محظوظا، بالفعل، عندما تيسّرت لي زيارة مرسم بن يسف بإشبيليا، ومعاينة

(*) ملامح ثقافية، نونبر 2005.

(**) نبذة عن مسار حياة بن يسّف :

«ولد أحمد بن يسّف عام 1945 بمدينة تطوان المغربية، وبها تابع دراساته الابتدائية والثانوية قبل أن يلتحق بمدرسة الفنون الجميلة بنفس المدينة. سافر سنة 1967 إلى مدينة إشبيليا الإسبانية، حيث حصل على منحة مدرسية ليطور أسلوبه في مدرسة «الفنون الجميلة للسيدة إيزابيل الهنغارية»، وقد حصل على الجائزة الأولى للتشكيل بهذه المدرسة في السنوات الآتية :

1968، 1971، 1972، وتسلّم سنة 1967 من القنصل العام الإسباني جائزة التشكيل الخاصة بالمعرض الثاني لفناني تطوان. كلّف سنة 1984 بإنجاز إبداع تصويري على الكتان (4m/3m) حول موضوع «المسيرة الخضراء»، وقد تم سك هذه الصورة على ورقة نقدية من فئة مائة درهم مغربية. وأعلن، مؤخرا، رئيس «نادي إشبيليا» لكرة القدم، أنه سوف يتقدم بطلب إدراج جدارية بن يسّف الخاصة بملعب بمدينة ضمن موسوعة غينيس Gines للأرقام القياسية، كونها تمثل أكبر لوحة فنية خزفية في العالم. (انظر في هذا الصدد : La voz del Distrito, Periodico Sevillano, 2005 لمعرفة خصائص هذا الفنان الإبداعية والإنسانية، هذه ترجمة لشهادة قدمت في حقه بمناسبة صدور كتيب عنه».

أجواء ميلاد لوحة من لوحاته التي تناولت كموضوع، قضية «الهجرة السرية». إن تجربة مماثلة تيسّر عملية التواصل مع الإبداع، مثلما تحفز المشاركة الوجدانية للفنان والتناغم التام معه. لقد قطعت آلاف الكيلومترات لاحضر معارض بن يسّف (طنجة، إشبيليا، قاديس، مدريد، صلمنكة). صحيح، أنني كلما شاركت في ندوة فكرية بإسبانيا، إلا وكان بن يسف حاضرا. والحق أن هذه اللقاءات المتكررة، زادتني تقرّبا من لوحاته. بل ومنه أيضا، وهو الفنان الذي ليس بحاجة إلى شهادتي، ليعلم أنه فنانا طليقا في فن الريشة. ادركت آنذاك، أنه كان مناضلا ومدافعا عن أكبر القضايا الإنسانية. وسلسلة لوحاته حول «الهجرة السريّة»، نتاج إبداع فني وحصيلة بحث طويل حول الموضوع، والتزام أخلاقي ضدّ الظلم والمعاناة. بالنسبة إلى بن يسّف، الفنّ هو فنّ قبل كل شيء ؛ غير أن هذا الاعتقاد لا يحول بينه وبين الدفاع عن القضايا التي تمجد الكرامة الإنسانية. اعتاد بن يسف، إذن، أن يعبر عن مثل هذه القضايا بصراحة كبيرة وبكثير من الرّحمة. ولا يزال ملتزما بذلك في مضامين عموده الأسبوعي بصحيفة «بريد أندلسية»، التي تصدر في مدينة إشبيليا. إنّ الريشة والقلم يتكاملان بالنسبة إلى رسّامنا بتناغم. هذا التكامل ما بين الفكر والتعبير والعمل، دفعني إلى منحه جائزة التواصل الثقافي شمال ـ جنوب، عام 1998م.

إنّه رسّام يعتبر كمنبع للحرية ؛ حرية تحرص لوحاته على خوض غمارها. حيث يبدو عشقه للنقاشات الاجتماعية الكبرى... إنه بمنزلة فنان هاو ملتزم. عن هذا الجانب، يتحدث خليل المرابط، أحد نقاد الفن الجادّين، فيقر أنّ بن يسف، مأخوذا بانفعاليته، يقحم نفسه ويلتزم بالدفاع عن الشعوب ومحاربة القمع والعنصرية والتخلف من أجل سلام عادل ودائم على الأرض.

إن شهادتي، في هذا المقام، ليست إلا تثمينا موضوعيًا لإبداعية هذا الفنان، ولمخيّلته ولمهارة فرشاته، ولجودة تقنياته. فضلا عن إيمانه بالرسم، كسلطة تأمل وتواصل. نبعث هذه السطور، إذن، عن قلب اهتز لجمالية

إبداع هذا الفنان «والله يحب الجمال». بن يسّف رجل اعتقاد، والرّسم بالنسبة إليه وظيفة إيمانية. أما التقييم الموضوعي لفنه، فنجده عند الجمهور الذي يتهافت على زيارة معارضه، وعند هواة الرسم الذين يقتنون لوحاته. فناننا نتاج أصيل لإبداعه ؛ إبداع يستمد منابعه من أنوار تطوان، من ظلال أزقتها، من حركتها، من لهجة سكانها وموسيقاها، من ضحكات أطفالها، من عطر نباتات حدائقها وتحليق حمامها. مدينة تطوان التي اعطت الكثير على المستوى الثقافي طوال تاريخها المديد، أول مدينة شيدت بها، مدرسة للفنون الجميلة، وكانت الوحيدة التي وهبت الحياة «لمدرسة رسم» معروفة عبر العالم ؛ وكان بن يسف من أبرز أعلامها تمثيلية في إشبيليا، حيث يستقر منذ سنوات، وحيث مُنح مؤخرا شرف إنجاز إبداع فني ضخم على قطعة سيراميك، يبلغ حجمها (15.40m/19.70m)، التي سوف تشكّل واحدة من وحدات ملعب إشبيليا الشهير «رامون سانتشيس بيسخوان Ramon Sanchez Pizjuan».

على «مدرسة الفنون الجميلة بتطوان»، إذن، أن تفخر ببن يسّف، مثلما على هذا الأخير أن يفخر بأنه تردد على مقاعدها الدراسية. وبما أنهما لا ينفصلان في ذاكرتي أبدا، حرصت على أن أسهم، باعتباري معجبا، في تكريم هذه المؤسسة العظيمة، وكلّ الذين أسهموا في إشعاعها عربيا ودوليا.

ابن يسف يزعج لسببين رئيسيين :

السبب الأول، هو أنه من الصعب، بل من المستحيل أن ينجح المرء في تصنيفه ضمن مدرسة فنية معيّنة، أو أن يسند إليه أسلوبا فنيا ما ؛ وذلك، لأنه مارس كل الأنواع التشكيلية وخبر أسرارها، قبل أن يمتلك زمام التعبير الفني في تنوعه ويصون حريته الإبداعية.

السبب الثاني، يرتبط بهذه الحرية عينها، لكن هذه المرة، من حيث هي غاية.

إن تعهّد بن يسّف للدفاع عن الحرية، يرافقه حبّ للجمال. وكان أندري مالرو André Malraux، يعتقد أن مكانة الفنّ تكمن في «فتح عيون الشعب على الجمال كما على العلاقات الكامنة ما بين الفن والحرية». أظنّ أن بطلنا تبرأ من هذه المهمة، لأن الحرية بالنسبة إليه جميلة عندما يكون الجمال حرّا. حتى إنه سمح لنفسه ببذخ إضافة عائق أساسي هو (المرح). مرح كامن في معظم لوحاته، خاصة عندما يعنونها بـ : «بسمة» أو «ضحكة». ضحكة، التي هي الوجه الخفي للحب. إن إبداعا موجها للتواصل ما بين الفنان وجمهوره يعفي نفسه، بقوة، من تحليلات شبيهة بتلك التي دبجتها سلفا. حاوروا لوحة من لوحاته، سوف تقول لكم أشياء كثيرة، وجيهة مائة مرة حول هذا المجاهد الهاوي، الذي يعتبر الالتزام بالقضايا الكبرى إبداعا في حد ذاته. لقد كرّس بن يسّف حياته للرسم ؛ رسم مكرّس للحياة. إن الخلق الفني يسمح بملاحظة كيف يتحول حلم الفنان إلى واقع منجز ملموس. لذلك، يبدو من المستحيل، فعلا، أن يتم الخلق الفني بدون حلم، ابن يسّف يحلم طوال الوقت، من أجل هذا نجده ملتزما بالعمل والإنتاج باستمرار. موهبته منقوشة في ذاكرة آلاف الزوار، الذين غاصت بهم قاعات معارضه التي نظمها عبر كل بقاع العالم خلال أربعين سنة الأخيرة ؛ غير أن الكمال لله وحده، مشكلة فنّاننا، أنه يحدث له أحيانا أن يخال نفسه أحمد بن يسّف ؛ لنترك الكلمة الأخيرة :

لسي أحمد الذي يبوح لنا بما هو جوهري : «جئت إلى هذا العالم رسّاما، وإذا شاء الله، سوف أغادره رسّاما، هذا هو الهاوي الملتزم».

III

قيم وذاكرة



27

العربي الدغمي :
الجدية المهنية[*]

جاء في شهادة بعث بها الدكتور المهدي المنجرة لوكالة المغربي العربي للأنباء بعد وفاة الفنان العربي الدغمي، أن غيابه «سيترك فراغا كبيرا خصوصا وأن المغرب ـ كباقي بلدان العالم الأخرى ـ يشكو من نقص في الفكاهة ؛ لأن النظام العالمي الجديد مثير للضحك دون أن يكون هزليا» وأضاف الأستاذ المهدي المنجرة، أن «سر نجاح السي العربي الدغمي رحمه الله، يكمن في أنه كان يتعامل بجدية مع مهنته كممثل».

وأشار إلى أنه تعرف على الراحل، منذ أكثر من 30 سنة، عندما كان يعمل بالتلفزيون داخل فرقة السيد عبد الله شقرون، التي لم يفارقها إلى يوم وفاته.

وأوضح الأستاذ المنجرة أيضا، أن الراحل «لم يكن مسرحيا فقط، بل كان قبل ذلك إنسانا يتمتع بخصال إنسانية وبالأريحية والتواضع والرأفة اتجاه الآخرين» ؛ مضيفا أن رحيله سيترك «فراغا يصعب ملؤه، لأن الفكاهة أصبحت شيئا نادرا» ؛ ثم خلص إلى القول، إن الفكاهة في القرآن الكريم جاءت مقرونة دائما بالجنة، بينما جاء البكاء مقرونا بالنار، فلنبك الفكاهة آملين في أن يحافظ كل الذين واللواتي عملوا مع السي العربي الدغمي على شعلة الفكاهة التي كانت مهمته الرئيسية».

ويضيف الأستاذ المنجرة، في عجالة كمساهمة منه في الكتاب، إن السي العربي الدغمي رحمه الله، جاء في فترة تاريخية هامة، للإقلاع بالميدان

(*) مؤلف «العربي الدغمي» لعبد اللطيف الدغمي وعبد الرحمان كرونبي ؛ الرباط 1996.

المسرحي في ظروف عرفها المغرب في الخمسينات صحبة فنانين آخرين في بداية المشوار ؛ أذكر منهم حكم، العلج، الأزرق، عمور، حبيبة المذكوري... ؛ لقد عمل الكثير لتطوير الرسالة عبر ميكروفون الإذاعة وعلى خشبات المسرح، وكان بحق نعم الفنان.

وهنا أقف، لأتوجه إلى الأساتذة بكليات الآداب والمعاهد ذات الإختصاصات الفلسفية والأدبية، بأن يوجهوا الطلبة لتهييء دراسات وأطروحات حول شخصية المرحوم العربي الدغمي.

كما أتمنى أن تبادر الجهات الحكومية أو المنظمات الاجتماعية والجمعيات، بتخصيص جائزة، تحمل إسم العربي الدغمي ؛ وكذلك تسمية إحدى القاعات الكبرى باسمه، حتى يبقى إسمه خالدا لأجيال وأجيال وللتاريخ.

لقد قيل وكتب الكثير والكثير عن المرحوم، الغني بعطاءاته ؛ التي أتمنى أن تسجل في أسطوانات لازير وتتكفل بها المصالح الثقافية أو الجهات المختصة، حتى تكون مرجعا لرجال المستقبل، الذين سيقفون على خشبات المسرح وأمام عدسات الكامرات التلفزية والسينمائية.

وإنني على استعداد لأكون عضوا ضمن لجنة جائزة العربي الدغمي رحمه الله.

28

فويتح... ذلك الرائع(*)

يجسد السي محمد فويتح في ذاكرتي، إعجاب طفل صغير وجد نفسه أمام موسيقي يلحن بشكل ساحر على آلة وترية. يعود ذلك إلى ما يربو على الخمسين سنة خلال العطلة الصيفية لعام 1943، التي كنت أقضيها بفاس في حي المخفية عند قريبي عبد السلام السجلماسي ؛ حيث كنت أشنف سمعي بالإنصات لأول مرة إلى فويتح، وهو يعزف على العود ويطرب.

كان فويتح، وسنه لا يتعدى آنذاك الست عشرة سنة، يضع أولى خطواته في عالم الأغنية، لاسيما وأن متعهده، كان هو السي محمد بوزبع، أستاذ الموسيقى الأندلسية ؛ الذي غادرنا إلى دار البقاء منذ بضعة أشهر.

وكان فويتح متميزا بتنوع باهر ؛ إذ كان يعزف على العود ويغني مقاطع لمحمد عبد الوهاب، فضلا عن متابعته لدروس في الموسيقي الأندلسية ؛ كما كان شغوفا بالرسم، ناهيك عن تألقه كحارس مرمى في فريق لكرة القدم بمدرسة «العدوة».

وكنت كلما زرت فاس، ألتحق بأقاربي الذين كانوا يجالسون السي محمد فويتح وينظمون رحلات نزهة موسيقية في سيدي حرازم أو صفرو؛ حيث كان المرحوم يشدو ببراعة متناهية.

وفي سنة 1948، توجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمتابعة دراستي ولم يكتب لي أن ألتقي به مجددا إلا سنة 1954، وهذه المرة في باريس ؛ كان يتردد على مطعم «الكتامي» و«صومعة حسان» وحي المدارس ؛ وهي

(*) الأسبوع الصحافي، 27 شتنبر 1996 ؛ الاتحاد الاشتراكي 29 شتنبر 1996، الدار البيضاء.

أماكن كانت محجا للمغاربيين، وهناك استمعت إليه وهو يغني «أو ما لولو» الأغنية التي لحنها على إثر نفي الملك سيدي محمد بن يوسف عام 1953.

وكان رصيده الغنائي في مستوى مواهبه الفنية. فحبه للموسيقى وبساطته وتواضعه الكبير وابتسامته الفياضة وروح الدعابة التي كان يتسم بها ؛ كلها مزايا قد تفسر التعاطف الكبير الذي كان يحظى به من قبل المعجبين به والمعجبات، والذين كنت واحدا منهم منذ الصغر. إعجاب لم يفارقني إلى يومنا هذا. إذ حرصت على أن يغني في حفل زفافي واحتفظت بتسجيل هذه الليلة ولازلت أنصت إليه بحنين كبير.

وشاءت الصدف أن أعين على رأس الإذاعة والتلفزة المغربية، بُعيد الحصول على الاستقلال، وكنت محظوظا أن أتعرف مجددا على المرحوم ضمن مستوى مهني، لينضاف إلى مستوى الصداقة التي كانت تجمعنا. وبهذا، تمكنت من الوقوف عن كثب، على مدى طاقاته الإبداعية ونزاهته مع نفسه ومع الآخرين ووعيه المهني الكبير، فضلا عن عدد من المزايا الأخلاقية ؛ كان مصدر إجماع كل من يحيطون به ؛ إذ كان يقدم صورة من أنبل وأصدق صور الموسيقى الحقة.

والتلاحم بين الموسيقي وآلته لا يكون دائما متجلياً، وهنا تعد آلة العود من الآلات الموسيقية التي تبين ذلك بشكل أكبر ؛ إذ يكفي المرء أن يشاهد كيف كان يمسك فويتح بالعود، ليدرك حجم العلاقة بين الاثنين. هذه العلاقة كانت تتجسّد في ألحانه وطريقة عيشه. وبهذا، كان يثير إعجاب كل الذين يستهويهم الجمال والصفاء. فقد كانت علاقة فويتح بعوده علاقة تلازمية، إذ إليه كان يغني «نحبو بلا خبارو» وأيضا ـ كما لو أنه كان يريد صرف نظر الجمهور ـ «ما بيني وبينو والو».

ففويتح، كان مصدر استمتاع وسعادة المستمعين إليه، لأنهم كانوا يشعرون أنه يستمتع هو أولا. كما أن مزاياه الإنسانية، كانت في مستوى

إمكانياته الفنية. وكلمات أغانيه كانت قريبة جدا من الإحساس الشعبي. فكل المغاربة وكل المغربيات، يجدون أنفسهم في هذا الفنان الذي ناضل بوتره وصوته من أجل استقلال المغرب.

ويبقى فويتح أكبر من مجرد موسيقي أو مطرب، إذ أن صوته ترك بصماته في تاريخ وذاكرة جيل بأكمله، لم يكن ليظل بعيدا عن الإبداع وعن الفن والموسيقى القائمين على الالتزام النضالي وراء رؤية جماعية. فهذا هو مناط التناغم والانسجام، لدى فويتح، الوطني الذي كان ينشد «ملي مشيتي سيدي... ملي مشيتي...»، وهي الأغنية التي كان يرددها المغرب كله قبل أزيد من أربعين سنة، أغنية تخرج تلقائيا من الشفاه وتنبجس من عمق الفؤاد.

ما أروع أن يعترف المرء بفضل الآخرين، لاسيما إذا كانوا من الفنانين. فنحن لن نوفيهم حقهم، مهما فعلنا في حياتهم كما في مماتهم!

29

منير بشير :
توقفت الريشة
وكف العود عن النضال(*)

ولد منير بشير 1930 بالموصل، الصرح الشامخ لحضارة العراق وإشعاعها العالمي. وهي كذلك مسقط رأس إبراهيم الموصلي العازف الموهوب، الذي تتلمذ على زرياب الشهير. كما أن الموصل، التي شهدت ميلاد آلة العود في شكلها المعاصر، وفرت لمنير بشير، ولأمثاله من أهل الفن، مناخا مواتيا وتراثا خصبا لاثراء الثقافة الموسيقية وصقلها.

أمضى منير بشير ما لا يقل عن ست سنوات بمعهد الموسيقى في بغداد، تلقى خلالها دروسا وتداريب من الفنان الكبير شريف محيي الدين واستكمل تحصيله العلمي بعد ذلك بمؤسسة كوداي بمدينة بودابست. وقد أسدى للموسيقى بصفة عامة، ولفن «المقام» بشكل خاص، أجل الخدمات، كما يشهد له بذلك علماء الموسيقى ونقادها وعامة المهتمين بهذا اللون من الفن عبر العالم.

تكمن عبقرية منير بشير، في كونه توفق في الحفاظ على صفاء عيون الموسيقى العربية وتقاليدها، وظل يعمل على تطويرها من خلال تقريبها إلى مدارك المستمع وترسيخها في ذهنه ووجدانه.

هذه الطاقة العاطفية والذهنية، كانت تتصاعد وتعلو برناتها المتتالية، ثم تنقطع ليحل الصمت بين الرنة والأخرى وتغمره آهات النشوة والمتعة

(*) القدس العربي : 4 أكتوبر 1997.

الصادرة عن كل من يجيد الاصغاء للهمسات الروحانية ؛ إنه الصمت اللطيف والرهيف في الوقت ذاته، الذي يطغى ويهيمن على كل ما عداه من أشكال الصمت الأخرى.

كان منير بشير، يحترم آلته الموسيقية عظيم الاحترام ويستجيب لتقلبات مزاجها، بالقدر الذي كانت تتناغم بدورها مع أطواره وأحواله العاطفية ؛ حيث لم يسبق لي أن عاينت مثل هذا الانسجام بين العازف وآلته، إلا نادرا. بل كان يبدو لي وكأنه لا يعزف إلا ليرضي آلته، إيمانا منه بأنه أكثر الناس قدرة على فهمها والتجاوب معها. وقد استعملها لينفذ من خلالها إلى القلوب ويلقن الدروس في العزف والموسيقى للكهول والأطفال على السواء. كان يعتمد عليها لمؤازرة ضحايا التمييز والظلم والاستبداد، وكان في ذلك مناضلا ملتزما، لا سلاح له سوى صرخات عوده ولحظات مقلتيه التي كان يسددها ضد أعدائه.

تعرفت على منير بشير قبل سنوات عديدة، حينما كان عضوا نشيطا في المجلس الدولي للموسيقى، الذي كان يرأسه يهودي منوهن ومعه رافي شانكار. ثم تقلد رئاسة كل من الجمعية الدولية للتربية الموسيقية واللجنة الوطنية للموسيقى في العراق. كما كرس خبرته وذكاءه لتسيير المجتمع العربي للموسيقى، وإن كان لم ينل كل ما يستحقه من جزاء وعرفان.

تلقى منير بشير الكثير من الأوسمة والرموز التكريمية، وأتحف جماهير غفيرة في أكثر من خمسين دولة. ولم يعزف في أي بيت من البيوت الشخصية، واهبا فنه للقاعات العمومية، ليس فقط صونا لكرامته الشخصية ؛ بل تقديرا منه لمنزلة الموسيقى وهيبتها. ولذلك، تكون الموسيقى قد رزئت في من كان يحميها ويكرمها.

أتذكر منير بشير في التفاتة كريمة منه، بقبوله 1993 جائزة التواصل الثقافي بين الشمال والجنوب، التي تخصص سنويا لمن يساهم في تقريب

الثقافات، ولم يحدده في ذلك سوى وازعه الإنساني وتعلقه بأواصر الحب والسلام، ولقد حاز على تلك الجائزة مناصفة مع رامزي كلارك، وزير العدل الأمريكي الأسبق. وكان آخر لقاء لي مع منير بشير في أب (أغسطس) الماضي بمدينة فاس، خلال حفل موسيقي أحياه وسط جو مفعم بعطر أندلسي، يتعالى أريجه في تناغم تام مع إيقاع اللحن والعزف والموسيقى ؛ لكن موسيقى تلك الليلة، كانت ذات نكهة خاصة وكأنها تنذر بالوداع لريشته الساحرة. وحدثني بعد الأمسية عن حياته وكتاب سيرته الذاتية، كما طلب مني التصدير له، وكان الفنان أحمد بن يسف يتولى إنجاز لوحة غلافه. وشاءت الأقدار، أن يتصل بي ابنه سعد، ليخبرني بوفاته قبل ساعتين من وصول الفنان بن يسف إلى الرباط حاملا اللوحة.

سوف نرى كيف ستتعامل الذاكرة العربية ـ أو ما تبقى منها ـ مع الفراغ الذي أحدثته وفاة منير بشير في الساحة الفنية والموسيقية، وهو الذي كرس حياته لصون الذاكرة الجمالية وتحريكها، مفضلا البحث والجد والكد على الخمول والميوعة والمدح ومغالطة التاريخ. فبعوده حارب الكذب، وبعوده ازداد الجمال جمالا والحب شوقا.

30

الأستاذ محمد أبو طالب :
والتحقت النزاهة بالسماء(*)

لو حتم أن نجد كلمة واحدة تلخص الخصال الإنسانية والثقافية التي كان يتحلى بها الأستاذ محمد أبو طالب، وطبيعة سلوكه الروحي ؛ فإنني أظن أن كلمة «النزاهة»، ستكون أكثر الكلمات تجسيدا لتلك المعاني. فلقد مكنتني الصداقة التي ربطتني بالفقيد، التي دامت لما ينيف عن الأربعين سنة، من أن ألمس فيه الخصال والطباع الدائمة التي لا يرقى إليها التبدل ولا التغير منذ أن جمعنا أول لقاء في الولايات المتحدة الأمريكية ؛ حيث كان بصدد إنهاء دراسته، وكان يرافق النزاهة في نفس فقيدنا، رأفته بالآخر وبالآخرين جميعا وحنوه عليهم، وطيبة متكتمة بقدر ما هي كريمة. إنها طيبة المؤمنين الحقيقيين ؛ تلك الطيبة التي تعطي وتأخذ وتشجع وتنتقد وتنير سبل المعرفة وتبعد عن طرقات الجهل.

لقد كان أبو طالب رجلا مؤمنا، يستلهم القرآن الكريم، وكان يترجم معانيه في أعمال ملموسة ترتبط بالتدريس والبحث. وقد كان السفر في عالم المعرفة ونقل هذه المعرفة «صلاة»، زاولها الفقيد في صرامة وعشق في رحاب الجامعة، كما في الكثير من الأنشطة الخارجة عن المهنة. وأفضل من يحكم على الفقيد طالباته وطلابه، الذين استفادوا من كفاءاته الأكاديمية، كما أفادوا، وبخاصة، من خصاله الإنسانية، ومن إيثاره الذي قلما نجد له مثيلا في أيامنا هذه، في العالم الجامعي.

(*) جريدة العلم 4 دجنبر 2000 ؛ الاتحاد الاشتراكي 5 دجنبر 2000 الدار البيضاء ؛ القدس العربي 4 دجنبر 2000.

وكان سي محمد خبيرا كبيرا في اللغة، فقد كان يتقن ما لا يقل عن خمس لغات، هي : العربية، الفرنسية، الأنجليزية، الإسبانية والألمانية. وكان يفهم الأمازيغية، ويلم بلغات أخرى، من بينها : اليابانية والماليزية. وكان أبو طالب أول رئيس لقسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، بجامعة محمد الخامس. كما أنشأ جمعية مدرسي اللغة الأنجليزية. وحرص الفقيد، كذلك، على إنشاء قسمي اللغة الإسبانية واللغة الألمانية ؛ ذلك أنه كان قد عرف أهمية التنوع على الصعيد الثقافي. لقد كان أبو طالب لغويا شديد الفضول، وبحاثاً يصرف الساعات الطوال في البحث عن الكلمة الموافقة للترجمة من لغة إلى أخرى. وكان شديد الغضب عندما تخطئ وسائل الإعلام في نشر أو إذاعة كلمة ما، وغالبا ما كان يوجّه إليهم خطابا ينتقدهم فيه.

وهذه الصرامة نفسها، صرامة رجل العلم ؛ وهذه الدقة، هما اللتان دفعتاه إلى دراسة عدد كثير من ترجمات معاني القرآن، لاسيما تلك الترجمات باللغة التي كان يتحكّم فيها، ليكتشف مقدار الضعف فيها من الناحية اللغوية، وأحيانا لقارئها، تصورا خاطئا للخطاب الإلهي. وأعلم أنه كان يمضي الساعات الطوال يوميا، منذ بضع سنوات، في الاشتغال على ترجمة القرآن، وقد كان على وشك الانتهاء من تلك الترجمة، لو لم تسبق إليه يد المنون.

لقد كان أبو طالب إنسانا يعيش بالكتاب وللكتاب. فقد كان يعيش من خلال كتبه وبمعية كتبه وفي كتبه... ؛ وهي كتب كانت تحيط به في كل زمان ومكان. والبيئة الكتبية تكسب صاحبها، لا محالة، التواضع الكبير، لأننا نكتشف داخلها كل ما بقي آكتشافه والذي لن نستطيع أبدا اكتشافه بالتمام. ولم يكن أستاذنا العزيز يحب التقليد والمحاكاة، لأنه كان يؤمن بالقوى الفطرية لكل إنسان وقدرته على الخلق والإبداع.

وكانت حداثة الفقيد حداثة ذاتية أصيلة، تولدت عن معارفه وعن تجاربه الميدانية في أنحاء المعمور ؛ فهي لم تكن «حداثة» معمولة، أو مستوردة من غير ضابط ولا وازع. إنها حداثة كان أبو طالب يعرف من أين جاءت وإلى أين تسير ومع من تتصل. إنها حداثة متصالحة مع ماض غير جامد، هو

في إعادة اكتشاف واغتناء دائمين. إنها حداثة واعية بتحديات المستقبل وأهمية القيم الثقافية في إشكالية هذا المستقبل.

وكان أبو طالب باحثا متصالحا مع ثقافته وشديد الاعتزاز بأصالته ومنفتحا على صيرورة الأمور ومقتنعا، شأنه في ذلك شأن اليابانيين، وشأن الغالبية العظمى من الأسيويين، بأن التحديث لا يعني «التغريب». وقد كان من اليسير على فقيدنا أن ينتقل من الإنصات إلى معزوفة من المعزوفات الأندلسية إلى الإنصات إلى سمفونية من سمفونيات بيتهوفن، في غير معاناة ولا مشقة، يشفع له في ذلك ما كان يتمتع به من انسجام داخلي. وقد كان مولعا بالموسيقى، وكان يجدها في كل شيء.

وكان سي أبو طالب، يعرف ثقافته حق المعرفة وبجميع مقاييسها، بدءا من الأدب والشعر ووصولا إلى فن الطبخ، حيث إنه كان طباخا ماهرا، يحضّر بنفسه وجباته ووجبات ضيوفه. وقد كان فن الطبخ عنده من هواياته المحببة لنفسه. وكان يحيط معرفة بالوصفات، وبالمقادير المستعملة فيها من المواد، والتأليف بين التوابل وما يستغرق الطهو من الوقت. وكانت أبحاثه وتدريسه، هما أيضا، وصفات لمطبخ معد بإتقان، وليس من قبيل «الوجبات السريعة».

وكان أبو طالب ذا فكر منفتح، داخل بيت منفتح وكان له باب السماء منفتحا على الدوام. وكان الفقيد رجلا يتحاشى الشكليات، والطقوس والتشريفات. وكان يؤثر البساطة والصدق، اللذين هما صفتا المتواضعين والزهاد. ولذلك كان يجد راحته في أماكن، من قبيل الشاون، التي كان شديد الحب بها، وقد كان يأتيها، فيمضي قسطا كبيرا من الوقت في بيته الصغير القائم في صعيد المدينة، في «رأس الما» أو منبع الماء... ؛ وقد بلغ من اندماجه مع الشاونيين، إلى حد أن أصبح يجيد إعداد أكلة «البيصارة» ويبرع في إعدادها كما يبرعون.

لكن حبه للشاون، لم يأخذ من حبه لفاس، مدينة الثقافة والتقاليد. ولقد كنت شاهدا على حماسته، في المؤتمر العام لليونيسكو، المنعقد في نيروبي

عام 1976، في الدفاع عن مشروع القرار المتعلق بإدراج هذه المدينة ضمن سجل التراث الثقافي الإنساني. والفقيد يقر الآن عينا، في مثواه الأخير بمقبرة تشرف على هذه المدينة التي كان يعتبرها عنصرا من عناصر تراثه الخاص.

وعلاوة عما كان يتصف به أبو طالب، من طيبة قلب غير قابلة للتغيير، بل حتى إنها لتبعث على الحيرة أحيانا ؛ كان الفقيد، كذلك، محبا للدعابة، ظريف النكتة عميق التلميح فيها. وكان يأتي من التلاعبات الحاذقة بالألفاظ ما يحار فيه سامعه، أحيانا، في الإمساك بقصده وفحواه. فقد كان في ظرف أولئك الذين لا يتصنعون الجدية، من فرط ما هم جادون في الجد. وكان من عباراته الأثيرة بين الأصدقاء : «شكون فحالنا» (من مثلنا) ؟ وكان يريد بها أن قلة من الناس من هم في مثل سعادتنا. وربما حق لنا أن نرد عليه هذه العبارة قائلين له : «شكون فحالك» (من مثلك) ؟

أجل، فلا يساورني شك في أنك تنعم الآن، بسعادة غامرة، وأعلم ذلك. فقد كانت آخر كلماتك إلي، من قبل أن يحملوك إلى غرفة الإنعاش، باللغة الأنجليزية «I dreamt that i was happy» (حلمت أني سعيد). وأدركت أنها النهاية، وأنك كنت، وأنت المؤمن التقي، تلقي إلينا بكلمة الوداع، لأنك كنت في سبيلك إلى الله، تغمرك سعادة كبيرة، لا يشوبها خوف الموت الذي يستحوذ على أولئك الذين لا يؤمنون بغير أنفسهم.

وأشد الباكين عليك، والمتحسرين لفراقك، أولئك الذين أعطيتهم بغير حساب ؛ ويأتي في مقدمتهم طلابك. فقد بقيت ترعاهم حتى آخر أنفاسك. وكنت، من على فراشك، تعيد قراءة ما يكتبون، وتعلق عليه.

كما سنفتقد جميعا تفانيك ووفاءك، وها أنت تفارقنا، يا محمد، وتلتحق النزاهة بالسماء. شكون فحالك، سوف يسعد صديقك العزيز المهدي بن عبود، أيما سعادة باستقبالك. لأن لكما عدة قواسم مشتركة، شكون فحالكوم ؟

إنا لله وإنا إليه راجعون.

31

المايسترو التمسماني يلتحق بـ «التناغم الأكبر»(*)

يلتحق سي محمد بلعربي التمسماني، الفنان والعازف والمبدع والإنسان ؛ بالتناغم الأكبر، الذي لن يعرف معه الغربة أبدا، بعد أن كرس حياته كلها باحثا عن تناغم الآلات والأصوات، وانسجام الكلمات والجمل، وتوافق القوافي والإيقاعات، وتآلف القلوب والنفوس. ظل طوال حياته يحمل السعادة إلى مئات الآلاف من هواة الآلة ؛ وقد كانت بحق حياة فنية زاخرة وغنية.

كان مولد التمسماني في مدينة طنجة، عام 1920، وقد نذر نفسه للموسيقى مبدعا وعازفا ومربيا، بقريحة فياضة، وشغف وحب للتجديد ؛ وكان التمسماني أستاذا في العود والموسيقى الأندلسية، من عيار عثمان التازي ومحمد مبيركو وأحمد الشافي والمختار المفرج وامحمد الهواري ؛ كما كان عازفا على الكمان ؛ وبفضله (وبفضل السيدة العوفير من جوق الرباط) صار البيانو يتبوأ مكانة رفيعة في النوبات.

ونجد في منتخبات «انطولوجيا الآلة، الموسيقى العربية الأندلسية، النوبات الإحدى عشرة (النسخة الكاملة)»، أروع تسجيلات «نوبة الاصبهان» (في 6 أقراص ممغنطة)، التي قام بتسجيلها جوق معهد تطوان تحت إشراف فناننا الكبير ؛ وإنه لعمل عظيم لمدرسة موسيقية أندلسية ؛ وهي مدرسة تطوان. تلك المدينة التي لم يقتصر عطاؤها على إنتاج كبار

(*) الصحراء المغربية 14 يناير 2001.

الفنانين، في الرسم، والموسيقى والشعر والتاريخ ؛ بل زادت عن ذلك، بأن أنتجت «مدارس» ؛ وخلف لنا التمسماني تسجيلات أخرى، آية في الروعة ؛ على أقراص ممغنطة تشمل عشرات الساعات من المتعة، من بينها «نوبة المايا» (7 ساعات على أقراص ممغنطة)، و«نوبة رمل المايا» (5 ساعات على أقراص ممغنطة).

لقد تعرفت على سي محمد بلعربي التمسماني، عام 1959، عندما عُينت مديرا عاما للإذاعة المغربية. وقد كان أول انطباعي وثانيه وثالثه عنه، أنه ذلك الرجل ذو الابتسامة المشرقة، والكريمة والطافحة بالذكاء، ورقة الإحساس، والتواضع. وكان التمسماني مقبلا على الحياة، شغوفا بها. فقد كان يدرك أن هذه الحياة هي مصدر الإلهام الرئيسي، الذي أستمد منه إبداعيته وموهبته ؛ فكان يحياها في امتلاء، ويقبل عليها في كثير بروح الدعابة ؛ ولا حاجة بالمرء إلى أن يكون عالم موسيقى لكي يكتشف أصداء تلك الدعابة في إبداعاته الموسيقية ؛ فلم يحدث أبدا، أن رأيت التمسماني إلا وهو مبتسم، ولم يحدث أبدا، أن سمعته متذمرا أو شاكيا ؛ كان لا يقيم وزنا للجانب المادي في الأشياء.

وإلا فيم نفسر الصعوبات المالية الجسيمة التي عانى منها مايسترو من هذا العيار في أواخر أيامه ؛ وليس هو بالأول ولا الوحيد في هذه الحال ؛ وهذا ما يظهر، أن الفن والإبداع، لا يزالان أبعد ما يكونان عن أولوياتنا، وأن التخلف سيظل حالنا، طالما لم نحسب حسابا للجمال، وندخله في معادلاته.

وكان جميع من عاشر سي محمد التمسماني، يدرك فيه مراعاته للصداقة وحرصه عليها، بدءا من زملائه في جوق تطوان ؛ ولم تكن معرفة التمسماني تنحصر في مجال الموسيقى وحده ؛ بل لقد حاز، كذلك، ثقافة عامة ؛ لكن نادرا ما كان يظهرها بقصد المباهاة. وإن أعماله حاضرة، وهي أفضل شهادة على إسهامه في تاريخ الموسيقى بالمغرب، كما تشهد على

إبداعيته فيها وتنوع مبتكر، كان يقاوم الجمود ويحمل هواء جديدا على ازدهار هذا الفن الخالد ؛ هو فن الموسيقى الأندلسية ؛ وله ندين ببروز الأصوات النسائية، في تأدية بعض المقطوعات، من قبيل «شمس العشية» التي يردّدها المغاربة في نفوسهم بالإجماع ويصدحون بها بحرارة.

لقد أمضى المايسترو سي محمد بلعربي التمسماني حياته كلها، باحثا عن التناغم وعن الجمال ؛ ولاشك أنه ظفر ببغيته الآن، وهو ينزل ضيفا على ذلك «التناغم الأكبر» ؛ وإذا كان عظماء الفنانين يخلدون بما يخلفون من تراث، فإن التمسماني واحدا منهم.

إن الملايين الذين يبكونك اليوم، لمدركون مدى السعادة التي شعروا بها في موسيقاك.

أيها الأستاذ، لقد رحلت عنا ؛ لكن صوتك الرنان لا يزال صادحا، فهو يذكرنا ببسمتك وقريحتك وطيبتك وعزة نفسك وحنوك ورأفتك.

«إنا لله وإنا إليه راجعون».

32

عمر السعدي المنجرة
يلتحق بمالك الملك(*)

أسلم عمر السعدي المنجرة الروح لباريها يوم 25 مارس الجاري بالمستشفى بسان فرانسيسكو ؛ حيث كان في زيارة لابنه سيدي محمد.

ولد عمر بالرباط سنة 1929، وتابع دراسته الابتدائية بها والثانوية بثانوية لويطي بالدار البيضاء.

ثم ذهب إلى الولايات المتحدة سنة 1950 لمتابعة دراساته العليا. وكان أول مغربي يلتحق بجامعة كولومبيا بنيويورك وأول من حصل على الماجستير في تسيير المقاولات بالولايات المتحدة سنة 1953.

طيلة سنوات دراسته، كان عمر المنجرة متعاونا نشيطا بالمكتب المغربي للحركة من أجل الاستقلال بنيويورك ؛ وبعد استقلال المغرب، أصبح عضوا بديوان المرحوم عبد الرحيم بوعبيد، وزير الاقتصاد الوطني والمالية؛ حيث كلف سنة 1957 بقسم التنسيق الاقتصادي والتخطيط.

من سنة 1959 إلى سنة 1961، بدأ عمر المنجرة مسيرته الدبلوماسية كمستشار اقتصادي بسفارة المغرب بواشنطن ؛ حيث كان المرحوم الدكتور المهدي بنعبود سفيرا. وكان أول مدير تنفيذي مغربي بالبنك العالمي، حيث مثل المغرب وتونس وليبيا وأندونيسيا وماليزيا وأفغانستان وغانا.

وغادر القطاع العام، سنة 1961، ليلتحق بالقطاع الخاص ؛ حيث كان وراء إنشاء العديد من شركات الدراسات في القطاع الهندسي ومراقبة الجودة.

سيوارى جثمان الفقيد التراب يوم الجمعة 30 مارس بعد صلاة الظهر بمقبرة الشهداء، وسينطلق الموكب من منزل المرحوم الواقع : 7، زنقة فرانسوا فيلون، حي ريفييرا بالدار البيضاء.

(*) الرباط 28 مارس 2001.

33

الصدق والوفاء دمعتان على السعداني يبكيان(*)

الصدق والوفاء، هذا اليوم، دمعتان ؛ والنزاهة والتواضع عليه يبكيان ؛ والتواضع كظيم حزين ؛ والنضال متكدر مكروب ؛ وأما النظال وعالم المعرفة، فكلهما أحزان، لأن شعلة النقاء خمدت الآن. لقد رحل عنا ذلك الإنسان الذي قلّما يجود به الزمان لنقائه وأعماله بإتقان. وشعلة النقاء خمدت بعد طول اشتعال ؛ وكيف لا يكون ذلك شأنها جميعا، وقد قضى عنها رجل هو النقاء وكمال الصفات. رجل لو أردنا أن نوجز مساره في الحياة، ونجمل غاياته منها، في كلمة واحدة، لما وجدنا بديلا عن «الكرامة». كلمة تلخّص ذلك المسار، وتجمل تلك الغايات. لقد فارقنا، هذه الأيام محمد السعداني، المناضل، وأصغر الموقعين الستة والستين على وثيقة الاستقلال، عام 1944.

وبوفاة السعداني، نفقد مدافعا من أكبر المدافعين عن حقوق الإنسان، ونفقد، كذلك علامة بحاثة، وإنسانيا مبرزا، ورجلا شريفا مستقيما بالمعنى الكامل للشرف، وبالمعنى الكامل للاستقامة. فقد كان الرجل مشبعا بالقيم التي جاء بها دينه، والقيم التي استمدها من ثقافته. وكان إلى جانب ذلك متفتحا غاية ما يكون التفتح، على الحضارات الأخرى، كان «سلفيا» من طينة المفكرين العظام، الذين ازدان بهم أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ؛ من أمثال عبد العزيز بن ادريس، وبوشتة الجامعي وعلال الفاسي، رحمهم الله جميعا. وكان مؤمنا، لا يحتاج لإثبات إيمانه. وكان جدّ متأثرا في إيمانه ومقاومته بفكر عبد العزيز.

(*) العلم 28 فبراير 2002.

بيد أن هذه الخصال مجتمعة، فضلا عما كان عليه من تفتح الفكر، لم تسعفه في تقديم كل ما كان قادرا على تقديمه لبلده. فهو لم يستطع أن يقهر ثلاثة عوائق عظيمة ؛ أول هذه العوائق، أنه كان مناضلا منذ بواكيره، وبقي على هذه الحال إلى أن وافته المنية. وثانية هذه المساوئ، في نظر أصحاب القرار عندنا، أنه لم يدرس في فرنسا، وأنه لم يحصل من الشهادات إلا على شهادة الأستاذية من جامعة القاهرة، وعلى شهادة الدكتوراه من جامعة كامبريدج ؛ وأما ثالثة مصائبه، فكانت النزاهة والاستقامة، اللتان كانتا تزعجان الآخرين، وتوقظان ضمائرهم.

كان السعداني علامة بحاثة، يقارع الحجة، مقحم للتحليل، وكان صريحا، صراحة قوية ومهذبة معا. وقد خبر الاعتقال والسجن، وهو بعد لم يتجاوز الرابعة عشرة. وكان في ذلك ما يزعج الآخرين، ويقض مضجعهم. كونت خصال فقيدنا الإنسانية ولطفه وأدبه الكبير، ما أضفى عليه مناعة ظاهرة ؛ لكنه لم يكن يجد فيها أي معين على الصعيد السياسي، أو يلقى فيها من سند على الصعيد الإداري. وهو الذي قضى سنين طويلة يشتغل بالديبلوماسية ويجول في مجالاتها.

عرفت سي محمد في انجلترا عام 1954، في مدرسة لندن للاقتصاد، التي سجل فيها بعيد تسجلي لمتابعة دراسته برسم السلك الثالث ؛ فلما فرغ من هذه المدرسة، قصد أوكسفورد، فحصل منها على شهادة الدكتوراه. وقد جمعنا النضال في سبيل تحرير الشعوب المستعمرة ؛ إذ كنا يومئذ المغربيين الوحيدين اللذين يدرسان في جامعة أنجليزية ؛ وكان سي محمد يسكن في شيبيردس بوش، فكنا نلتقي زوال كل خميس، في غرفة الأمم، بالنائب العمالي ويدكووت بين ؛ وقد كان يرأس عندئذ «حركة تحرير المستعمرات»، التي أفلحنا نحن الاثنين في أن ننشئ داخلها لجنة خاصة بشمال افريقيا.

ورأيت سي محمد، كذلك يعمل داخل اتحاد الطلاب العرب في المملكة المتحدة، وقد كان عضوا نشيطا فيه. فكانت تخونه عاطفته، كلما

دار الحديث عن التجاوزات التي تقترفها الأنظمة الاستعمارية، أنى كانت وكيفما كانت ؛ لكنها عاطفة هادئة وعالمة ومحكمة.

فقد كان سي محمد آية في الرقة، وفي حالة غضب، أو إثارة أعصابه ؛ فإنه كان لا يعدو أن يزيد مبالغة بهذه الرقة، حتى يبلغ به الأمر إلى تصوير المشهد بشكل هزلي ويغالي فيه، لإبراز موقفه المعارض ؛ وهو في كل ذلك، إنما يستبدل ابتسامة بأخرى. وإذا أقبل على الفكاهة، ففي عفة تنسجم وطبيعته التي جبل عليها، إنها فكاهة أرهفت بطول سنين الدراسة في انجلترا ؛ لكنها لم تكن تخلو، عند اللزوم من تهكم ومن سخرية. وقد جاءه أثناء مقامه في أوروبا نداء بلاده، على لسان المرحوم مولاي الحسن بن المهدي، أول سفير للمغرب في المملكة المتحدة، وعلى لسان المرحوم عبد الرحمان بن عبد العلي، الوزير المفوض، لينضم إلى المصلحة الديبلوماسية المغربية الناشئة. فكان التحاقه بها ومكوثه فيها، إلى أن أحيل على المعاش.

وكان له، بعد لندن، مقام قصير بوزارة الخارجية في الرباط ؛ عين بعدها في مطلع الستينيات سفيرا في باكستان، ثم سفيرا مرتين في نيجيريا وبعدها في ماليزيا، ولبث هناك إلى أن حانت عودته إلى الإدارة المركزية في الرباط، فتولى فيها الإشراف على قسم شمال افريقيا. هذا عن السعداني الديبلوماسي ؛ لكننا لا نعرف شيئا ذا بال عن السعداني العارف بالأدب العربي، المحب لهذا الأدب. والأدب والشعر ينتهيان بمحبهما وهاويهما إلى الموسيقى. فلقد كان فقيدنا من عشاق الموسيقى الشغوفين بها، ولاسيما إذا كانت من تلك الأشعار التي تتغنى بها كوكب الشرق أم كلثوم.

وأما شهادتي هذه، في حق سي محمد السعداني، فإنني أنشد منها غايتين اثنتين ؛ فأما الغاية الأولى، فهي أن تكون هذه الشهادة وفاءا لهذا الرجل، واحتفاءا به، وهو الذي قدّم الخدمات العديدة لبلاده، لا يبغي من ورائها جزاء ولا شكورا. وحسبنا أن نعتبر المصاعب المادية التي تكبدها فقيدنا في سنواته الأخيرة، لندرك أنْ الرجل لم يجن شيئا من مزاياه على كثرة ما كان

له من مزايا ـ حتى من مزية المقاوم، ولا جنى شيئا من مزية الموظف السامي، المتفاني في خدمة بلاده. وهذه طينة أضحت آيلة إلى الزوال. ولا يمكن أن نخفي حقيقة، وهي أن الرجل كانت تعتريه في بعض الأحيان، موجة من السخط فتملأ عليه كيانه، إذ يرى الجحود المعنوي والسياسي، الذي يلقاه جزاء بما قدمت يداه، وما أكثر ما قدمت يداه لبلاده، فقد كان السعداني من أولئك الذين يؤثرون البذل والعطاء، ولم يكن من أولئك الذين يحبون الأخذ والنيل ؛ للأسف فإن الوطن ينكر الاعتراف أحيانا بالجميل.

وغايتي الثانية، من هذه التحية ؛ أن أنوه بأهمية التذكر/الذاكرة ـ وهي كلمة تكررت في ما يقرب من ثلاثمائة موضع من القرآن ـ في ثقافة الشعوب. وإنني لأزيد اقتناعا بتوالي السنين، بأن أحد العلامات الدالة عن التخلف المتمثل في قلة الاهتمام بالذاكرة، الفردية والجماعية على حد سواء ؛ فالتخلف هو تكريس لفقدان الذاكرة، التي تجعلنا ندير الصفحة لأهون الأسباب، سعيا إلى المحو والنسيان، وطمعا في التحكم في الحاضر، في غير اعتبار للأمس ولا انشغال بالغد. والحال، أنه بانتفاء الذاكرة، ينتفي التراكم ويستحيل التعلم. والذاكرة مخيفة، لأنها تقتضينا تقديم الحسابات للتاريخ، ونحن نعاني تأخراً جسيما في هذا المضمار. وما كان السعداني رحمه الله، أول من تحمل تبعات ذلك التخلف وسوف لا يكون الأخير.

قال فيكتور هيجو، عندما تصلون «اسجدوا بأفئدتكم»، وأعتقد أننا عندما نحيي شخصا من عيار سي محمد السعداني، فينبغي أن نسجد بذاكرتنا، ونسجد أمام الذاكرة ؛ وإني لأسجد اليوم أمام ذاكرة السعداني، لأنه ما كان يسجد إلا للواحد الأحد.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

34

قاسم الزهيري
في ذمة الله
قلم انطفأ(*)

رحل المرحوم قاسم الزهيري إلى جوار ربه، لكنه مازال يعيش في الذاكرة الجماعية للمغرب المعاصر. لقد توفي قاسم الزهيري يوم الأحد 30 ماي 2004، وعمره 84 سنة. وشعر جميع الذين تعرفوا عليه من بعيد أو قريب، بعد هذا المصاب الجلل، بخسارة حقيقية. وستستمر بيننا آثاره كمناضل وموقع على وثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944، وكصحفي كان قلمه متميزا ببساطة الشكل ووضوح التعبير والتحكم في المضمون وعشق محب لبلده وتاريخه وقيمه.

لقد ترجم إلى أرض الواقع، المواصفات الكبرى لقيدوم الصحافة والنشر المغربيين، المرحوم سي سعيد حجي، الذي كان من تلامذته، كما استطاع نقلها بوفاء. كان حجي مدير يومية المغرب وملحقه الأدبي، وكان مقاوما من الرعيل الأول ؛ إلا أنه رحل عن عالمنا عام 1942. وتميز المرحوم الزهيري، بنبع لا ينضب من الإلهام طيلة مساره النضالي والوطني والمهني ؛ حيث كان عضوا نشيطا ومؤثرا في حزب الاستقلال ؛ ولقد توفق في مهامه الصحفية، وساهم في توطيد إشعاع جريدة العلم.

وتربّع الزهيري على عرش التواصل. حيث كان خطابه واضحا للجميع دون فقدان الجوهر. وسهلت عليه معارفه واستقامته الفكرية وقناعته، ولاسيما تواضعه النموذجي. ومن الطبيعي أن يصبح فيما بعد ديبلوماسيا

(*) العلم 01 يوليوز 2002.

محنكا كسفير ومساعد للأمين العام للمؤتمر الإسلامي، حيث كان مكلفا بالقضايا السياسية والإعلام.

ولقد حظيت بشرف كبير، عندما خلفته في منصب المدير العام للإذاعة المغربية عام 1959، الذي كان أول من عين فيه بعد الاستقلال. وأستطيع أن أشهد على مدى الاحترام والتعاطف اللذين كان يتمتع بهما في هذه المؤسسة التي طبعها بخصاله الإنسانية، ومهنيته وكذا حبه للصحافة ونشر الأفكار.

ولا يرجع سبب الاحترام الذي نكنه لقاسم الزهيري، رحمه الله، لأنشطته النضالية ومهامه الصحفية من مرتبة عالية وكتابته الغزيرة عن المغرب والإسلام وإفريقيا فحسب ؛ بل لأننا كنا غالبا ما نلتقي بصديق مشترك، هو المرحوم الدكتور المهدي بنعبود، الذي كان يقدره كثيرا. ومكنتني تلك اللقاءات، من اكتشاف شساعة معارف قاسم الزهيري، ومنهجيته في الحوار، وخطواته البيداغوجية الناجعة.

ويوجد أشخاص آخرون مؤهلون أكثر مني للحديث عن قاسم الزهيري الوطني المناضل، ورجل السياسة ذي الوجه الإنساني، والصحفي الذي لا يضاهي، والكاتب الملهم والديبلوماسي البارع والمحب لبلده، والمسلم التقي والمنفتح في إطار تقليد الشيخ شعيب الدكالي والسي علال الفاسي والفقيه بلعربي العلوي والفقيه المختار السوسي وسيدي المدني بن حسني والفقيه الزموري والسي عبد الله كنون وآخرين.

لقد حررت هذه الشهادة بعد أقل من عشر ساعات من مغادرة سي قاسم لهذا العالم. وهذه الكلمات هي موجهة لتخفيف الآلام التي أشعر بها بسبب خسارة رجل، أعطى الكثير ولم يأخذ إلا القليل. وهذه هي خصال العظماء، الذين لا يتركون على هذه الأرض إلا «الأمور اللامادية»، التي تدوم مثل أفكارهم وكتاباتهم ونزاهتهم وذكريات خصالهم الإنسانية. لازالت ثروات قاسم الزهيري موجودة لمن يرغب في البحث عنها مع بذل المجهودات.

وفيما يتعلق بي، فإني فقدت صديقا متسامحا، كان يفهمني ويهدئ من روعي، عندما كان غيظي يتجاوز الحدود المسموح بها ؛ لأنه كان يتقاسم معي نفس الانشغالات ؛ انشغالات الدفاع عن الكرامة. لقد عاش قاسم الزهيري كريما، وربى أبناءه على الكرامة، وناضل بكرامة، ومارس السياسة بكرامة، ومارس مسؤوليات كبرى بكرامة، ورحل في كرامة وسيستقبله ربه بالكرامة التي يستحقها.

لقد انطفأ قلم لا يضاهى، لكن حبره لن ينمحي مثل الذكرى التي يتركها صاحبها. رحمك الله يا سي قاسم.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

35

مولاي عبد الله إبراهيم
النزاهة في حداد(*)

وفاة مولاي عبد الله إبراهيم، تركت فراغا كبيرا في هذه البلاد ؛ لقد كان نموذجا في التفاني في خدمة وطنه. كما كانت حماسة هذا المناضل في فترة الاستعمار، تعبيرا عن وفاء نادر من بين جميع من تقلدوا منصب الوزير الأول في المغرب المستقل. لقد كانت إحدى الامتيازات التي حظيت بها في حياتي، عندما عملت في منصب المدير العام للإذاعة الوطنية في وقت كان هو مسؤولا في الحكومة.

لقد أتاحت لي هذه الفرصة، أن أقدر عن قرب صرامة هذا المثقف، ووعيه السياسي ؛ وهو الرجل الذي دافع عن مواطنيه ومواطناته بقناعة راسخة. إن مؤهلاته كرجل، تتلخص جدا في تلك الابتسامة التي كانت لا تفارقه إلا نادرا، والتي ما زالت محفورة في ذاكرتنا.

علينا أن نهتم بتاريخ هذا الرجل ؛ الذي قاوم الانتهازية السياسية وغادر الساحة السياسية بطريقة غير معهودة. في هذه المناسبة الحزينة، كل ما يمكننا أن نقوم به، هو أن نتحسّر على فقدانه وأن نتقدم بالتعازي لعائلته ومقربيه، ونتمنى أن لا تتحول الذاكرة إلى نسيان. لقد كان أحد أساتذتي واحد أصدقائي طيلة 45 عاما. إنني أعرف من أفقد، وأتمنى أن لا يغيب عن أنظارنا ما قام به لصالح بلاده، بتفانيه النموذجي إلى أن بلغ رمقه الأخير.

فلتشملك الرحمة والعناية الإلهية في العالم الآخر، يا مولاي عبد الله ؛ في ذلك العالم، سيكون بلاشك استقبالك عاليا يليق بسلوكك على هذه الأرض. إن صدق دموع كل من حظوا بشرف معرفتك، وأيضا كل الذين عرفوا سمعتك الطيبة، لهم خير شاهد على ذلك.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

(*) 11 شتنبر 2005.

36

المهدي بن بركة المربي
شهادة لتخليد الذكرى الأربعين بعد اختفائه

منذ اختطاف مناضل كبير من العالم الثالث، كان يناضل ضد إذلال مواطني البلدان «المستقلة حديثا»، عشنا عدم احترام كامل لأبسط معايير حقوق الإنسان من جانب عدة هيئات وطنية ودولية. وبهذه المناسبة الحزينة، ستكون شهادتي قبل كل شيء، علامة غضب ضد نظام دولي يجيز مثل هذه التجاوزات المفضوحة.

عرفت المهدي بن بركة خلال فترة نفيه، التي بدأت في يناير 1960 ؛لأنني كنت أتواجد بباريس كموظف دولي، وغالبا ما كنت أراه خلال زياراته لفرنسا، وكان آخرها في أكتوبر 1965، ربّما قبل اختفائه بقليل، وكنت كذلك أزوره في شامبيزي Chambesy عندما أكون في جنيف بمناسبة مؤتمرات دولية.

إن تاريخ 29 أكتوبر، هو تاريخ يوم للذكرى والترحم بالنسبة لكل المدافعين عن الحرية ومناضلي حركات التحرر. لقد فهم المهدي بن بركة، مبكرا أن استقلال دول العالم الثالث، لم يكن سوى محطة هشة في طريق طويل جدا(*).

لقد كان أيضا واعيا[1]، بأن التحرر يتطلب تعاونا وثيقا بين دول الجنوب، وكذا جمع كتلة انتقادية قادرة على وقف أمبريالية وحشية لم تغادر المكان

(*) 29 أكتوبر 2005، نشرت بـ Economiste (الأكونومست) الدار البيضاء 28 أكتوبر 2005، لوجورنال الدار البيضاء 2005 الأيام الدار البيضاء 31 أكتوبر 2005.

(1) «نحن أعداء الإستعمار سنحاربه بكل الوسائل حتى وإن كان يعتقد أن بإمكانه أن يعول على أذناب يحرفون الوقائع من خلال البحث عن إضفاء صبغة الإنشقاقات الحزبية على الكفاح الوطني... التجارب علمتنا أن حجب الحقائق لا يمكن أن يؤدي إلى كشف الذين يقفون وراءه وأن المتآمرين الإستعماريين وأذنابهم هم الذين يتلقون الهزيمة» محاضرة للمهدي بن بركة خلال لقاء مع الطلبة في الدار البيضاء في بداية يناير 1960، قبل أيام على رحيله إلى المنفى، نشرت بجريدة «الرأي العام» يوم 10 يناير 1960.

إلا ظاهريا حتى تتجذر فيه أكثر. ولذا، خصص جزءا مهما من مجهوداته لتشجيع وحدة الدول الإفريقية، كخطوة مهمة نحو التعاون بين دول الجنوب.

وكأستاذ سابق للرياضيات ومربي مشهود له، تحضرني قولة جميلة ومفيدة لأحمد خان (وهو أحد زعماء الإصلاح الحديث)، كان يقول فيها «أنظروا إلى الانجليز كلّما زادت تربيتهم زادت ثروتهم». والمهدي بن بركة كان ينوي إصدار مجلة إفريقية، كان يتصورها كـ «أداة للتوجيه والتوضيح»، لأنه حسب قوله، وصل إلى خلاصتين :

«الأولى، هي أن الوحدة السياسية مستحيلة حاليا، بسبب مخلفات الإستعمار التقليدي. والثانية، هي أن الوحدة ممكنة وضرورية في الميدان الاقتصادي بالمقارنة مع المساعدة الخارجية وفوضى التجارة الدولية والتجارة».

كان المهدي بن بركة رجلا ذا ثقافة واسعة وحيوية فكرية نادرة، كان يتقن عدة لغات ويستوعب دون عناء قيم الحضارات الأخرى دون أن يفقد قيمه الخاصة، وكانت له خصال تساعده على التواصل واقناع مخاطبيه. إن محاربة الاستعمار من جهة وإعطاء الأهمية اللازمة لدور التربية والبيداغوجية للتحرير من جهة أخرى، كانا من المحاور الأساسية لنشاطه. وقد بدأت بوادر نشاطه تعطي ثمارها نظرا للاعتراف بنضاله في افريقيا ودوره الأساسي بصفته رئيسا للجنة التحضيرية الدولية للمناظرة بالقارات الثلاث التي انعقدت بهفانا شهر يناير 1966 قبل اغتياله، وهذا التزامن يدفع إلى التفكير.

لابد من إعادة قراءة الخطاب الذي ألقاه في الاجتماع التحضيري المنعقد في شتنبر 1964 بموش بتانغانيكا، لإدراك بعد النظر لهذا الرجل والأهداف والغايات التي كان يوليها لحركة التضامن بين دول العالم الثالث ؛ لقد قال فيديل كاسترو في افتتاح مؤتمر القارات الثلاث يوم 16 يناير 1966 :

«نريد أن نعترف بأن بن بركة بتفانيه وعمله الشخصي، لعب دورا حاسما في تنظيم هذا المؤتمر الأول للقارات الثلاث، لقد كان مجهوده وعمله سببا فيما وقع له ؛ هناك اتفاق عام بأن بن بركة قُتل بقساوة وجبن. ومن واجب هذا المؤتمر التضامني الاعتراف بالتفاني الذي اشتغل به من أجل إنجاحه (المؤتمر)، وعليه أن يطالب بالتحقيق في هذه الجريمة، وأن يعاقب المجرمون»[2].

(2) http://Lanic.vtexous.eo/u/La/cb/cuba/casho/1966/196602/6

لقد قدم المهدي بن بركة حياته ثمنا لنضاله الفعال وإصراره على الكفاح ضد الاستعمار والأمبريالية، ومعرفته بإشكالية علاقات شمال/جنوب وجنوب/جنوب بمعطيات دقيقة، وإيمانه الواسع بالتضامن بين دول العالم الثالث، ومعرفة دقيقة بالمحيط الدولي الذي يتحكم في هذا العمل، لا يمكن استعادتهما.

إن بيداغوجيا التحرير عنده، مازالت تشكل مدرسة حتى يومنا هذا ؛ لقد أصبح أكثر فأكثر يحرج القادة الذين كانوا يتشبثون بالمستعمر حتى يحافظوا على السلطة، وكان يكشف بطريقة مقنعة أطماع الأمبرياليين.

وهذه البيداغوجيا، المتمثلة في إعادة النظر في السياسات المتبعة ؛ ربما كانت أحد أسباب المؤامرة الدولية التي أدت إلى اختطافه.

ومظاهرة اليوم، في ذكرى 40 سنة على اغتياله، تسمح لنا بأن نتقاسم الألم مع أقربائه، زوجته غيثة وأبناءه البشير، وفوز، ومنصور، وسعد ؛ الذين عاشوا ومازالوا يعيشون جحيما. لقد جعلوا من البحث عن الحقيقة والدفاع عن الذاكرة همهم الأساسي، فكل التقدير والمواساة لهم.

يوم 29 أكتوبر، يجب أن يخلد كل سنة في كل أرجاء العالم كيوم للذاكرة، فالذاكرة هي أحد مفاتيح التنمية والتقدم، لأنها تسهل تراكم التجارب والدروس التي تستخلص منها، وتحد من مخاطر فقدان الذاكرة والنسيان لدى أولئك الذين يتحدثون عن «طي الصفحة». ولكن لكي نطوي الصفحة لابد أولا من قراءتها بعناية، للتوصل إلى الخلاصات الضرورية قبل بدء الصفحة الأخرى، صفحة اختفاء المهدي بن بركة، لا يمكن طيها إلا عندما يتم التعرف عن المسؤولين عنها وأن تقول العدالة كلمتها فيهم.

وحتى بعد مرور 40 سنة على اختطافه، مازال اسم المهدي بن بركة يصدح لدى كل المغاربة ولدى عدد لا يحصى من الذين يعانون من ظلم وإهانات الاستعمار الجديد والإمبريالية.

المهدي، أنت دائما حاضر وقريب جدا من كل الذين يحاربون من أجل الحرية والتحرر، وكثير منهم يتساءلون : ماذا سيكون موقفك لو أنك مازلت معنا، من :

- الوضع الدولي بصفة عامة ؟
- الهيمنة الأمريكية وحروبها المدمرة التي تخلف مئات الآلاف من الضحايا ؟
- الانحياز الممنهج لـ «غير المنحازين» إلى جانب القوى الغربية ؟
- تفكك إفريقيا وإفقارها ؟
- تفتيت العالم العربي وخضوع قادته الفاسدين ؟
- المأساة الفلسطينية ؛ حيث يتزايد نهب الأراضي ولائحة الضحايا ترتفع دون نهاية ؟
- الإحتلال الهمجي للعراق، الذي يدمر ويقسم بدون خجل في واضحة النهار في خرق سافر لأبسط قواعد القانون الدولي وبتواطؤ دنيء من دول الجوار ؟
- إفلاس مشروع المغرب العربي الكبير الذي كان أحد أحلامك ؟
- نمو تخلف بلدك الذي يعاني حاليا من استسلام الدولة، وبيع ممتلكاته في المزاد، ومن غياب ديمقراطية حقيقية، ومن فوارق اقتصادية واجتماعية صارخة، ومن ازدهار للفساد والإنتهازية لدى جزء مهم من نخبته، ومن استلاب ثقافي ؛ حتى لا نذكر إلا هذه الأمراض ؛ أمراض ليست حكرا على المغرب وحده، ولكنها منتشرة في معظم دول العالم الثالث تقريبا ؛ عالم ثالث يسير إلى الهاوية ؟

إلى متى هذا الإنحراف يا مهدي ؟

إن البحث عن أجوبة افتراضية باسمك لهذه الأسئلة، ربما يكون أفضل طريقة للإحتفال بغيابك، من خلال تواجد متواصل لأفكارك التي نحن في أمسّ الحاجة إليها اليوم من أي وقت مضى.

حررت هذه الشهادة يوم 25 أكتوبر 2005 ليتم إلقاؤها بباريس في الذكرى الأربعين لاختطاف المهدي بن بركة.

37

أخطر إرهاب إرهاب الدولة(*)

إلى أين نحن سائرون ؟ تساؤل أرْهق عالم المستقبليات، الدكتور المهدي المنجرة، في ظل غياب رؤية واضحة المقاصد ومحددة المعالم. ويذكّر على الدوام بأنه، لا أفق لنمو مستقل بدون رؤية لدى المسؤولين والقائمين على الأمور. هذا في مناخ أضحى مطبوعا بالحروب الحضارية ومستقبل لن يستقيم بدون تعددية فكرية وحماية هذه التعددية وصيانتها.

لقد حسم الدكتور المنجرة موقفه بخصوص جملة من القضايا، انطلاقا من قاعدة تُقِرّ أنه كل ما ينتج عن خلل جذري، فهو مختل، خصوصا عندما تغيب المصداقية.

ففي وقت نعيش فيه بهاجس الأمن والاستقرار، يؤكد عالم المستقبليات على أن الرؤية نتيجة لتفكير شعب كامل، ولكي نواصل سيرنا، علينا معرفة من أين أتينا ؟ وأين نحن الآن ؟ وإلى أين نسير ؟

ثم يعود ليتساءل، إلى متى سيظل بقاءنا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي رهينا بالآخر ؟

ماضي مازال لم يسترجع بعد، وحاضر منفلت من اليد، ومستقبل «مخوصص».

ويقر الدكتور المهدي المنجرة، أنه لا يخاف على المغرب، وإنما يخاف عليه من القائمين على أمور المغاربة. وبالرغم من تشاؤم الواقع، يحث على تفاؤل الإرادة، ويؤكد على أن المعرفة سلاح لمحاربة الظلم والإضطهاد.

هذه بعض محاور لقائنا مع الدكتور المهدي المنجرة.

(*) المشعل – البيضاء 15-09-2006.

قضايا مغربية : ماضينا ليس بيدنا والحاضر يتصرف فيه آخرون والمستقبل مرهون

□ في لقاء مع الدكتور المهدي المنجرة، شرعت بطرح جملة من الأسئلة بخصوص قضايا سياسية (الدستور، الأحزاب، الاستحقاقات القائمة و...)؛ قاطعني وقال :

□□ هناك جملة من القضايا لا أريد الإجابة عنها، لأن جوابي بخصوصها أضحى معروفا لدى الجميع، أرفض الجواب عن أسئلة مرتبطة بالقضايا السياسية والأحزاب والبرلمان بغرفتيه والانتخابات ؛ لأنها بالنسبة لي قضايا فرعية ناتجة عن قضية تمثل «شرط عين»، حسمت فيها منذ أن طلب مني الملك الراحل محمد الخامس المساهمة في صياغة أول دستور ورفضت، باعتبار أن القضية بالنسبة لي قضية قيم حددت موقفي بخصوصها سلفا.

فإذا أخذت مثلا السؤال حول الدستور أو البرلمان أو الأحزاب، فهناك جواب ينطبق عليها كلها وعلى كل القضايا السياسية الأخرى المتفرعة عنها، وسيكون جوابي هو أن الأحزاب مثلا تؤيد وتشتغل في مناخ يشوبه اختلال جذري وبنيوي ؛ فتحليلاتي كلها تحليلات منظومات أو نظم، وعندما نتحرك في نظم مختلة أصلا، فالنتيجة تكون بالضرورة مختلة، وللوقوف على الاختلال الجذري وجب الرجوع إلى «العين» (أو «شرط عين» حسب لغة الفقهاء)، فمن المعروف في الشريعة الإسلامية أن هناك العين وهناك المقاصد، وما عدا ذلك، فالأشياء الأخرى وسائل وطرق.

ففي 1960 استدعاني الملك الراحل محمد الخامس رفقة أحمد عصمان وعبد اللطيف الفيلالي وآخرين، لصياغة الدستور ؛ اختار رحمه الله واحدا، تابع دراسته العليا بإسبانيا وتكون فيها، وآخر درس بفرنسا، وثالثا أنهى دراسته الجامعية بمصر. واختارني أنا، لأنني تعلمت في الدول الأنكلوساكسونية، لكنني رفضت المساهمة في صياغة الدستور المغربي، وكان محمد عواد، مدير الديوان آنذاك، سينشر هذا الخبر، فقلت له : إذا

نشرت أنني دخلت للمساهمة في الصياغة... سأقوم بتكذيب هذا القول. بكل بساطة موقفي هذا مبني على القيم، وأنا كنت على الدوام رجل قيم، ولذلك رفضت جملة من المسؤوليات الدولية التي قدمت لي على طبق من ذهب.

قلت لسي محمد عواد، مدير الديوان آنذاك، بالنسبة لي الدستور يجب أن يكون مصدرا عينه الشعب المغربي، وإن كان ممنوحا فأنا لا أقبله ؛ لهذا رفضت المساهمة في صياغة الدستور في ذلك الوقت. ولهذا أقول، إن المنظومة مختلة منذ البداية، وزاد هذا الاختلال بفعل قبول الأحزاب المشاركة في اللعبة ؛ فهناك خلل أصلي في الشكل، ومن الطبيعي أن يشوب الاختلال كل ما نتج عن الخلل الأصلي.

فموقفي إذن، موقف شرعي خلقي ؛ أما إذا قلت لي الآن إن «العين» عندي حق للدولة وليس للشعب، أقول لا ثم لا ؛ لأن الشيء الممنوح الوحيد، في نظر المسلم، هو القرآن الكريم، كتاب الله المنزل، ولا شيئا آخر سواه.

هذه هي القضية الجوهرية بالنسبة لي. وهي جواب على كل أسئلتك المتعلقة بالدستور والأحزاب والبرلمان والانتخابات وغيرها من الأسئلة السياسية الفرعية.

فجوابي واحد بخصوص الجوهر، أي شرط العين ؛ لاسيما وأنه عندما تزول المصداقية، كل ما يروح معها يكون من الصعب استرجاعه.

لهذا، فأنا لا أساهم في الانتخابات ولم يسبق لي أن ترشحت أو ساندت هذا الحزب أو ذاك، مادام مرتكزي شرعي خلقي ؛ لأن القضية قضية قيم أولا.

□ ما قولكم بخصوص مفهوم الاستقرار ؟

□□ بادئ ذي بدء، لا يمكن التحرك في نطاق الدراسات المستقبلية والحديث عن الاستقرار كمفهوم، باعتبار أن الاستقرار يوحي بالموت.

كانت أول دراستي في البيولوجيا ـ علوم الحياة ؛ فالاستقرار مجال لا يتحرك، لأن المهم هو أن ترى ما هي التطورات. فعندما تقول رؤية، بالنسبة لي، فهي تعني نتيجة تفكير مجموعة وليس شعب كامل، أو على الأقل تفكير فئة معينة في وقت معين. الاستقلال المغربي جاء نتيجة لرؤية كانت عند الشعب وليست عند شخص معين.

أتحدى أن يدلني أحد على رؤية شاملة معتمدة حول مستقبل المغرب ؛ للأسف الكل مشغول بالآنية. لكن لكي نواصل سيرنا، علينا أن نعرف من أين أتينا، وأين نحن، وإلى أين نسير ؟ فمازلنا لم نسترجع بعد ماضينا وتاريخنا، كما أن حاضر المغرب، هو كذلك الآن بيد غير المغاربة الذين يتحكّمون فيه ؛ أما المستقبل فهو مرهون وخاضع لإشارات وتوصيات وتوجيهات، تبلورت خارج المغرب ومن طرف غير المغاربة.

لقد أصبحنا بالمغرب نعيش بهاجس الأمن والاستقرار ؛ هذه هي الضمانة لتحضى بمساعدة أمريكا وفرنسا وغيرهما. علما أن الوضع يستوجب إجراء عملية جراحية، وكلما تأخرت هذه العملية زادت التكلفة.

□ وماذا عن تنمية الموارد البشرية ؟

□□ عندما كنت عضوا في نادي روما، حين كانت تسوده النزاهة الفكرية، وقبل أن يصبح مجرد صالون، كان لي شرف إعداد تقريره الثاني وكان بعنوان :

«On ne finit pas d'apprendre» من المهد إلى اللحد.

آنذاك، منذ أكثر من عشرين سنة خلت، تطرقت لإشكالية الموارد البشرية وقيمتها وأهميتها ؛ لكن يبدو أن ردود أفعالنا تأتي دائما متأخرة، إذ لم نول هذه الإشكالية الأهمية التي تستحقها إلا مؤخرا ؛ ورغم حسن النوايا، فالنتائج المحققة إلى حد الآن غير مقنعة.

□ في نظركم لماذا غاب المغرب عن لعب دور أساسي في حرب لبنان الأخيرة، باستثناء الاستنكار المحتشم ؟

□□ بكل بساطة لأن المغرب مثل بقية الدول العربية والمسلمة لازال مستعمرا.

هل سبق لك أن اطلعت على بلاغ حكومي أو صادر عن جهة رسمية وردت فيه عبارة : حماس وحزب الله أو إحداهما. بل أكثر من هذا، هل تقوى أية جهة رسمية أن تنبس بكلمة إيجابية بخصوص حماس أو حزب الله ؟ يقولون نحن مع الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني ومع المقاومة، والمقاومة الموجودة في العالم العربي حاليا هما اثنين : حماس وحزب الله.

لقد غابت الثقة في النفس، مادام أنك تعرف أن بقاءك الاقتصادي والاجتماعي، وحتى السياسي، رهين بالآخر ؛ إذن لم يبق لك اختيار كما هو الحال بالنسبة للآخرين.

وفي جميع محاضراتي أمثل المغرب كسيارة تريد الإقلاع.

إذن، تصور معي المغرب كسيارة، تركب فيها، وقبل الانطلاق تنظر إلى المرآة التي تعكس لك ما يجري خلفك (retroviseur)، أي الماضي، من أين أتيت ؟ فتجد أن أكثر المراجع استعمارية، وليس هناك إلا دراسات نادرة اهتمت بالتاريخ الحديث. عندنا، في العالم العربي، فضل المؤرخون التخصص في التاريخ القديم والمتوسط، يلقنونه بالجامعات والمعاهد العليا، ولهم الحرية المطلقة في الحديث عنه دون خوف، ولن يخلق لهم مشاكل مع الحكام. إذن مرجعيتنا في تاريخنا استعمارية، والمراجع غير الاستعمارية، النادرة جدا («الاستقصاء» على سبيل المثال لا الحصر)، لا تدرس ولا تستعمل في منظومة تعليمنا، باعتبار أن هناك تاريخ رسمي هو القابل للتدريس دون سواه، وهناك تاريخ استعماري وجب أن يكون هو المرجعية ؛ وبالتالي فإن المرآة العاكسة لما يجري في الخلف، لا تظهر لك،

ماضيك كما هو، ولكن كما أريد له أن يكون. ومن هنا تطرح ضرورة استرجاع الماضي الحقيقي للتمكن من انطلاقة فعلية.

أنت مازلت لم تسترجع لحد الآن هذا التاريخ ويفاجئك مسؤولون وسياسيون ومؤرخون، ويعلنوا عبر مختلف وسائل الإعلام «علينا طي الصفحة» ؛ فكيف لك أن تطويها وأنت لم تقرأها بعد ؟ إذن يجب عليك أولا أن تسترجع ماضيك ؛ وللإشارة فالماضي هو أهم شيء في الدراسات المستقبلية، والذي يهمني الآن، بخصوص 50 عاما القادمة، هو كيف سيفهم المغاربة تاريخهم ؟ ذلك باعتبار أن التاريخ ليس شيئا ميتا.

وإذا مسكت الآن بمقود السيارة، لكن من هو موجهها الحقيقي، اقتصاديا ؛ أليس البنك العالمي والمساعد الفني ؟ ومن سائقها من الناحية الأمنية ؟ ومن الناحية الاجتماعية والثقافية والإعلامية ؟ وأنت تعلم أن 90 في المائة مما ينشر في الصحف بالمغرب عن الشؤون الدولية من مصادر أجنبية.

في كل القطاعات، ليس هناك ما يفيد الاهتمام بالذاتية المغربية، بمعنى أن تقر بالأشياء وتقرر فيها بنفسك، لا تقول إن عليك العيش منعزلا، لكن إن كان هناك تعاونا يجب على الأقل أن تعرف ما هي حاجياتك وماذا يريد الناس لتمتلك خيوط حاضرك ومستقبلك.

فما حدث مثلا من دمار في لبنان هو بداية يقظة، والانتفاضات الحقيقية ليست انتفاضات بالأسلحة، لأن الناس فهمت... والأنظمة السياسية كما هي في العالم العربي فقدت مصداقيتها ؛ وإذا ضاعت المصداقية، لا يمكن اقتناؤها من البنك الدولي أو استرجاعها عبر المساعدات الفنية الأمريكية أو الفرنسية...

□ هل يمكن القول بكل ثقة في النفس، إنه لا خوف على المغرب ؟

□□ أنا لا أخاف على بلادي، أنا أخاف على المسؤولين والقائمين على الأمور وعلى مستقبلهم، فخوفي مرتبط بالطريق الذي يسلكونه، فأنا لا أخاف على المغرب، وإنما أخاف على المغرب من المغاربة.

فما حصل في لبنان، وما حصل في كركور فعل عند الشعوب، وهذا الصمود الذي عايناه ؛ كل هذا بداية. فلست متشائما، ولا يمكن أن تهتم بالدراسات المستقبلية، وبالحد الأدنى من العدالة الاجتماعية، ولا يمكن أن تحارب الظلم، إذا لم تكن متفائلا ؛ علما بأنني ضد العنف وكل أشكاله. لقد كنت دائما معجبا بفلسفة جوهر فلسفة غاندي وتبنيتها، لدرجة أنني لم أقْوَ، يوما على صيد سمكة ولا قطف وردة من بستاني، لم يسبق أن استعملت يدي ضد أي أحد ؛ لكن يمكن لكلامي أن يكون أحيانا قويا. فغاندي نفسه قال «إذا كان الاختيار بين الجبن والعنف أوصي بالعنف»، لأنه في هذه الحالة، العنف ليس عنفا، وإنما هو دفاع عن النفس وعن الكرامة. وأهم شيء في حقوق الإنسان هي الكرامة.

وعموما أقول ما قاله غرامشي : «يجب أن يكون عندنا تشاؤم الواقع، ولكن مع تفاؤل الإرادة».

لا يمكن الإقرار بأن الواقع وردي، في حين أنه أسود. لكن هذا لا يمنع أن تكون لدينا الإرادة، التي هي سبب التفاؤل. والآن الإرادة الموجودة في العالم العربي والإسلامي تحمل اسما، هو «حماس وحزب الله».

صمود لبنان يسقط الأقنعة : زادت المداخيل النفطية في الدول العربية، وكل يوم كانت تحصد 500 مليون دولار إضافية على حساب دم الشهداء في لبنان وفلسطين.

□ كيف تقيمون ما وقع في لبنان ؟

□□ ما حدث في لبنان، كان متوقعا إلى حد ما ؛ إن الهجوم الأمريكي الإسرائيلي الغربي، أولا وقبل كل شيء، هو ضد القيم غير اليهودية المسيحية ؛ إنها حلقة جديدة من مسلسل حرب حضارية ؛ لكن الأهم، هو أننا لا يمكن أن نتصور ونفهم ما حدث في لبنان دون تواطؤ بقية الدول العربية والإسلامية. إن الأمريكيين وحلفاءهم، هم أناس كانوا على يقين بأن

الحكام العرب لن يحركوا ساكنا، وأنهم لن يساندوا لا لبنان ولا فلسطين (لا أتحدث عن فلسطين الرسمية أصحاب التصهين وإنما عن فلسطين الحركة الشعبية، أي فلسطين المقاومة الحقيقية).

ففي عام 1973، استعمل سلاح النفط ؛ وكان له أثر ملحوظ، فهل تحركت الدول النفطية ؟

بالعكس، على امتداد أيام حرب لبنان، زادت المداخيل النفطية في الدول العربية بما نسبته 10 في المائة، وكل يوم كانت القيادة تحصد 500 مليون دولار.

وقد تحقق هذا الربح الإضافي على حساب دم الشهداء في لبنان وفلسطين. لذلك، كن على يقين أن النفط لن يستعمل كورقة ضغط، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ؛ تبين بجلاء أن الحكومات العربية، كلها وبدون استثناء، لم تؤيد حركة حماس ولم تدافع عن حزب الله ؛ بل اعتبرت ما قامت به مغامرة خطيرة.

والآن، وبعد ما حصل في لبنان، أقول إن الطريق أضحى مفتوحا، والحالة هذه، كيف تريدني أن «أواخذ» إسرائيل وأمريكا، وأنا أعاين ما يحصل في بلداننا العربية ؛ فحتى عندما أراد الشارع العربي أن يتحرك، وجه ومنع من طرف الحكام والحكومات.

الشعوب العربية الآن فهمت الهمجية الإسرائيلية، وفهمت أسباب الصهيونية وأهدافها.

إذا تمكن الإسرائيليون من تحطيم البنية التحتية في لبنان، فإنه يمكن إعادة بنائها ؛ ألمانيا واليابان صارتا من أقوى البلدان بعد الحرب ؛ ولذلك، هناك شيء لا يمكن تحطيمه، الإيمان والثقة في النفس التي بدأت في فلسطين ولبنان، وستشمل بقية الدول تدريجيا، فهل سيتم هذا في 15 و30 سنة ؟ هذا لا يهم، مادام التيار قد انطلق.

صمود مقاتلي حزب الله، استرجع الكرامة التي افتقدها العرب منذ مدة ؛ فالحركة الوطنية العربية الوحيدة التي دفعت أصحاب الحق إلى الشارع، هما حماس وحزب الله.

▫ ما رأيكم في المساعدات التي تبرعت بها الدول العربية على لبنان ؟

▫▫ عن أية مساعدات تتحدث ؟ كان الأولى للقادة العرب أن يستعملوا سلاح النفط، إن كان فعلا مقصدهم هو الدفاع عن كرامتهم وكرامة شعوبهم.

حاليا يقدر مخزون النفط العالمي بما يناهز 1000 مليار برميل. وهناك سبع دول عربية نفطية، هي السعودية والعراق والكويت والإمارات وليبيا وقطر والجزائر، نصيبها من المخزون العالمي يقدر بـ 650 مليار برميل، أي ما يمثل ثلثي المخزون العالمي الحالي.

وإذا أضفنا إلى السبعة، إيران وهي دولة مسلمة، سنصل تقريبا إلى 800 مليار برميل، أي ما يعادل 80 في المائة من مخزون النفط العالمي. وحقا، يؤلمني كثيرا عدم استعمال سلاح النفط للدفاع عن كرامة الشعوب العربية.

ولنتطرق الآن لقضية المساعدات، وهي قضية أدهى وأمر ؛ فإذا كان مدخول النفط في العالم العربي يقدر بـ 1700 مليار دولار في السنة، أي ما يعادل 5 ملايير دولار يوميا (50 مليار درهم)، لكن منذ بداية الهجوم على لبنان، ارتفع ثمن النفط تقريبا بـ 10 دولارات، ونتجت عن هذه الزيادة أرباح غير عادية، وبنسبة 10 في المائة عن كل برميل، أي مدخول إضافي يومي يقدر بـ 500 مليون دولار يوميا ؛ وإذا علمنا أن الحرب على لبنان دامت ما يناهز الشهر، فيكون الربح الاستثنائي قد تجاوز 15 مليار دولار تضاف إلى المدخول المعتاد ؛ ولما نسمع السعودية تقول إنها تبرعت بكذا مليون دولار، والكويت بكذا... وهم حصدوا هذه المبالغ على دم المجاهدين، فهل يمكن أن يبقى أي منطق، وأي قيم، وأي أخلاق ؟ هذه هي حقيقة

المساعدات التي تم التبجح بها. لهذا اقترح على القادة والرؤساء والقائمين على الأمور في هذه الدول أن يتقاعدوا ويذهبوا إلى الخارج ويتمتعوا بما راكموه من أموال ويتركوا شعوبهم تعيش بكرامة.

□ هل تعتبرون أن السيد حسن نصر الله رجل الساعة ؟

□□ أولا، إن تحليلاتي كلها لا تهتم بالأشخاص، فالتحليل الذي يتمحور حول الشخص غالبا ما يسير في اتجاه أحادي، فالأشخاص في التاريخ كما يقول الكيميائيون، يلعبون دور العامل «المحفز» و«الوسيط» (catalyseur) في المعادلة ؛ لكنه لا يحدث أي تغيير على المعادلة ولا يتغير بنفسه في حد ذاته.

لو كان السيد حسن نصر الله وحده، ماذا كان سيفعل ؟ لقد سبق وأن اغتالوا وقتلوا زعماء في حزب الله، لكن جاء آخرون. نعم، في الظروف التي برز فيها السيد نصر الله، تأكد أنه تصرف بقيم وبمصداقية، فلم يفكر ولو مرة في ضرب المنشآت الكيماوية. وفي هذا الصدد علينا أن لا ننسى كلام بنغريون سنة 1948، إذ قال : «لا يمكن لإسرائيل أن تخسر أي حرب، وأي حرب ستخسرها ستكون آخر حرب».

□ هل طلبتم من قناة «الجزيرة» بث ندائك الداعي لمقاطعة المهرجانات المتزامنة مع الهجوم على لبنان ؟

□□ آلمني كثيرا أن أرى الدارالبيضاء، التي تربيت فيها، تنظم مهرجانا ؛ في الوقت الذي كان يقتل فيه اللبنانيون يوميا على مدار 24 ساعة، ومهرجان آخر انطلق في نفس الفترة بالرباط، وآخر في طنجة وفي غيرها من المدن المغربية ؛ آنذاك طلبت من قناة «الجزيرة»، منذ الأسبوع الأول من الحرب على لبنان، بث نداء لمقاطعة تلك المهرجانات.

أنا لست ضد المهرجانات، فالبلدان التي تفتقر للإبداع وللموسيقى والمسرح.. ولحركة ثقافية، لا مستقبل لها.

عندما كنت مديرا للإذاعة في أواخر الخمسينيات، نظمت بمعية جملة من الأشخاص، منهم مولاي أحمد العلوي (الديوان الملكي) ومدير السياحة آنذاك، عبد الحق الشرايبي، أول مهرجان موسيقي بالمغرب، سنة 1959 ، وكان تحت إشراف الأمير مولاي عبد الله ؛ وفي اليونسكو نظمت الكثير من المهرجانات.

وكان فحوى النداء هو : «احترموا أنفسكم وقاطعوا تلك المهرجانات التي فيها الفرح وأتفه الكلام» ؛ فتونس قررت توقيف المهرجانات، كيف يا بلاد المغرب، بلاد الحركة الوطنية، بلاد محمد الخامس، ومؤتمر الدار البيضاء والزرقطوني وعلال بن عبد الله... ترضين بالاحتفال...

الأنظمة العربية مغلوب على أمرها : أثر العرب والمسلمين المليار والنصف في العالم، اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، لا يكاد يظهر

▫ حكمتم على الأنظمة العربية بالإفلاس منذ أمد بعيد، فما مرد ذلك ؟

▫▫ أغلب الأنظمة العربية وحكوماتها تؤيد الظلم وتنطلق منه، ويترتب على ذلك فقدان المصداقية.

القاسم المشترك للأنظمة العربية، هو أنها ظلت على امتداد وجودها تفتقد كلها الرؤية ؛ لأن الرؤية لا يمكن أن تكون بدون حرية وتبادل الآراء والاجتهاد وكذلك الإجماع ؛ وهذه الأمور كلّها قادمة حتما، لأننا وصلنا إلى درجة من الفشل، لا يمكن معها أن نظل نسير في نفس المسيرة وعلى ذات المسار.

أكرر فأقول، إن الدول العربية تفتقر إلى الرؤية والتدبير الاستراتيجي لما تريد تحقيقه، فالأنظمة العربية أفلست سياسيا واجتماعيا وأخلاقيا منذ أمد بعيد، ولا يفكر الحكام والقادة العرب، في أغلبيتهم، سوى في كيفية استمرارهم في الحكم مهما كان الثمن وبأية وسيلة، إنهم لا يثقون في أنفسهم، وأغلب الأنظمة مفروضة على شعوبها، التي تدافع عن الكرامة

والحرية ؛ في حين تكرس الحكومات العربية الإهانة المركبة وتعمل على استدامتها.

لهذا، فإن العرب والمسلمين، الذين يفوق عددهم المليار والنصف، لا أثر لهم نسبيا في العالم، اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ؛ في حين أن نفوذ اليهود، رغم أن عددهم لا يتجاوز 13 مليون نسمة، من ضمنهم 34 في المائة بإسرائيل و41 في المائة يعيشون بالولايات المتحدة الأمريكية، يؤثرون وبقوة في السياسة والاقتصاد الدوليين. وهذا النفوذ يتجلى في الهجوم على القيم غير اليهودية المسيحية، وبالخصوص على الإسلام أو ما يسمى بالإسلاموفوبيا. ومرد هذا جزئيا، لممارسة الظلم في حق المسلمين وإهمال واستصغار وإهانة الأنظمة العربية والإسلامية وشعوبها.

لقد عاين الجميع جبن الجامعة العربية على امتداد وجودها، وبدت الصورة أكثر وضوحا منذ الحرب على العراق ؛ وفي هذا الصدد، كانت أطروحتي للدكتوراه في جامعة لندن سنة 1958 حول هذه الجامعة، وتبيّن لي أنها آلة استعمارية، وظلت ملحقة لوزارة الخارجية المصرية، ولما أصبحت هذه الوزارة ملحقة للبيت الأبيض والبنتاغون، ماتت الجامعة العربية.

▫ سبق وأن صرحتم أن الأنظمة العربية سوف لن تستمر طويلا، هل ما يحدث عبر العالم، وفي العالم العربي بالذات، مازال يؤكد هذا الاستبصار وهذا المسار ؟

▫▫ في كل دراساتي المستقبلية، أتكلم عن التيار والمسار ؛ فإذا بقيت نفس الأنظمة الحالية في نفس المسار، لا يمكن أن نتقدم، ستظل الأمية وسيبقى التخلف والفقر ولن نحقق العدالة الاجتماعية، وستزداد العجرفة. هذه هي الصورة المؤلمة التي لا يمكن للشعوب أن تقبلها إلى الأبد.

▫ هل يمكن اعتبار إهانة الأنظمة العربية لشعوبها، من الأسباب التي أدت إلى الأوضاع التي يعيشها العالم العربي الآن ؟

□□ في كتابي، «الإهانة» (2005)، قلت : «إننا نعيش إهانة معقدة ومركبة، هناك إهانة يومية للمسؤولين والقائمين على الأمور في بلدنا، ويقبلون هذه الإهانة بدون أدنى رد فعل».

عوض مواجهة أسباب الإهانة، يترجمون نفس الإهانة تجاه شعوبهم ويكرسونها، وتصبح إهانة الشعوب مضاعفة ومركبة ؛ فإلى متى سيظل الإنسان العربي يقبل بهذه الإهانة دونما رد فعل ؟ فهناك حد لا يمكن تجاوزه ؛ وإذا تم ذلك، ستصير انتفاضات بمفهوم «الانتفاضة»، كما وضحته في كتابي «انتفاضات» (2000).

□ هل لازال العرب يعانون من مركب نقص ؟

□□ في الواقع، لازلنا نعاني من مركب النقص ؛ أعطيك مثالا، هناك دراسة قيمة أنجزها عشرات من الخبراء العرب (بيروت 1985-1988)، وتوصلوا فيها إلى جملة من المشاهد ؛ ونشرت أبحاثهم في كتاب، وضمن تلك المشاهد، مشهد سميناه «مشهد التفكيك والتشتيت»، وهو الذي نعيشه الآن ؛ هذا الكتاب موجود في وزارات الخارجية والمعاهد والمراكز والجامعات الغربية، لكن يبدو أن لا أثر له في مكتبة عربية ولا في وزارة عربية.

وها هو مثال آخر، لما كنت في اليابان، بعد الحرب ضد أفغانستان، قدمت عدة محاضرات في مختلف أنحائه باللغة الأنجليزية (1999)، وتم تجميعها في كتاب باليابانية تحت عنوان : «هذه حرب حضارية ثانية ونهاية الإمبراطورية التي انطلقت منها» (2000) ؛ آنذاك كنت قد تنبأت بنهاية الإمبراطورية الأمريكية. وبعد هذا التنبؤ حل الرئيس «كلينتون» يوم 31 دجنبر 1999 ضيفا على برنامج CBS «ساعة واحدة مع...» وقال : «نحن على يقين أنه بعد 10 سنوات أو 15 سنة، سوف لن نبق أول قوة اقتصادية في العالم، ستأتي الصين، وبعد مدة لن نكون القوة الثانية، لأنه ستأتي الهند»، إن الأمريكيين يتوقعون ما سيحصل، لكن حتى إن لم تبق الولايات المتحدة الدولة الاقتصادية الأولى، فإنها ستصير مثل إسرائيل، التي هي من بين 20 أو 30 الدول الأولى، من الناحية الاقتصادية، نظرا لقلة سكانها ؛ لكنها الدولة

الرابعة بين الدول النووية ؛ إذن ستبقى لأمريكا الأسلحة التي يمكنها أن تبيد بها 30، 40 أو 50 مرة مجموع سكان العالم ؛ ومن الملاحظ أن الحكام بأمريكا الآن، لهم علاقة بالأسلحة وبالبنتاغون ؛ وبعد ذلك، في سنة 2002، صدر مؤلف للكاتب الأوروبي المشهور إمانويل طود، تحت عنوان : (la fin de l'empire نهاية الإمبراطورية)، ويعني أمريكا ؛ أضحى الكتاب مرجعا بهذا الخصوص، ولم يذكر المنجرة كمرجع ؛ علما أنني لا أشك في نزاهة الكاتب وأمانته، فهو باحث مشهود له بذلك، وهو الذي تنبأ بنهاية الإمبراطورية الروسية، ومن المحتمل جدا أنه لم يكن بباله أن هناك كتاب باليابانية، بخصوص الحرب الأفغانية، تطرق لأطروحة نهاية الإمبراطورية قبل صدور كتابه.

الخوفقراطية والإرهاب ، نعيش اليوم الخوف كوسيلة للحكم والتحكم

□ كانت الحرب ضد ما يسمى بالإرهاب، غطاءا لتكسير أي تفوق عسكري أو تكنولوجي متوقع للعرب أمام إسرائيل، هل الأمر مازال كذلك ؟

□□ في كتابي «الإهانة»، أكدت على أننا دخلنا في عهد الخوفقراطية، وأن الخوف سيصير وسيلة مهمة للتحكم ؛ فإذا كنا من قبل نشتغل في مجتمع إعلامي وبدور المعلومات في التنمية، فقد دخلنا الآن في مجتمع استخباراتي، قوامه، ليست حروب الإرهاب الحقيقي ؛ وإنما حرب الإرهاب اللغوي (الإرهاب السمنتيكي)، نعيش اليوم الخوف كوسيلة للحكم والتحكم.

في الحرب العالمية الثانية قال : فرانكلين روزفلت، في إحدى خطاباته المشهورة، جملة ذات دلالة كبيرة، جاء فيها : «الشيء الوحيد الذي يجب أن نخاف منه هو الخوف نفسه» ؛ تفصلنا الآن عن هذه الحرب سنوات عديدة، لكننا نعاين اليوم وبالملموس، حقيقة هذه القولة، أصبح الخوف هو جوهر السياسة الأمريكية التي لا يمكن فهمها دون عنصر الخوف، أي خوف الناس من الخوف نفسه.

لقد أكدت أكثر من دراسة، أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تناول السياسة الأمريكية ـ سياسة الدولة المسيرة للعالم حاليا ـ دون اللجوء إلى عنصر الخوف، وكيف تستعمل إمريكا الخوف والكذب حتى داخلها.

ولعل أحسن مجال يوضح طبيعة هذه السياسة المرتكزة على الخوف، التعامل مع إشكالية الإرهاب ؛ أنا كأستاذ في القانون الدولي والعلاقات الدولية أقول، إنه لا يوجد إلى حد الآن أي تعريف متفق عليه بخصوص ما هو الإرهاب.

ليس هناك أي تعريف منبثق عن الشرعية الدولية ومتفق عليه بخصوص الإرهاب، داخل الأمم المتحدة. لقد حاولت واشنطن حسم هذا الإشكال بعدة طرق، لكنها فشلت فشلا ذريعا ؛ فكيف والحالة هذه، يمكن الترويج لمحاربة الإرهاب ؟ وأظن أنه لأول مرة يريد المسلسل الشرعي أن يفهم الذنب، ويصف ما هو هذا الذنب، ويحلل الظروف التي يقترف فيها هذا الذنب ؛ وبعد ذلك تستعمل وسائل لمحاربته ؛ وكل هذا تم عن طريق الفرض بالقوة من طرف أمريكا.

لقد ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية وتناسلت عدة قوانين، وبعد إقرارها ؛ بدأ التصدير، هكذا، وبسرعة فائقة، اعتمدتها الدول الأخرى وأنتجت قوانين تسير على منوالها، وتم تمريرها بالبرلمان بسرعة لم يسبق لها مثيل ؛ هكذا، وبكل بساطة، كانت الإنطلاقة لتصدير الخوفقراطية من الولايات المتحدة الأمريكية إلى العالم بأسره.

مفاهيم ومستقبليات : «كن سبع وكولني» ولكن لا تكن «سبع وأنت تأكل التبن»

□ منذ الإعلان عن الحرب على الإرهاب، تفاقم وتوسع مدى إرهاب الدولة، فهل من علاقة بينهما ؟

□□ الحرب الأميريكية ضد الإرهاب، هي حرب جديدة - قديمة ؛ وهذا ما أكدته بوضوح أسباب الهجوم على العراق.

من بين هذه الأسباب، أن العراق كانت الدولة الوحيدة في العالم العربي التي حاربت الأمية ونجحت في ذلك ؛ علما أن طبيعة النظام السياسي هي قضية تهم العراقيين وحدهم، وأنني لا أساند الأنظمة العسكرية بالديكتاتورية ؛ كما أن العراق وصل لدرجة من التطور التكنولوجي لم يسبق أن حققته أي دولة عربية ؛ وبذلك، بدأ يشكل خطرا أكيدا على الوجود الإسرائيلي ؛ إذن، بالنسبة لواشنطن، كان من الضروري تحطيم العراق وإدخاله في حروب داخلية تشغله بعد تجريده من الأسلحة، لكي لا يظل يشكل خطرا على إسرائيل ؛ كما أنه، لما وصل حزب الله إلى درجة من البنية التكنولوجية، جرى ما جرى في لبنان للقضاء عليه ؛ لقد تأكدت قوته عندما تمكن من اختراق المخابرات الإسرائيلية والتعرف على أوضاعها ؛ لكن سر نجاح حزب الله، ليس تكنولوجيا فقط ؛ هناك كذلك نجاح نفسي، يقال عندنا «كن سبع وكولني» ولكن لا تكن «سبع وأنت تأكل التبن».

الآن هناك خطر إيران، أمريكا اختلقت حربا بينها وبين العراق، لأنهما معا يملكان النفط وقطعا شوطا مهما في التقدم التكنولوجي والبحث العلمي، تقاتلا البلدان وضاعت جهودهما بخصوص التنمية، ومازالت أمريكا مصرة على الوصول إلى إيران ؛ وتلعب حاليا على وتر ارتباطها مع حزب الله والشيعة بلبنان.

وما هذا إلا مجرد تمهيد ؛ لأنه أضحى من الواضح الآن أن الحرب الحضارية مسلسل ؛ بالأمس أفغانستان والعراق واليوم لبنان، وأردنا أم كرهنا، ستضرب سوريا إما بالقنابل وإما بانقلابات داخلية.

كل المؤشرات تفيد أننا في أوج مرحلة استعمار جديد، فها هي أوروبا بدأت تهتم بالحضور القوي ضمن قوات الأمم المتحدة، خلافا لما كان سائدا من قبل ؛ فهناك 7000 جندي أوروبي بالشرق الأوسط (لبنان)، ولم

يسبق أن عاينا الحضور الأوروبي بهذه القوة في القوات الأممية، وما هذا إلا مؤشر أولي للسعي الحثيث نحو تحطيم إيران.

إذن هناك تسلسل، في أي مكان في العالم حدث فيه تفوق علمي وتكنولوجي غير يهودي مسيحي، ستكون هناك أسباب لمحاربته بأي وسيلة كانت، تحت غطاء محاربة الإرهاب أو غير ذلك.

ومن هنا يتضح بجلاء، أن أخطر إرهاب هو إرهاب الدولة ؛ علما أن الإرهاب بدأ من طرف الصهاينة، وأول حركة إرهابية، كانت حركة «إيكود» الصهيونية، وأول عملية إرهابية بفلسطين اقترفها الصهاينة بفندق داوود بمدينة القدس، وكل الذين كانوا وراء هذا الإرهاب هم الذين حكموا إسرائيل وهم زعماء تاريخ إسرائيل.

كما أن بداية إرهاب الدولة هي الحروب ؛ كل الحروب، مهما كانت، هي إرهاب دولة وليس دفاعا على حدود أو على كرامة أو على قيم ؛ إنه إرهاب دولة لأسباب مصالح فئات معينة، وضحايا إرهاب الدولة أكثر من ضحايا الإرهاب الآني الحاصل في بعض دول عالم اليوم.

والحرب الحضارية الأولى، هي إرهاب دولة بامتياز ؛ فبعد مسيرة التضامن مع الشعب العراقي، المسيرة العفوية التي شارك فيها مليون شخص تلقائيا للتعبير عن التحام شعب بشعب آخر، قلت : الحرب على العراق هي أول حرب حضارية عالمية، وأضفت إنها الحرب العالمية الأولى كتعليق تلقائي. مباشرة بعد هذا التصريح، نشرت صحيفة «دير شبيغل» في صفحتها الأولى «المنجرة يتكلم عن حرب عالمية أولى»، انظر إلى فحوى هذا الإرهاب اللغوي، كيف أتكلم عن حرب عالمية أولى والعالم كان مسرحا لحربين عالميتين في عرف الغربيين ؟ إنه شيء غير مقبول من طرف العقلية الغربية ؛ والحقيقة، أن الحرب على العراق هي الحرب العالمية الأولى، لأن ما يسمى الحرب العالمية الأولى، هي في واقع الأمر حرب أوروبية - أوروبية ؛ وآنذاك، كان ثلث العالم تحت وطأة الاستعمار، ومن حيث أسبابها وأهدافها كانت أوروبية، ونفس الشيء بالنسبة للحرب

العالمية الثانية، كانت هي كذلك أوروبية ـ أوروبية، ولم تمس إلا مناطق محدودة خارج القارة الأوربية، ولم تتدخل أمريكا إلا في آخر ساعة.

ولما قلت إن الحرب على العراق هي الحرب العالمية الأولى، قامت القيامة ؛ وهذا مظهر من مظاهر إرهاب الدولة، إنها ليست حربا عالمية فقط، وإنما هي حرب حضارية وثقافية، وهو أقوى تمظهر لإرهاب الدولة في المرحلة الحالية.

□ أنتم صاحب مفهوم «الحرب الحضارية»، في نظركم إلى أي حد استطاع هذا المفهوم أن يفرض نفسه ؟

□□ إن كتاب «الحرب الحضارية» قد حطم الرقم القياسي في المبيعات بالمغرب، وترجم إلى اليابانية والإسبانية والفرنسية، وقد كان على وشك النشر باللغة الإنجليزية، بإحدى أهم الجامعات الأمريكية، وبمقدمة بقلم أكبر خبيرة أمريكية في الدفاع عن السلام، لكن في آخر دقيقة تم منعه من النشر بأمريكا.

منذ أكثر من ربع قرن، في حوار حول مستقبل العلاقات الدولية أذاعته «HKN» اليابانية، شارك فيه جاك جرفان شرايبر، قلت : إن الحروب المقبلة سيكون سببها ثقافيا، ولن يكون اقتصاديا أو سياسيا ؛ آنذاك كان ما قلته مجرد كلام، وفي بداية التسعينيات تلفظ بوش الأب، في تصريح له بكلمة بسيطة، لكنها ذات دلالة عميقة، لقد قال : «لن نسمح لأي أحد أن يغير نوعية حياتنا أو يمس بقيمنا». بعد مرور يومين استجوبني «راديو فرانس أنترناسيونال»، وقلت : «ستقوم الحرب»، وكان تصريحي هذا مبنيا على شيء بسيط، هو أن الولايات المتحدة الأمريكية أضحت مستعدة لخوض الحرب ليس لأسباب اقتصادية فقط، ولكن بسبب القيم وبسبب الدفاع عن نموذج لنوعية الحياة أو لفرضه ؛ وهذا الأمر ليس بالجديد، فقد سبق لابن خلدون أن أوضحه بخصوص النزاع بين القبائل.

لكن إذا كنت، أنا وهانتغنتن، نتفق بخصوص طبيعة الحروب، كونها أضحت حروبا حضارية، فهناك فرق كبير بين الموقفين :

موقفي وقائي، باعتبار أن الدراسات المستقبلية، هي أولا وقبل كل شيء، وقائية من أجل التنبيه وتصويب المسار ؛ حيث قلت إن المشكل مشكل قيم وبالتالي، باحترام متبادل للقيم ؛ وهذا ما سميته التواصل الثقافي، أنا أومن بالحوار، لأنني أومن بالتعددية، وأومن بما هو كوني، لأن لكل واحد منا الحق ليقر ما هو كوني بالنسبة إليه ؛ هذه هي الكونية ؛ وهذا موقف وقائي بامتياز.

لكن هانتنغتن جاء بفكرة أخرى مغايرة تماما، بعد أن أقر بأن الحروب ستكون حضارية ؛ فرض حلا مسبقا ووصف علاجا وحيدا لا ثاني له، إذ قال : «حقيقة إن الحروب المقبلة ستكون ثقافية وحضارية، وأصاب المنجرة عندما كان أول من أقر بذلك، لكن أين الخطر ؟ ومن أين سيأتي ؟» ثم أجاب فقال : «الخطر آت من العالم غير اليهودي المسيحي» ؛ أي أنه أعطى للقيم اليهودية والمسيحية الأولوية ؛ وهذا معناه أنه ليس هناك حلولا، الحل الوحيد الممكن هو فرض تلك القيم اليهودية المسيحية على بقية العالم ؛ وأي جزء من العالم سيرفض تلك القيم، هو مكمن الخطر وسببه الرئيسي ؛ وبالتالي منه ستنطلق الحروب. ولتفادي هذا الخطر، أضحى من الضروري القيام بحروب وقائية استباقية ؛ ولذلك، انطلقت الحرب على العراق، وهذه هي الأطروحة التي استندت عليها وأطرتها.

فإذا كنت، أنا كباحث مستقبلي، أستعمل الدراسات المستقبلية بطريقة وقائية ؛ فالآخر يسير في وجهة مناقضة تماما ؛ إذ نجده يحدد الخطر، والسبب في العالم غير اليهودي المسيحي، أي الإسلامي والكونفوشيوسي والبوذي... إلخ. هذا هو الفرق الشاسع بيني وبينه.

□ هل ما كشفت عنه دراساتكم المستقبلية تحقق ؟

□□ في الدراسات المستقبلية لا مجال للعلم بالغيب، إنها استبصار لمنحى تطور مسار انطلاقا من معطيات الأمس واليوم، المهم في الدراسات المستقبلية أنها دراسات للتيار.

وهي دراسات وقائية بالأساس. قد يقول باحث مستقبلي إنه بعد 20 سنة سيقع كذا وكذا، فيرى بعد مرور 10 سنوات بعض تحولات المسار؛ فيقوم

بتصويب خلاصة دراسته، كما هو الحال بالنسبة للذي يصوب الطلقة نحو الهدف ؛ قد يقترب منه في الطلقة الأولى، لكن قد يقترب منه أكثر أو يصيبه في الصميم في الثانية ؛ كما أنه فيما يسمى بالبالستيك يرسل أول صاروخ، وحتى إن لم ينجح في إصابة الهدف المرصود ؛ فعدم هذا النجاح هو معلوماتي في حد ذاته. ذلك أنه بفعل هذا الفشل يمكن الحصول على جملة من المعلومات لم تكن متوفرة من قبل بدقة ويمكنها أن تحقق النجاح في المرة القادمة.

فالدراسات المستقبلية، هي تركيب عقلاني وفهم للتطور وفي أي اتجاه يسير.

فأنا لا يهمني إن تحققت توقعاتي أم لا، وهي ليست توقعات، وإنما تحليل لمنظومات ؛ لأني لا ألعب «اللوطو أو اليناصيب»، فما يهمني بالأساس، هو إلى أي درجة هناك وعي وتوعية ؛ لأنه لكي تحدد التيار ومساره، عليك القيام بدراسات مهمة وبجمع معلومات. وحتى إن لم تنجح في توقعاتك، يمكن للآخرين استعمال تلك المعلومات لدراسات مستقبلية أخرى، وكلما كثرت مثل هذه الدراسات، زادت القائمين على الأمور وصناع القرار والمسؤولين خيارا، فالدراسات المستقبلية تعددية ووقائية.

وفي هذا الصدد، تحضرني قولتان، إحداهما لفيلسوف من وسط إفريقيا وإسمه كيجابو حيث قال : «والله إن القرود أحسن منا نحن في العالم الثالث ؛ لأنه عندما تقوم بفعل شيء أمام القرد يقلدك توا، في نفس الوقت. أما نحن، في العالم الثالث ننتظر طويلا حتى نقلد».

وقال لي يوما : «إذا أردت أن تعرف فحوى الإصلاح في بلداننا، عليك بقراءة إصلاح فرنسا الذي أنجزته قبل 5 سنوات، ثم انتظر 5 سنوات أخرى وسوف يأتي إليك، بمعنى آخر، يكون مستقبلنا ماضي الآخرين». وثانيهما لمفكّر إسلامي يقول فيه : «إن المقلد على غير ثقة فيما يقلد. وأن العقل خلق للتأمل والتدبّر، ويعد قبيحا من أعطي شمعة يستضيء بها فيطفئها ويمشي في الظلام».

38

أنا ضد الدستور الممنوح(*)

وجد الدكتور المهدي المنجرة – خبير الدراسات المستقبلية – نفسه، أياما قبل صدور كتابه الجديد "قيمة القيم"، أمام محطة جديدة (العدوان على لبنان ورد حزب الله) ؛ قد تعطي نفسا جديدا للمنظومة التي يقارب من خلالها أهم النزاعات القائمة، والآليات المتحكمة في بناء التكتلات السياسية والاقتصادية، التي أصبحت تدافع عن قيمها بأشكال مختلفة، بعدما أصبح صوت الميغاإمبريالية يعلو فوق الجميع في ظل خوفقراطية – كما يسميها المنجرة – مدمرة.

• تستعدون لإصدار كتابكم الجديد "قيمة القيم"، وهو ما يعبر عن استمرار انشغالكم بموضوع القيم ودورها في تحديد سياسات الدول التي تحدد استراتيجياتها وفق أهداف محددة لديها، فما هي ملاحظاتكم على أشغال المؤتمر الأروإفريقي حول الهجرة المنعقد بالرباط هذا الأسبوع ؟

❑ سبق أن كتبت العديد من الدراسات حول دول حوض البحر الأبيض المتوسط، وأتذكر أن الملك خوان كارلوس، كان قد طلب مني خلال اجتماع مع نادي روما، أن أساهم في تشجيع الدراسات المستقبلية بإسبانيا. وكنت ألقيت أول محاضرة بالمعهد الوطني للتوقعات بمدريد سنة 1977 تحت عنوان "مستقبل القيم الثقافية الاجتماعية في حوض البحر الأبيض المتوسط".

(*) «الأيام»، البيضاء 2006/07/17. استجوبه : أنس مزور.

وفي ذلك الوقت، تبين لي أن هناك موقف حضاري على مستوى القيم الذي يُصَعِّب التواصل الثقافي. فالفرنسي والأوروبي بصفة عامة، ينتظر من الآخر أن يتكيف مع قيمه ورؤيته ومصالحه، ولا يقبل أن يقوم بالعكس. لأن الحوار يقتضي وجود طرفين، وفي هذا الموضوع الذي نحن بصدده، هناك دول الاتحاد الأوروبي والدول الإفريقية. فإذا كان الأوروبيون يتخذون قراراتهم بعد موافقة رأيهم العام، ودولهم ديمقراطية في تعاطيها مع شعوبها ؛ فإن الدول الإفريقية تفتقد لهذه الديمقراطية ولا تتم استشارة شعوبها من طرف قادتها حول القرارات التي يتخذونها.

وإلى جانب الحوار الأوروبي الإفريقي والمتوسطي، قضيت جزءا مهما من حياتي في حوار شمال جنوب، ولازلت أخصص إلى يومنا هذا مدخول مؤلفاتي لجائزة التواصل بين الشمال والجنوب.

أما بخصوص قضية الهجرة، فأنا اقترحت منذ بداية طرح مشكلها في اجتماع لأكاديمية المملكة المغربية سنة 1989، أن تؤسس دول المغرب العربي صندوقا أسميته "صندوق الكرامة".

صندوق الكرامة والمغرب العربي

• ما هي وظيفة هذا الصندون الذي اقترحت إنشاءه ؟

□ هذا الصندوق يمكن أن يمول كل من يريد أن يرجع بحرية من أوروبا إلى بلاده، فإذا ما طرد مغربي أو جزائري أو تونسي من أوروبا لأسباب لا علاقة لها بالمخالفات الخلقية أو الجنائية، يعطيه الصندوق تعويضا لمدة سنة يعادل ما كان يتقضاه بأوروبا.

اقترحت هذا الأمر من أجل الدفاع عن كرامة مواطنينا، حتى إذا ما عادوا إلى بلدهم يجدون أن كرامتهم محفوظة.

توقعي كان هو أننا لو فعلنا هذه المبادرة وأعطينا قيمة لمواطنينا، فإنه لا يمكن للآخرين أن يتصرفوا معنا بهذه الطريقة.

وكنت وقتها على يقين، انطلاقا من الدراسات المستقبلية، أن أوروبا في حاجة إلى الموارد البشرية، فالنمو الديموغرافي بإيطاليا مثلا هو نمو سلبي. إذن هناك طلب بالضرورة لاستقبال المهاجرين، لكننا مع الأسف لم نعط القيمة الكافية لعنصرنا البشري، إلا بالكلام والبرامج.

وهنا أسجل، أن مسؤولية هذا الموضوع (الهجرة)، نتحملها نحن العرب والأفارقة مائة بالمائة.

• هذا الصندوق الذي اقترحته هو صندوق لدول المغرب العربي، ومؤتمر الرباط قاطعته الجزائر، بل ودعت دولا إفريقية إلى مقاطعته كذلك. أليست هذه مفارقة، أن نتحاور مع الأوروبيين ونحن لم ننجح في الحوار في ما بيننا ؟

□ سواء قبلنا أو رفضنا الأمر، فهناك شيء اسمه المغرب العربي، وهناك شيء اسمه إفريقيا.. هناك تعاضد بين الشعوب، أما الذي يحدث بين الحكومات والأزمات الآنية التي تستجد في ما بينها، فقيمتها نسبية.

طبعا، هذا أمر مؤسف ومؤلم. فأنا دائما كنت ولا زلت أناضل من أجل وحدة المغرب – سواء سميته العربي أو الأمازيغي أو الإفريقي – لسبب واحد، هو أن القضية محددة في مسألة بقاء. الجميع أصبح يعرف الآن أن التحليل الاقتصادي العالمي، يوضح أن أي مجموعة لها أقل من 300 مليون نسمة باعتبارها سوقا، لا يمكن لها أن تسجل أي نمو اقتصادي صناعي فلاحي.

هذا ما فهمه الأوروبيون ؛ فرغم كون مدخولهم مرتفعا، فقد اضطروا للاتحاد، ليس لسبب آخر غير البقاء.

أما نحن، فلم نفهم في العالم العربي أو الإفريقي، أن مسألة هذا الاتحاد والتكتل ليست مسألة سياسية، وإنما هي قبل كل شيء مسألة بقاء. ونحن إلى حد الساعة، لازال بقاؤنا رهينا بما سنتفق فيه مع أوروبا، وما ننتظره من السوق الأوروبية.

وهذا ليس حلا، فأزمة دول إفريقيا ودول العالم الثالث معروفة منذ سنوات طويلة ؛ وهي أن النموذج التنموي الذي تم اختياره من طرف المسؤولين، هو عدم الاعتماد على الذات، واللجوء عوض ذلك إلى الاعتماد على المساعدة الفنية والتعاون الدولي ؛ في حين أن الحل الوحيد، هو الاعتماد على النفس وخلق النموذج التنموي الذاتي.

وأظن أن أكبر ضرر لحق العالم الثالث، هو ما يسمى بالمساعدات الدولية من خلال المساعدة الفنية وقروض البنك الدولي وغيره. ويكفي أن نحلل نتائج هذا النموذج، لنجد أنه قد أدى إلى نوع من الإفلاس، ولكنه ساهم كذلك في المحافظة على الأنظمة السياسية الموجودة.

هجرة الأدمغة وضمير الحسن الثاني

• الأوروبيون يعتبرون أنهم ليسوا ضد الهجرة بشكل عام، وإنما ضد الهجرة غير الشرعية ؛ لكننا نجد بالمقابل، عدم تركيزهم على هجرة الأدمغة، كيف تقاربون هذا الموضوع ؟

□ هذا موضوع كما تعرفون اهتممت به منذ ثلاثين سنة، وكنت أشرفت على دراسة دولية كلفتني بإنجازها الأمم المتحدة سنة 1968. وإلى حد الآن أجد أن تفسير ظاهرة هجرة الأدمغة بسيط نسبيا. فجميع التحليلات والدراسات، توضح أن هناك سببين رئيسيين : السبب الأول، هو أن أي اختصاصي كيفما كان موضوع بحثه وتخصصه، حين ينهي دراسته وأبحاثه، يحتاج عند عودته لبلده، إلى بنية تحتية تشكل حدا أدنى من الجامعات والمختبرات، حتى يتمكن من تنمية ما تعلم في الكليات والمعاهد. وإذا لم يجد تلك التسهيلات، فإنه يصبح أمام خيارين : إما أن يضيع كل ما تعلمه، وإما أن يهاجر.

السبب الثاني، وهو أمر أساسي ؛ إنه حرية التعبير، فعندما أخذت المبادرة بطلب من عدة أحزاب وتيارات سياسية، لتأسيس المنظمة المغربية لحقوق الإنسان ؛ كان الدافع الأساسي الذي حفزني لفعل ذلك، هو هجرة الأدمغة.

ولما استقبلني الحسن الثاني، رحمه الله، بإيفران وسألني لماذا اهتمامك بحقوق الإنسان ؟ أعطيته الأرقام والإحصاءات التي كانت متوفرة في ذلك الوقت، والتي توضح عدد الدكاترة والباحثين الموجودين في أوروبا وأمريكا بالمختبرات الكبرى، وقلت له إن السبب الرئيسي ليس هو المدخول المادي لهؤلاء الباحثين، وإنما حجم الميزانية التي تصرف على البحث العلمي، وكان جميع أعضاء الحكومة حاضرين وقتها بقصر "ڤيتال"، فقال أمامهم جميعا بالفرنسية : "المهدي جعل ضميري غير مرتاح، وسأعمل مجهودي في السنة المقبلة للزيادة في ميزانية البحث العلمي".

الأسباب إذن معروفة، والأساتذة والباحثون لم يبق لهم خيار سوى الهجرة، وإن كنت ضدها تماما، وأرى أن الحل يكمن في البقاء داخل البلاد.

• هناك قضية أخرى تمس المهاجرين، هي استمرار حرمانهم من الحق في المشاركة في الانتخابات، رغم أن هناك خطابا ملكيا تحدث عن الموضوع وأقر بحقهم في ذلك ؟

□ إذا أردتني أن أجيبك بصراحة، فسأقول لك، إذا وجد المسؤولون عن الانتخابات القادمة حلا لمنع المغاربة من الانخراط في هذه الانتخابات لمنعوهم.

المهاجرون يمثلون نموذجا لما يحدث بهذا البلد، والواقع السياسي الذي يجب أن نفهمه قد تغير. وقد قلت كلاما قبل ثلاث سنوات، وآخذني عليه مسؤولو الأحزاب ؛ ولكن، بعد ذلك أنجزت دراسات واستطلاعات للرأي أكدت ما سبق أن قلته. وأقولها مجددا وأكرر : جميع الأحزاب في المغرب والتيارات السياسية، لن تتجاوز نسبة 20% إذا ما أنجز استطلاع للرأي حول مصداقيتها.

إذن، هذه الفئة، أصبحت لا تمثل أي شيء وضاعت مصداقيتها. وآخر استطلاع نشر بيومية مغربية في الشهر الماضي، بمناسبة تنظيم ندوة خاصة

بالشباب والسياسة، أوضح أن 80% من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 25 سنة، لم يهتموا بأي حزب، ليس لأنهم لا يريدون الاهتمام بالسياسة، وإنما لكونهم لا يهتمون بالسياسة، كما تؤطرها الأحزاب الموجودة الآن.

وطبعا، إذا كانت هناك انتخابات خارج البلاد، سنعرف من هو التيار الذي سينجح خارج المغرب. وهو نفس التيار الذي سينجح بداخله إذا أجريت انتخابات نزيهة حقيقة، وهذا ما لا أتصوره لانتخابات 2007.

مسيرة الرباط وشراء الرأي العام

• قد نتفق على القول، بأن هناك بعض التنظيمات السياسية التي تشارك في المسيرة التي نظمت يوم السبت الماضي بالرباط من أجل إثبات وجودها ؛ لكن الواقع يفرض علينا أن نطرح الأسئلة بخصوص هؤلاء، لأنهم المتواجدون أكثر وبحجم أكبر من غيرهم في الساحة.

□ إن الذي يهمني، هو الواقع الثقافي الحضاري بهذه البلاد ؛ الذي يوجد به 32 مليون نسمة 99% منهم مسلمون، والإسلام يُحارَب داخل بلاده.

كما أن الذي يهمني هو المنظمات، لكن ما قرأته في الصحف، وما حصل من ظلم ومنكر في حق بعض ممثلي هذه الهيآت التي تتحدث عنها، يجعلنا نتساءل بأي حق وبأي عدل يحدث هذا ؟ وأين هو المجتمع المدني ليتحرك ؟

وفي الساعة الراهنة التي نجري فيها هذا الاستجواب، وصلتني رسالة إلكترونية، يُقال فيها إن السلطات العمومية اعتقلت يومه الخميس 14 يوليوز 170 عضوا من جماعة العدل والإحسان، كانوا يشاركون في ما يسمى بـ"مجلس النصيحة".

الشعب يرى أن هناك ظلم، لكن هناك حاليا محاولة لشراء الرأي العام المغربي، لأن القوى الكبرى أصبحت تفهم بأن القوة ليست في الأسلحة وإنما في الإعلام. ومع الأسف، فإن جزءا من الإعلام المغربي أصبح

مرتشيا. ويكفي أن نحاول البحث عن تغطية الأحداث في العراق وفلسطين، والآن بلبنان ؛ لنجد نقصا كبيرا بهذا الخصوص.

أكثر من هذا، نجد أن 95% من المعلومات التي تفد على الصحافة المغربية، كلها من وكالات الأنباء الأجنبية. من يحمل قلمه ويكتب عن المنكر وعن الواقع بفلسطين وغيرها ؟ نجد فقرة بسيطة أو افتتاحية تقول إن لديك موقف، لكن ماذا عن بقية صفحات الجريدة ؟

أنا لا تهمني المسيرة ؛ المسيرة يجب أن تكون مسيرة يومية، ونضالا يوميا. هذه قوة تريد أن تقهرك، وليس لوحدها ؛ بل مع بعض أبنائك المتحالفين معها.

ومادام الأمر على هذا، فطبعا أي تيار جديد أتى سينجح ؛ لأن الموجودين الآن لا مصداقية لهم.. كيفما كانوا.. هؤلاء الذين يعتبرون رسميين. أما نتائج انتخابات 2007 فمعروفة منذ الآن. أنا لم أشارك في أي انتخابات منذ بداية الاستقلال إلى الآن، ولم أقبل أن أشارك فيها، لأني لا أقبل دستورا ممنوحا.

الدستور الممنوح ونزاهة الانتخابات

• لماذا لا تقبل بالدستور الحالي أو حتى قبل أن يتم تعديله ؟

□ لا أومن به، لأنه دستور ممنوح، وكل ما جاء في هذا الدستور فهو غير صالح، لأن العين غير صالحة.

الدستور يجب أن يمثل آراء الشعب، وأن يتم تحريره من طرف منتخبين ينتخبهم الشعب ولا يأتي من فوق، وكأنه هدية إلى الشعب.

• بمعنى أن الانتخابات ولو كانت نزيهة، فإنه لن تغير من الأمر شيئا مادام الدستور لم يغير ؟

□ لا يمكن، إذا لم تأت النزاهة من العين ومن المقاصد.

حينما تريد أن تشرب الماء، فإنك تبحث عن العين التي أتى منها، لترى هل تصلح أم لا ؛ وبعد ذلك تبصر لما ستشرب ؟ أي المقاصد من شُربه.

إذا كانت العين ملوثة، فالباقي ملوث ؛ لأن المسألة ليست قضية نزاهة فقط. طبعا النزاهة غير ممكنة.. هل كانت هناك نزاهة من خلال هذا الموقف من المهاجرين ؟ هذا خوف.. وأنا قلت منذ مدة، أننا أصبحنا نعيش في الخوفقراطية.. ؛ وأضحينا نظن أن الحل يكمن في تنظيم المهرجانات حتى أصبحنا نعيش في المهرجانقراطية.

أول مهرجان في هذه البلاد، نظمته سنة 1960 بمراكش، حين كنت مديرا للإذاعة ؛ وكنا نحتاج إلى تسجيلات الموسيقى الشعبية المغربية، وعوض أن نتنقل إلى جميع المناطق ونسجل تراث كل قبيلة، نظمنا المهرجان الذي أشرف عليه الأمير مولاي عبد الله، رحمه الله، وعبده الشرايبي وعدد من الأشخاص.

كان هدفنا، هو أن نجمع عمل الموسيقى والتراث المغربيين. أما الآن فقد أصبح المغرب كله مهرجانات. ليس لي أي موقف ضد هذه المهرجانات بهذه الكثرة ؛ فهل هي من أجل التسلية والتغطية على هذا الواقع ؟ هذا لا يكفي.

• قبل قليل تحدثنا عن فقدان معظم الأحزاب لمصداقيتها ؛ لماذا التخوف من الانتخابات المقبلة، إذا كان الجميع يخضع للعبة كما تقولون ؟

□ قد يكون هذا التخوف جزءا من اللعبة والمسرحية نفسها، لأنه إذا اقتنع الناس بأن السلطات لديها تخوف من الانتخابات، فقد يعطي هذا الأمر نوعا من المصداقية لإمكانية وقوع تغيير، لكن سيتبين أننا كنا بصدد مهرجان آخر..

والأزمة التي تهمني هنا، هي أزمة الإعلام، التي هي أزمة خلقية ومهنية. فعدد من الصحافيين لم يعودوا يقومون بالدور المنوط بهم ؛ لأن كرامتهم غير مصونة، ونعلم أن العديد من الجرائد بدأت تتساءل كل أسبوع من سيمول العدد المقبل ؟ من أين سيأتي هذا الإشهار ؟

• ما دمت تحدثت عن الإعلام..، كيف أصبح المشهد السمعي البصري بعد التحرير الذي تم مؤخرا ودخول القطاع الخاص على الخط ؟

□ هذا استعمار للقطاع السمعي البصري. لأن من الأشياء التي كنت أفتخر بها منذ وقت معين، هو أنني حين عينت بالإذاعة، أقنعت المسؤولين شهر ماي 1959 لتأخذ الدولة المغربية احتكار كل ما يخص أمواج البث. وحققنا نوعا من الاستقلال المؤقت في ما يهم الإعلام السمعي البصري.

الآن، يجب أن نتساءل لمن أعطي هذا التحرير ؟ أعطي لمن تحرك قبل سنوات وخرق القانون.

"ميدي 1" كانت تخرق القانون، وبعدها جاءت "دوزيم" كشركة فرنسية صهيونية استعمارية، ومن بعدها جاءت "ساوا" التي تكتب عنها الصحافة بكل وقاحة، أنها حصلت على الاعتراف ورخص لها من طرف مؤسسة كذا، وهذا يفيد ضمنيا أنها كانت تبث برامجها طوال هذه المدة خارج القانون.. هل هذا هو التحرير ؟ أين هو قطاع السمعي البصري ؟ أين وجوده ؟ وأين إنتاجه ؟ وأين تأثيره ؟ وأين تشجيعه للخلق والإبداع ؟

• على الأقل أصبحت هناك إمكانية للقطاع الخاص من أجل إنشاء إذاعات وقنوات غير عمومية ؟

□ أي قطاع خاص ؟ هل لديك أنت أو أنا هذه الإمكانية ؟ الإمكانية لإحداث مؤسسات جديدة محدودة ومحسوبة لمن راحت.

لقد جاءت هيئة معينة واختارت الذي تريده. من هو هذا القطاع الخاص ؟ وما هي مواقفه بالنسبة لمواقف الشعب ؟

أنت تسمع يوميا لـ "دوزيم" و"ساوا"... هل أعطتنا حرية ... ؟ هي تساند إسرائيل وتساند الاستعمار يوميا، فهل هذه هي الحرية ؟

• أنا أتحدث عن الإمكانية التي أصبحت قائمة..

□ الإمكانية تبقي في الهواء، إذ لم يحققها أحد. الوسائل كلها جندت لتبقي هذه الإمكانية غير قائمة، إلا لمن يقبل باتباع تيار معين، وهي المخزنقراطية، ولا مكان لأي أحد آخر.

يكفينا أنه في هذه الأيام الصعبة، التي يمر منها العالم العربي، وأمام العدوان على العراق وفلسطين ولبنان الآن، ما هي التغطية التي يقوم بها هذا القطاع ؟

إنه يساند في الواقع الرسمي، الذي هو موقف الجبن والتواطؤ مع الاستعمار.

واقع سوداوي وتفاؤل بالمستقبل

• أحيانا نجد أنفسنا نرسم واقعا قاتم السواد ؛ كيف يمكننا أن نتفاءل بالمستقبل في ظل واقع، هذه هي تفاصيله كما تقدمها الآن ؟

□ لا أظن أنك ستجد إنسانا متفائلا أكثر مني. وأنا دائما أرجع إلى جملة قالها غرامشي الخبير اللغوي : "يجب أن نعمل بتشاؤم الواقع"، فالواقع يدفع إلى التشاؤم.. هل تريدأن أكذب على نفسي وأكذب عليك وأقول بأن الحياة في المغرب جميلة... ؛ ولذلك، يضيف غرامشي قائلا : "التفاؤل هو في الإرادة"، فكلما كانت للإنسان إرادة حقيقية للتغيير، فهذا هو التفاؤل وأنا متفائل.

طبعا الفرق بيني وبين الآخرين، هو أنني في الدراسات المستقبلية أفكر بالأجيال ؛ لأن الوحدات الزمنية عندنا هي 30 أو 40 سنة أو أقل.

ما تحدثت عنه بخصوص مستقبل الإسلام سنة 1990 في إحدى الدراسات، بدأ يتحقق الآن وأصبحنا نراه.

أنا متفائل، لكن الذين يشتغلون على المدى القصير، وتهمهم النتائج الآنية، والمصالح الضيقة، أتركهم ليذهبوا في واد، والتاريخ سيذهب في واد آخر.

ولكن من حيث التفاؤل، فأنا متفائل جداً، لأن الشعوب دائما تنتصر في الأخير، لأن لها ضمير. أما الأزمة في بلادنا الآن وفي غيرها، فتعود لانعدام الضمير. من له الضمير، الذي يتركه ينام وهو يرى صور المونديال.. يشاهد لاعبي الكرة، وبعد ذلك يرى الإسرائيليين والأمريكيين يلعبون الكرة بروؤس العراقيين والفلسطينيين، وهو مرتاح يجلس أمام السمعي البصري المستقل الحر في هذه البلاد ؟

إلى جانب هذا، نحن نعيش بدون رؤية ؛ والنبي محمد ﷺ هو آخر نبي، ولا يمكن لأحد أن يقول لك هذه رؤيا..

والرؤية يجب أن تكون منتوجا لما يحس به شعب بأكمله. لما كانت قضية الاستقلال، كانت هناك رؤية لدى الشعب المغربي.

اليوم كذلك، هناك رؤية داخل الشعب الحقيقي، وهي أن يتحرر مما تبقى من الاستعمار الذي أصبح أقوى من أي وقت مضى. أنا كمغربي أعتبر نفسي اليوم محتلا أكثر مما كنت في الخمسينات.. محتل إعلاميا.. ثقافيا.. سياسيا.. أمنيا..، محتل من طرف الأحزاب التي هي في الحكم، محتل من طرف المجتمع المدني.. ؛ الحل ليس بيدي، لكن أظن أن أهم شيء هو أولا وقبل كل شيء، تحليل الأوضاع كما هي، وليس أن يبقى الإنسان مخدوعا بالدعاية التي تمارس. يجب أن يقارن الناس بين ما كانوا يأكلونه قبل 10 سوات وما يأكلون الآن، بين ما كانوا يملكون قبل مدة وبين ما لديهم اليوم..

أما القضية التي تهمني أكثر في حياتي، فهي الجامعة والتعليم العالي. لأن الذي حدث هو تخريب للجامعة، ولقد سبق أن طالبت بمحاكمة جميع الوزراء الذين ساهموا في ما يسمى بإصلاح الجامعة، لقد خربوها وبتواطؤ مع الأجانب والبنك الدولي والسفارات الأجنبية..

واسمحوا لي إذا قلت مثل هذا الكلام، فأنا أعرف ما أقول...؛ فأنا أول أستاذ جامعي بهذا البلد.

أقارن بين الطلبة الذين درسوا قبل 4 أو 5 سنوات بالسلك الثالث، من حيث مستواهم اللغوي، سواء في اللغة العربية أو الفرنسية، وبين هؤلاء الذين يدرسون به اليوم ؛ فأجد أنهم لم يصلوا حتى لمستوى السلك الثاني من الثانوي. فمن أين أتى هذا التخريب ؟ من الأساتذة ؟ من الطلبة ؟ من الجو ؟

هذا تخريب مقصود، وأنا يمكن أن أسمح لأي أحد أن يخرب السياسة الصناعية، أو السياسة التجارية، أو حتى السياسة الاقتصادية كلها، لأن هذه أشياء يمكن إصلاحها في وقت قريب ؛ لكن تخريب النظام التربوي التعليمي هي مسألة أجيال. يجب أن تنتظر على الأقل 30 سنة قبل أن تستعيد الإصلاح كما كان ؛ وهذه أكبر أزمة في البلاد.

بشاعة جرائم وخبث مجتمع

• هناك أزمة أخرى أصبحت تشكل ظاهرة لافتة للانتباه في السنوات الأخيرة، ونقل الإعلام الكثير منها في الأيام الأخيرة، وهي الجرائم البشعة التي تحدث بالمجتمع المغربي ؛ كيف تنظرون إلى هذه الأزمة انطلاقا من اهتمامكم بمفهوم القيم ودورها ؟

□ طبعا هي بشعة. وأي واحد يحلل أشياء تقع بالمجتمع سوف يصل إلى كونها نتيجة البيئة المحيطة به. فهذه الأحداث لا تقع منعزلة، بل داخل مجتمع له سلبياته وإيجابياته. هذه السلبيات وصلت إلى درجة أنه لم تبق هناك أي وسيلة لتضع حدا للظلم ؛ لما يكون الظلم مباحا في بعض الميادين ويصبح مباحا في ميادين أخرى...

الفضائح التي نتحدث عنها حقيقة بشعة، لكنها نشأت في مجتمع توجد فيه فضائح أخرى أصبحت مقبولة ؛ والفضائح تأتي دائما بالفضائح.

لما تحدثت عن أزمة خلقية في الأخلاق والمعاملات والمثال، فقد وضحت أنه حين تفقد القيم قيمتها، لا تبقى هناك أي مرجعية ؛ هذا هو المشكل.

وأنا أرفض أن ألوم الأفلام والتلفزة والصحف.. هذا أمر غير مقبول، لأنها وسائل قد توجد أرضية لكنها ليست السبب.

والذي يحدث الآن من جرائم، أمر بشع وتجب دراسته من أجل إيجاد الحلول المناسبة لمحاربته وحماية المواطنين والمواطنات.

لقد أصبحنا أمام خبث اجتماعي. لأنه حين غابت المرجعية، تدهورت الأمور. من قبل، كان الإنسان يجد مرجعيته عند والديه أو أقاربه أو جيرانه.. الجميع كان يغير المنكر.. وهذه الأمور التي نتحدث عنها هي منكر، لكن الناس أصبحوا يخافون من تغييره، لأنهم لا يعرفون ما هي عواقب تدخلهم.

• بمعنى، أن المجتمع المغربي أصبح مبتعدا عن قيمه عكس ما كان في السابق ؟

□ طبعا، القيم هي التي تحرك الأشياء كلها. وأنا لم أتحدث عن القيم باعتبارها شيئا رجعيا، ولا عن قيم القرون الوسطى. القيم الحقيقية، تتحرك بنفسها إلى الأمام وتتطور بالخلق والإبداع. والمادة في النظام الذي نعيش فيه، أصبحت لها قيمة كبيرة لا حد لها عند البعض، ولا حد كذلك للفقر من جهة أخرى. وعندما يصبح الفرق كبيرا، لا ينبغي أن نستغرب مما يحدث.

وإذا تحدثنا بلغة الأرقام، فإننا سنجد أن الفئة الغنية بالمغرب، تمثل حوالي 10% من السكان، أما الفئة الفقيرة فتتجاوز 50% بمدخول يقل عن 20 درهما في اليوم. أي أنه إذا كان الفرق في بداية الاستقلال من 1 على 10 أو 12 فإنه أصبح اليوم من 1 إلى 100. بمعنى أن الغني أصبح أغنى والفقير أصبح أفقر.

ويا ليت أن بعض الأغنياء قد راكموا تروثهم بمجهودهم وبالحلال، أما في الواقع، فإننا نجد جزءا كبيرا منهم يصنع ثروته بطرق أخرى غير مسموح بها، لكن لا أحد يتحدث عنها.

وإذا أخذنا الرشوة، فستجد أنها أصبحت جزءا من المنظومة.. وكل شيء يجب أن نفسره بهذه المقاربة. فإذا ألمتك يدك وذهبت عند الطبيب، فستجد أن الطبيب الجيد يبحث في كل جسدك عن السبب وليس فقط في يدك..

فجميع الأشياء مرتبطة، والجرائم التي تتحدث عنها بشعة جدا ؛ لكنها مؤشر لأشياء أخرى، للخبث الذي نعيش فيه.

نهج غاندي

▪ دائما بخصوص دور القيم، لكن هذه المرة على مستوى النزاعات الدولية، نلاحظ أن ما يقع في العراق وغيرها، أصبح يولد عنفا كبيرا في المواجهة، لدرجة أن ظاهرة من يفجرون أنفسهم أصبحت تتوسع أكثر فأكثر، فهل تتوقعون أن ترتفع أكثر حدة المواجهات من هذا النوع ؟

□ الذين يفجرون أنفسهم.. والقنابل التي تسقطها الطائرات الأمركية وغيرها... ؛ الحكومات الخائنة، التي أتت إلى الحكم عن طريق المخابرات الأمريكية، هي من تتحمل المسؤولية.

أنا لا أقبل بالعنف. فمنذ بداية حياتي وأنا أتبع نهج غاندي، لكن هناك جملة قالها لا يعرفها الناس، قال : "إذا استشارني الناس ليختاروا بين الجبن والعنف، فسأوصيهم بالعنف". هذا ما قاله أكبر شخص دافع عن النهج السلمي ورفض اللجوء إلى العنف. لما تحدثت عن الإهانة، وقلت إننا أصبحنا نعيش في الإهانوقراطية... ؛ إهانة في مواردك الاقتصادية وفي موارد المياه، في التربية والتعليم... ؛ إهانة يومية من طرف الاحتلال الأمريكي.. مليونان من الضحايا لحد الآن.. نحن نسمع عن عدد القتلى، لكن لا نعرف من قتلهم وكيف ولماذا ؟

هناك أشياء أكبر. وما دمنا نتحدث عن موضوع القيم، فأنا في يوم أمس وضعت كتابي الجديد "قيمة القيم" بالمطبعة ؛ وتساءلت فيه ما الذي تبقى ؟ كما كنا قبل قليل نتحدث عن مصداقية العمل السياسي ببلادنا ؛ لكن لنأخذ

الغرب. أنا ذهبت إليه وعمري 15 سنة، وقضيت 10 سنوات بالولايات المتحدة الأمريكية، وخمس سنوات بالمملكة المتحدة (بريطانيا)، و20 سنة بباريس كموظف دولي... ؛ وأعرف هذا الغرب جيدا، لكنه لم يبق هو نفسه الغرب الذي عشت فيه، الغرب الآن لم تعد له الثقة في نفسه، وأصبح يعيش في خوف. اختار ما يسمى بالإرهاب ومحاربة الإرهاب، لأنه يعيش الخوف صباح مساء.

ما هي مصداقية القيم الغربية ؟ ما هي قيم هذا الغرب الذي يتحدث صباح مساء عن الديمقراطية ويعطينا دروسا فيها وفي حقوق الإنسان وفي المعاملات. وبالخصوص في هذه البلاد الكريمة، تأتي وفود يوميا لإعطائنا الدروس... ؛ بأي وجه يمكن أن أثق بهذه القيم الآتية من عندهم لما رأيت أعمالهم اليومية، ولما أرى ماذا صنع الجيش الأمريكي حين احتل الشعب العراقي.. كل المجازر التي ارتكبها.. انتهاكه لحقوق الإنسان الأساسية. كيف يمكن أن يأتي نفس هذا الشخص ويعطيني دروسا في حقوق الإنسان. ماذا بقي في هذه القيم ؟ الديمقراطية انتهت عندهم بعد أن تم انتخاب حماس.

منذ 6 سنوات كتبت كتابي "انتفاضات"، وقلت إن الانتفاضة الثانية بفلسطين ما هي إلا بداية، وسنراها تنتشر في بقية العالم الإسلامي كله، بلدا بعد بلد ؛ بل في كل دول العالم الثالث. لأننا لا يمكن أن نتجاوز حدودا معينة، فكما يقال في اللغة الدارجة "الخابية عمرت". لا يمكن أن تذهب الأمور إلى أبعد مما وصلت إليه الآن. وهذا ليس تشاؤما ولا مبالغة. فكيف يمكن لهذا الغرب أن يتحدث لي عن الديمقراطية والعالم بأسره يرى ما يصنع ؟

في دول العالم الثالث، تم تنظيم 3 انتخابات كانت نزيهة، وبشهادة أوساط غربية تتبعت هذه الانتخابات :

انتخابات إيران، انتخابات الجزائر، وانتخابات فلسطين..

• (أقاطعه) عفوا عن المقاطعة ؛ في بداية الاستجواب، طرحت سؤالا عن التنظيمات السياسية المشابهة لحماس بالمغرب، أي التي تعتمد الخطاب الديني أكثر..

◻ (ينفعل) ليس خطابا دينيا، الإسلام ليس دينا كما هو في المفهوم الغربي. الإسلام حضارة وثقافة ومجموعة قيم ومعاملات..

الدين بالمفهوم الغربي خاص بكل شخص. وقوة الإسلام في كونه مجموعة قيم ومعاملات من الصباح إلى المساء.

• لنقل إذن في سؤالنا، إن هذه الأحزاب التي تعتمد خطابا حضاريا..

◻ لم أعرف بالمغرب حزبا يتوفر على هذا الخطاب الحضاري. أنا أتحدث عن القيم، والأحزاب وجدت نفسها تمثل أقلية، لأنها لم تمثل إحساس الشعب الحقيقي، ولا أدعي أنني أمثله.

لا يكفي رفع راية الإسلام لأقول أنا مع الشعب.. لا. أنا لم أتحدث عن الإسلام كراية أو كديماغوجية أو كاستغلال سياسي له..

أنا أتحدث عن الإسلام كقيم، هي التي تأتي بتغيير حقيقي. ولا يمكن أن نقارن الحركات السياسية القائمة بالمغرب مع حماس. ولا أظن أنه توجد حاليا دولة مسلمة واحدة يمكن أن تعطي فرصة للشعب ليختار الحركة التي تمثله كما حدث بفلسطين.

ولا ننسى أمرا آخر، فالمقارنة صعبة جدا. لماذا تحارب فلسطين ؟ فلسطين بها نضال دام أكثر من قرن، نضال يومي داخل البيوت وفي الشارع..

كما أن هناك إرادة وحماس.. الحماس الحقيقي. ولا يمكن أن نتحدث عن حركة حماس بدون حماس. الحماس الآخر والوحيد الذي رأيناه في بقية العالم العربي والمسلم، هو أن الناس تحمسوا لمحاربة تجربة حماس. ليس الغرب فقط من يحارب تجربتها ؛ بل كذلك فئة تعيش بيننا ولا تمثل

شيئا... ؛ فأنا لا أعرف حكومة عربية مسلمة واحدة تمثل من قريب أو بعيد آراء وأحاسيس شعبها.

• في ظل الصراع الدولي القائم الآن، ألا تتوقعون أن تصبح التنظيمات العالمية هي الأكثر هيمنة في دولنا من نظيرتها القُطرية. فنجد مثلا في المغرب ظاهرة التيار السلفي الجهادي وأناسا يناصرون تنظيم القاعدة تحكم أجندتهم مستجدات الصراع الواقع في دول أخرى أكثر مما يحدث بداخل بلدهم من تطورات ؟

□ العنف الحقيقي، ليس هو الذي يتحدثون عنه أو ما يسمى بالإرهاب. العنف الحقيقي هو هذا الذي نعيشه يوميا وليس في العراق وفلسطين فقط. العنف في هذا البلد الكريم بدوره : العنف الرسمي، العنف الحكومي المخزني، العنف الذي تمارسة وزارة الداخلية يوميا. والذين يوجدون بالسجون يمكنهم أن يتحدثوا لك عن هذا العنف.

في الحقيقة ما نراه هو انعدام الثقة حتى في القيم الدولية. وأنا أكثر من 20 سنة تنقلت فيها مع الأمم المتحدة، وآمنت بتلك القيم العالمية الحقيقية، لأن هناك بالفعل وحدة بشرية.. وربما هذه هي قوة الإسلام، لأنه لم يعترف بأي حدود بين ملايين الناس بسبب الحروب القومية وغيرها.. لكن في الأخير وجد الغرب نفسه مضطرا لأن يتحد ويحذف الحدود.

نهاية الأمم المتحدة

إذن، حتى على المستوى الدولي، هذه المؤسسة التي تسمى الأمم المتحدة قد انتهت، وأنا شخصيا دفنتها سنة 1981 وتركت كل علاقة لي بها كيفما كانت، لأنني أصبت بخيبة أمل في حياتي، ورأيت الفرق بين الأمين العام الذي قتلوه، وبين من أتى من بعد.. وكلهم أصبحوا آلة في يد البيت الأبيض والكونغرس..

أنظر إلى الأمين العام الحالي، كيف تحدث عن مجزرة غزة، عندما قال إن لكل دولة الحق في الدفاع عن جنودها !

هل هذا كلام يقال في مثل هذه الظروف ؟!

إذن حتى المرجعية الدولية التي كانت كقيم، لم تعد موجودة. أظن أنه سيقع تغيير على المستوى العالمي. ومفهوم العولمة بنفسه يرجع إلى موقف إثني خاص بقيم الغرب وحضارته وجنسه. ولا يمكن أن يعيش بهذه الطريقة. ولهذا سنرى، وهنا أستعير الكلام من بيل كلينتون، الذي قال في البرنامج التلفزي الشهير "ساعة واحدة مع..." شهر دجنبر 1999، نحن نعرف أنه بعد 15 سنة لن نبق القوة الاقتصادية الأولى في العالم، وبعد ذلك بقليل لن نكون القوة الثانية أو الثالثة، فستأتي الصين وستأتي الهند.

إذن، العالم الغربي يعي أن قوته السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية في العالم تنقص يوما بعد يوم. ماذا سيبقى لدولة كالولايات المتحدة، التي تتوفر على اقتصاد كبير ولها إمكانيات فلاحية وغيرها.. لكن لديها أيضا الأسلحة ؟

الولايات المتحدة أو إسرائيل، التي تعتبر القوة الخامسة عسكريا في العالم، والخامسة أيضا على مستوى القنابل النووية ؛ ومع ذلك لا أحد يتحدث عنها، ويتحدثون فقط عن إيران.

مسلسل الحرب الحضارية الأولى

المسلسل الذي تحدثت عنه في "الحرب الحضارية الأولى" نراه ولازال متواصلا. فلا شيء سيتوقف، سنرى بعد العراق وفلسطين.. سوريا وإيران، وبعدها السعودية ودول الخليج، ومصر وتونس والجزائر والمغرب... ؛ كل هذه الدول ستأتي في الطريق، لأنه لا أحد يمكن أن يقول إنه محمي، ولأن كل من تعاون مع الغرب من أجل حمايته، كلما دفن نفس بيديه يوما بعد يوم... هذه تيارات عالمية، لا يمكن أن تواجه الريح طويلا... ربما قد تعاكسه لمدة معينة، لكن بعد ذلك تجد أنه أقوى منك.

• تقول إن الانتفاضات ببلداننا آتية لا محالة، وأنه كلما تأخرنا في التحرك كلما ارتفعت التكلفة.

□ الدراسات المستقبلية كلها وقائية، ماذا نعني بوقائية ؟ كلما تأخر التغيير كلما ارتفعت التكلفة. وهناك ثلاثة مشاهد فقط في الدراسات المستقبلية : الأول، هو بقاء الأسباب كما هي ؛ وهذا أمر غير ممكن، فحتى الحجر يتغير. الثاني، هو الإصلاح ؛ والمشهد الإصلاحي له حدود، وأظن أن العالم العربي والإسلامي تجاوز مرحلة إمكانية الإصلاح الحقيقي ؛ فما الذي يبقى ؟

المشهد الثالث، هو القطيعة. ذلك أنك حين تذهب إلى الطبيب، وقد ألمَّ بك جرح صغير، يمكن له بسهولة أن يعالجه، وحتى إذا استفحل الأمر قليلا يمكنه أن يقوم بعملية جراحية لتدارك الأمر ؛ لكن حين تصل الأمور إلى درجة معينة، فإن الأمر يتطلب عملية جراحية أصعب..

نعم، كلما تأخر التحرك، كلما ارتفع الثمن ؛ لكننا سنؤديه على كل حال.. هناك حق، والذين يحكمون العالم العربي والإسلامي لا يعرفون ما هي كلمة "الحق"..

الحل هو الديمقراطية الحقيقية

• ما الذي ينبغي لنا القيام به في المغرب، حتى تكون التكلفة أقل وفق هذا التحليل ؟

□ الاعتراف بالواقع كما هو. وأظن أن الحل بسيط، وهو الديمقراطية الحقيقية، وحرية التعبير، والاهتمام بالتنمية التي تعم البلاد كلها، وليس التنمية التي تخص بعض الأوساط التي تغتني يوما بعد يوم. يجب أن يوضع حد لتفقير المغرب. أما قضية الاستثمارات التي يُتحدث عنها، فهي أساطير ؛ إذ ليس هناك أي استثمار، باستثناء الاستثمار الحقيقي الذي يتم بإمكانيات ذاتية وباتفاق مع الرأي العام المحلي، وبديمقراطية حقيقية. ثمة استجواب قرأته بعد انتخاب حماس، أجري مع ممثل الفاتيكان بالقدس، حيث قال، إن هؤلاء (أي حماس) لهم ثقافة ومعاملة جيدة مع المسيحيين، لم نرها من الإسرائيليين.

إذن نحن نعاني من غياب الرؤية ومن الجهل. البلاد المسلمة التي هي بلاد القرآن الذي افتتح بآية ﴿إقرأ باسم ربك﴾ لازال أكثر من 50% من سكانها أميون. هذا أكبر خطر على أي دولة كانت. ومحاربة الأمية لا تتم بالكلام فقط ؛ بل وفق منظومة مكتملة، حتى يتم توزيع المعرفة مثلما يوزع الماء والكهرباء.

نحن لا نعرف إلى أين نمضي ومن أجل أي هدف. لا يوجد إلا الكلام السياسي الفارغ الذي يصدر من كل الأطراف. لكن التاريخ لا ينتظر أحدا، وأنا أومن بالديمقراطية وبحقوق الإنسان وبحرية التعبير. ولا أقبل من أي أحد أن يحد من هذه الحريات. ولما تكون هذه الحريات واقعية وحقيقية، يأتي التغيير والتكلفة يقل ثمنها، لأنه ليس هناك حل آخر.

حرب مباشرة على الاسلام

• هل دخل الصراع بمنطقة الشرق الأوسط إلى مرحلة جديدة بعد الهجوم الإسرائيلي على لبنان ؟

▫ ما حصل هذه الأيام الأخيرة بالشرق الأوسط، يوضح أن "الحرب الحضارية الأولى" كما أسميتها سنة 1991، قد تحولت إلى حرب مباشرة على الإسلام من الخارج، وضد الإسلام داخل البلدان المسلمة.

ما نراه يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة الآن.. ضحايا من أطفال ومدنيين يسقطون في مدن محتلة، سواء بغزة أو جنوب لبنان.. ؛ وكما هو معلوم، فإن من حق الشعوب أن تدافع عن نفسها ضد الاحتلال.

لكن المنظمات الدولية، بجميع مكوناتها، سواء الأمم المتحدة أو المنظمة الحكومية التابعة للعالم العربي أو المؤتمر الإسلامي.. جميعها نائمة. ولم تتحرك وسوف لن تتحرك.

الآن، هناك عنصر آخر ؛ ليست فقط الحكومات العربية ومنظمتها من تنام، بل حتى الشعوب العربية اتضح أنها مُنَوَّمة.. لقد نوموا الشعوب. إلا

أن الانتفاضات أصبحت قريبة، لابد من أن الشعوب ستستفيق من نومها، ولا أدري ماذا ستكون النتائج..

لحد الساعة وأنا أتتبع الأنباء، أجد فقط ردود الفعل الغربية ورد فعل الولايات المتحدة، التي خرجت لتقول إنه من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها.. فهل من حقها أن تدافع عن نفسها حتى في المريخ ؟ أو في أي مكان من الكرة الأرضية ؟

سياسة ضبط النفس

وهذه العبارة "ضبط النفس"، التي نراها في كل ردود الفعل، الصادرة عن الأمم المتحدة وكوفي عنان، الذي أصبح الجميع يعرف أن المنظمة التي يشتغل فيها، أصبحت تابعة مباشرة للبيت الأبيض والبانتاغون.. إذن لم تبق هناك أي مصداقية لهذه المؤسسة الموجودة على المستوى العالمي من أجل ضمان الأمن، وحتى إذا أخذنا مجلس الأمن والدول الخمس الدائمة العضوية فيه.. بما فيها روسيا والصين، اللتان كانتا لهما مواقف في الماضي، فإنهما الآن تحاربان الإسلام داخل بلديها.

يوجد بالصين أكثر من مائة مليون مسلم، ودول الاتحاد السوفياتي السابق بها عدد أكبر ؛ لكنهم الآن يتفرجون، وأصبحت بالعكس عواطفهم تذهب مع كل ما يمكن أن يضعف الإسلام. هكذا أصبح الهدف الأساسي لهذه الدول الخمس الموجودة بمجلس الأمن، هو انعدام الأمن بالعالم الإسلامي. لهذا وأمام ما يحدث، فإن الأمم المتحدة لا يمكنها إلا أن تطلب ضبط النفس من الطرفين، وتحملهما المسؤولية معا.

الغرب وإسرائيل، لهما تخطيط على المدى الطويل، منذ سنة 1960 وفق دراسات مستقبلية، لهم مخطط يطبقونه تدريجيا يوما بعد يوم.

فبعد غزة، جاء دور جنوب لبنان ؛ وبعد ذلك ستصبح سوريا هي المسؤولة حتى يُسمح لإسرائيل بضربها ؛ وبعد ذلك سيقال إن إيران هي المسؤولة عما فعله حزب الله، ويباح لهم أن يضربوها كذلك نظرا لخطر قنابلها النووية..

وفي الحقيقة، ليست إسرائيل المسؤولة الوحيدة عما يقع، فهناك ما أسميته بالميغا إمبريالية ؛ هذه الهيمنة الأمريكية الجديدة التي أصبح لها حلفاء في العالم العربي والمسلم، لأنه بدون ميغا إمبريالية، لا يمكن لحكومات وأنظمة هذه المنطقة أن تستمر لمدة طويلة. لهذا نجدها تنادي وتطالب بالاستقرار ؛ فأي استقرار هذا ؟

إنه استقرار المذلة والإهانة. وأكرر أنه ليس لي أي توجه سياسي أو إيديولوجيا، سوى الدفاع عن الإنسانية والبشرية مهما كانت، وأيضا عن كرامة الإنسان.

حزب الله والدول الإرهابية

أقول، إنني أحيي هذه المبادرة التي قام بها حزب الله للدفاع عن نفسه وشرفه وكرامة الإنسان.. ؛ مهاجمته للعنف الحقيقي والإرهاب الحقيقي الموجود بالعالم اليوم، الذي هو إرهاب الدولة. فإسرائيل دولة إرهابية، وبجانبها دول إرهابية أخرى، أكبرها هي الولايات المتحدة. ومعهم الآن إرهاب دولي يمارس داخل العالم العربي، من طرف الحكومات التي تقول إنها تحارب الإرهاب داخل دولها، وهي في الحقيقة تحارب الإسلام مثلما يحاربه الغرب. يمكن أن تعتبروا أن هذه الكلمات قوية، ولكن أمام الذي نراه وعائلات بكاملها تقتل وبيوت تحرق... فالاحصائيات توضح أن غالبية الضحايا أطفال تقل أعمارهم عن سن 15 سنة ؛ أليست هذه حرب إبادة ضد المسلمين ؟

الحكومات العربية والدراسات المستقبلية

يجب أن نكون واعين بما يقع الآن، حتى نتوقع ما الذي سيحدث مستقبلا. لقد تحدثت في البداية عن الدراسات المستقبلية وأهميتها، لكننا في العالم العربي مع الأسف، لم نعط أي قيمة للدراسات التي أنجزت ببلداننا. وكمثال على ذلك، الدراسة التي قامت بها مجموعة من الخبراء ونشرت سنة 1988. ومضمون العمل نشر من طرف مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان : "مستقبل الأمة العربية : التحديات والخيارات".

أقرأ لك فقط مشهدا من المشاهد التي وردت في الفصل السادس من الدراسة، مشهد التجزئة: محدودية الآفاق واحتمالات التفتت. في الصفحة الأولى نجده يقول: «يحتوي هذا المشهد على مجمل السلبيات والايجابيات التي واكبت حالة التجزئة واستمرار منطقها: نمط النمو المشوه، والممارسات غير الديمقراطية، وزيادة الاختراق الخارجي للمنطقة العربية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ما ذكرناه عن بعض صور انتشار التعليم، وارتفاع مستوى المعيشة والاتساع في قاعدة الموارد، وبعض صور المقاومة لتردي الأوضاع». بمعنى أن هذه الدراسة برهنت على أن ما نراه اليوم كان متوقعا، ولكن من من الحكومات العربية التي أعطت لهذه الدراسة قيمتها ؟

هذا الاهمال، يوضح أن الحكام في العالم العربي، لم يعد يهمهم إلا بقاءهم بأي ثمن كان، وكل يوم زاد في بقائهم يعتبرونه مكسبا وربحا. وحتى الآن، لا نجد في العالم العربي والإسلامي، سوى حركة حماس التي دافعت بشرف وتناضل وتصمد يوما بعد يوم، وتؤدي ثمنا كبيرا، وكذلك حزب الله.

انتهى كأس العالم والتفرج على كرة القدم، وأصبحنا، أمام مونديال آخر. الناس يتفرجون على مواجهة شعوب تدافع عن حريتها وكرامتها وتقف في وجه احتلالها، لكنه احتلال مركب لأنه ليس من الخارج فقط.

لازلنا أمام مسرحية استمرت لسنوات طويلة، فبعد يومين أو ثلاثة، سترى وزراء خارجية اجتمعوا بالقاهرة، التي أصبحت عاصمة الصهيونية الجديدة، يطلبون من مجلس الأمن أن يتخذ موقفا... ؛ ثم بعد ذلك سنرى اجتماعا آخر على مستوى المؤتمر الإسلامي، ونرى مسيرات..

لم يعد هناك أي معنى لأي مسيرة كيفما كانت، إلى متى سنظل نقبل بالذل ؟

أعتبر أننا دخلنا إلى بداية نهاية هذا المسلسل. لقد رأينا ما حدث بأفغانستان والعراق وفلسطين، والآن بلبنان، ثم سنراه في سوريا وإيران ودول الخليج، وحتى المغرب العربي سيأتي دوره..

في بداية الاستجواب، سألتني عن المؤتمر الأوروبي الافريقي، هل صدرت منه كلمة واحدة بخصوص ما يحدث بفلسطين ؟ ولا كلمة رمزية صدرت من أحد المشاركين.

أين هي الدول المسلمة التي صرفت أكثر من 2000 مليون دولار على التسلح في السنوات الأخيرة ؟

39

الدكتور المهدي المنجرة
مقتطفات من اللقاء الذي أجرته معه
قناة الجزيرة بتاريخ 27 يوليوز 2006

أجرت قناة الجزيرة، في خضم الحرب الحضارية على لبنان، لقاءا مع عالم المستقبليات الدكتور المهدي المنجرة بمكتبه بالرباط، إلا أنها لم تبثه كاملا. وباعتبار أهمية وعمق كل كلمة تلفظ بها الدكتور بخصوص الاعتداء الهمجي على لبنان وتداعياته المستقبلية ؛ نقدم، فيما يلي، مقتطفات من نص اللقاء.

مقتطفات من نص الحديث :

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل كل شيء أحيي المجهودات التي تقوم بها قناة الجزيرة في هذه الظروف الصعبة في تاريخ الدول العربية والإسلامية ودول العالم الثالث كله، مرارا يسألني الناس لماذا لم نراك في الجزيرة، وأهل هذه القناة يعرفون المحاولات التي قاموا بها بهذا الخصوص، إما مباشرة أو عبر بعض الأصدقاء ؛ لكن لم أكن أقبل، لأنه ليس لدي أي شيء للبيع...

المهم، أريد أن أقول، إن الناس لم تراني في الجزيرة، ولم يتم هذا انطلاقا من موقف... اليوم هناك ظروفا خاصة ؛ بداية أحيي أرواح الشهداء، وأترحم على كل الشهداء في فلسطين، وفي العراق، والآن في لبنان، أصحاب المقاومة، ولحد ما نوعا من الجهاد، فالحياة كلها جهاد،

والجهاد هو الشخص الذي يقاوم الظلم، ولما يأتي الظلم لم تبق الفوارق الآن مهمة...

الظروف صعبة جدا، ولكن بعد هذا الترحم، هناك عمل الصمود الذي أعطى الكرامة الحقيقية ؛ ففي كتابي الأخير الذي سميته "الإهانة"، تكلمت فيه عن إهانة الدول الكبرى، إهانة الرؤساء وزعماء الدول عندنا ؛ هؤلاء الرؤساء والزعماء والحكومات الذين يهينون شعوبهم، انعكس ذلك الآن الذي فيما نراه في لبنان، وفي فلسطين... حيث صارت الانتفاضة، فكتابي "انتفاضات" الذي صدر منذ 6 سنوات، قلت فيه إن الانتفاضة ليست في فلسطين فقط، ستأتي وستغطي العالم العربي والإسلامي تدريجيا ؛ وفي الحقيقة ما دمت أنوه بالجزيرة، وهنا أتكلم كمناضل في الحركة الوطنية، كنت أومن بما يسمى بالمجتمع المدني، أما الآن فليس هناك مجتمع مدني في العالم العربي والإسلامي، ولهذا لا تراني في المظاهرات.

لما نبحث عن هذا المجتمع المدني، نجد أعضاء جمعيات، أعضاء من الأحزاب السياسية الموجودة في الحكومات ؛ إذن من المؤيدين لما يحصل؛ لهذا قلت الحركة الوطنية الوحيدة التي دفعت العرب والمسلمين أصحاب الحق إلى الشارع، هما حماس وحزب الله ؛ أقول هذا وأنا ليس لي أي انتماء لأي حركة ولأي حزب كما كان.

ولست الوحيد بهذا الرأي، هناك مليار و600 مليون من المسلمين، وأظن الآن لو كان هناك استطلاع للرأي، سنجد منهم على الأقل 90 في المائة من يؤيد هذه الحركات.

كان هناك استطلاع للرأي في لبنان حول تأييد حزب الله وما يجري، وأيد الحركة أكثر من 70 في المائة من اللبنانيين، وأكثر من 80 في المائة أيدوا وساندوا ما يقوم به حزب الله، هذه ديمقراطية ؟ إذن أي شيء يأتي من الأمم المتحدة لا مستقبل له، وبما أننا بصدد هذا الموضوع، اسمحوا لي، أنا كباحث وأمضيت حياتي كلها في البحث، ولست سياسي، كان موضوع أطروحتي في الدكتوراه سنة 1957، عن "الجامعة العربية 1954-1955" (10

سنوات)، وفي ذلك الوقت، حكمت تقريبا بالإعدام عليها، لماذا ؟ لأنها من إنشاء الاستعمار الإنجليزي البريطاني، وكان التهييئ لتبقى السيطرة على العالم العربي ؛ فالعمل الذي قامت به هذه الجامعة، يبين أنها كانت في الحقيقة من حلفاء الكتلة، بما فيها بريطانيا والاستعمار الأمريكي ؛ وبعد عدة سنوات وبعد التجربة بالأمم المتحدة، كتبت كتاب "نظام الأمم المتحدة" عام 1973، وهو مؤلف يستعمل في الكليات والجامعات ؛ وكذلك حكمت تقريبا بالإعدام على نظام الأمم المتحدة، وهذا لسبب بسيط، مبني على القيم.

قلت بأن اتفاقية سان فرانسيسكو سنة 1945، قد بنيت على قيم يهودية مسيحية ؛ حين صار الاتفاق في سان فرانسيسكو، لم تكن هنالك أكثر من 6 دولة مسلمة من ضمن 50 دولة التي ساهمت في إنشاء هذا المؤتمر ؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قلت إن المقاصد هي أهم شيء. ومع مرور الوقت، تبين أن هذه المقاصد التي كانت في الأمم المتحدة، تم التراجع عنها، وجاء استعمار جديد بعد فترة قصيرة من الاستقلال والتحرير. تدخلت الولايات المتحدة بكل قوة لكي تواجه هذه الأغلبية الجديدة. ومن ذلك الوقت، وعلى امتداد 20 سنة، عشت هذا الوضع في اليونسكو وفي الأمم المتحدة وفي مناصب مهمة، ولكن فهمت الأمور وقدمت استقالتي سنة 1981، لقد تبين لي أن الأمم المتحدة التي كانت حلما، الأمم المتحدة لأمر شولد، الأمم المتحدة ليوتانت، بدأت تتدهور، فجاء بيريز دي كولار وباعها بثمن بسيط في حرب الخليج لأمريكا، وآتى بطرس غالي وباعها بثمن أبخص وصار آلة ؛ رغم إنني أعترف به كأستاذ، ولكن ليس كأمين عام للأمم المتحدة، لأنه ترك الهيمنة الأمريكية تسيطر عليه، إلى أن وصل به الحد ليعود مجرد آلة للبنتاغون والبيت الأبيض، وكان دور كوفي عنان، وزاد وضع الأمم المتحدة تدهورا لم يسبق له مثيل.

وقلت بعد يوتانت (الكاتب العام 1961-1971)، لقد حل المرض طويلا بالأمم المتحدة، وجاء بيريز دي كولار وبدأت تضعف، وتلاه بطرس غال فماتت، وتكلف كوفي عنان بدفنها.

بالنسبة لي، الأمم المتحدة غير موجودة، وذلك منذ سنين ؛ لذلك أواخذ على الناس الذين يتظاهرون احتجاجا أمام بناية الأمم المتحدة، فهي غير موجودة. الأمم المتحدة الآن آلة للسياسة الأمريكية والاستعمار.

نظرا للمناصب العليا التي اضطلعت بها كموظف دولي، يمكن أن أقول إنه في مؤتمر القمة لعدم الانحياز في الجزائر 1973، جاء أحمد طالب الإبراهيمي، الذي كان وزير الخارجية للجزائر آنذاك، ولازال حيا يرزق، وطلب مني قائلا : "هل أنت مستعد لتكون مرشحا كمدير عام لليونسكو"، وحدث هذا في باريس، وقلت له : لا.. أنا جئت كموظف دولي وليس للمناصب... ؛ إذن رفضت المناصب العليا في النظام. في نفس الوقت الذي كان فيه لازما أن يكون نائب المدير ماكنا مارا عربيا، حيث طلب مني في أبريل 1980 ماكنا مارا رئيس البنك الدولي أن أعطي رأيا في بعض المرشحين الآتيين من الحكومات العربية، وهو لم يكن راضيا على أي أحد منهم، وفي الأخير قال لي نائب ماكنا مارا : "أنت يا أستاذ هل يمكن أن نقول أنك مستعد للترشيح للمنصب" ؛ فقلت له : "لا.. وقال لي : "لماذا" فقلت له : "لأسباب خلقية"، فاستغرب ؛ فوضحت له الأمر، وقلت له : "أنا أكتب وأقول في دروسي أنتم مجرمين، فكيف آتي وأقبل الجلوس على الكرسي بجانبكم"، هذا هو نظام الأمم المتحدة عشته وأعرفه حق المعرفة. وفي سنة 1981 قدمت استقالتي، ومنذ ذلك الوقت إلى اليوم، لم أدخل لأي عمارة أو بناية تابعة للأمم المتحدة، ولم أساهم في أية ندوة أو تظاهرة من تنظيمها، حتى حقوقي في التقاعد تخليت عنها.

...

– كيف تقيم موقع الشارع العربي الآن ؟

* الشارع العربي له إحساس، لكنه يعيش في رعب، لنا أنظمة إقطاعية، أنظمة تعيش بالرعب، تعيش بالأمن، كوسيلة لضمان الاستقرار، هذه الضمانة لكي تحضى بمساندة أمريكا وفرنسا وانجلترا...

أول شهادة حصلت عليها كانت في البيولوجيا، علم الحياة، الذي يعتبر الاستقرار موتا ؛ الشيء الوحيد الممكن، هو أنه كلما تأخرت تلك العملية الجراحية، كلما زاد الثمن الذي سيؤدى ؛ ولا يجب على الناس أو الدول أو الحكومات أن يعتبروا أنها بعيدة عن فلسطين، وعن العراق، وعن لبنان ؛ وأن يظنوا أن الأمر لا يهمهم، لأنه شيء آت ؛ في كتابي "الانتفاضات" قلت، منذ 6 سنوات خلت، الانتفاضة آتية، لأنها بمثابة نسمة الأوكسجين والحرية ؛ التغيير آت لا محالة.

أشكر الحكومة الإسرائيلية، وأظن أن جميع الدول العربية والمسلمة سترى، مع التاريخ، ما هو الدور الإيجابي الذي لعبته إسرائيل. لأن بهذه الطريقة حركت حركة حقيقية، وبرهنت عما هي ؟ وما لونها الحقيقي ؟ وبينت ما هي ردود الفعل إذا كان هناك صمود ؟ وحزب الله صمود.

– كيف يمكن الحديث عن الديمقراطية ؟

* الانتخابات النزيهة، التي تحققت في العالم العربي والإسلامي ؛ كانت الأولى في إيران والثانية في الجزائر عام 1991، والثالثة كانت في فلسطين، وهذا ما يشهد به جميع الملاحظين في العالم.

كيف لحكومة اختارها الشعب بإرادته، وتقاطعها بأمر من باريس أو واشنطن أو لندن، وفي نفس الوقت تقول إنك مع هذا الشعب، هل سبق لك أن رأيت بلاغا صادرا من حكومة عربية، وردت فيه عبارتي حزب الله أو حماس، يقولون نحن مع الشعب ومع المقاومة ؟ أية مقاومة ؟ المقاومة الموجودة في العالم العربي، هما اثنين : حماس وحزب الله، محمود عباس، أبو مازن، الذي باع فلسطين بكامب ديفيد مع عرفات، هو الآن الآن من أعداء الحركة والتحرير

...

– ماذا عن إسرائيل ؟

* بالنسبة لي إسرائيل بدأت طريق النهاية، انتهت، إسرائيل ضاعت.. لقد قال بنغريون : "لا يسمح لإسرائيل أن تخسر حربا"، وقال هذا الكلام في سنة 1948، فأي حرب تخسرها ستكون آخر حرب، وهذه آخر حرب لإسرائيل، رغم أن لديها الأسلحة وتساعدها أمريكا والعالم الغربي، أنا كتبت سنة 1991، أن الحرب على العراق هي الحرب الحضارية الأولى، وأنا كمستقبلي كان موقفي وقائي.

قلت كل النزاعات المقبلة ستكون حول القيم والثقافة، لدرجة أنه منذ 1991 إلى الآن، أخصص كل مدخول كتبي لجائزة حوار شمال جنوب، لأنني أومن بالتواصل الثقافي المخلص كوسيلة لمحاربة العنف.

الآن أصبحنا في وضع لا يمكن أن تبقى فيه الأشياء على ما هي عليه.. هذا التحطيم للبنى التحتية وللجسور والطرق... ؛ لكن هناك شيء لا يحطم وهو الإيمان، قوة حزب الله، وقوة الحركات التحررية في العالم، مهما كانت، في أمريكا اللاتينية أو في آسيا أو إفريقيا... هو الإيمان ؛ أما الحكام وحكوماتهم، فهم لا يؤمنون إلى بمصلحتهم الخاصة، فكم يمكن أن يبقوا في مكانهم ؟ وكم يمكن أن يجلبوا من أموال ؟

في الختام أود قول شيئين، أنا من الذين يدافعون عن أفكار غاندي، ويدي هذه التي لم تمس أحداً، ولم تصطاد سمكاً، ولم تضرب... لا أومن بالعنف.

لكن ماذا قال غاندي ؟ قال إذا كان هنالك اختيار بين الجبن والعنف أوصي بالعنف، بهذا المعنى، بالكرامة...

بـــلاغ :

جائزة المهدي المنجرة للدفاع عن الكرامة 2007

بعدما تحولت ابتداء من 2007 إلى جائزة للدفاع عن الكرامة

جائزة المهدي المنجرة التواصل الثقافي شمال-جنوب لكل من عبد الرحيم برادة ورشيد نيني



الأستاذ عبد الرحيم برادة



الأستاذ رشيد نيني

الأستاذ عبد الرحيم برادة

إن تخصيص الجائزة للأستاذ عبد الرحيم برادة هو تكريم لشجاعة وثبات مناضل من أجل دولة الحق لا يكل ومجمع عليه من طرف الجميع، كما أنه رمز للوقوف في وجه شطط السلطة منذ عقود عديدة، ويشهد على ذلك مسار حياته الجلي.

إنه مناضل يجمع بطريقة منسجمة بين الكفاءة والوعي المهني والتفاني النبيل، مهتم بكل ما له صلة بالدفاع عن الشخصية الإنسانية والكرامة. لذلك

لا تكرم الجائزة فقط من خلاله ذلك المدافع الشرس عن الحق، بل أيضا كل أولئك الذين عانوا من سوء المعاملة المشينة والذين مد لهم يد المساعدة التطوعية.

الأستاذ رشيد نيني

إن اختيار رشيد نيني، الصحفي المناضل الذي لا يتعب من نقد التجاوزات والخروقات التي يتعرض لها المواطنة والمواطن المغربيان، والذي يجد فيه أولئك الذين يدافع عنهم يوميا تخفيفا نفسيا عن معاناتهم بفعل شجاعته الواضحة للعيان وقلمه الثاقب، منحه الجائزة اعتراف بمساهمته في صحافة مناضلة ترفض لغة الخشب، ملغيا طابع القدسية عن ذلك النوع من الصحفيين الذي يمارس مهنته من منطلق زبوني وحزبي، مقدسا بدل ذلك مضمون ونبل رسالة الصحافة الملتزمة.

أحدثت جائزة التواصل الثقافي شمال- جنوب سنة 1991 بمبادرة من البروفيسور المهدي المنجرة عقب صدور كتابه "الحرب الحضارية الأولى". وهي تمنح في 17 يناير من كل سنة والذي يصادف ذكرى الحرب الرهيبة التي شنت ضد الشعب العراقي سنة 1991 والتي لا تزال رحاها تدور إلى يومنا هذا في شكل عمليات قصف وحصار جائر خلف مئات الآلاف من الضحايا الأبريا..

تمول جائزة التواصل الثقافي شمال- جنوب من ريع حقوق التأليف المتأتية من كتابات البروفيسور المنجرة، وقد منحت للمرة الأولى سنة 1992 مناصفة للفنان الساخر أحمد السنوسي ولفنان الكاريكاتير العربي الصبان.

وفاز بها، سنة 1993، وزير العل الأمريكي الأسبق رامزي كلارك والموسيقار العراقي الراحل منير بشير.

في سنة 1994 عادت الجائزة لرجلين من رجالات المسرح كبيرين : إبراهيم سباهيك من البوسنة والطيب الصديقي من المغرب.

في سنة 1995، فاز بالجائزة الأستاذ يوكو إيطاكاكي من جامعة طوكيو باليابان، وفي السنة الموالية كل من الأستاذ فرانسوا بورغا من فرنسا والأستاذ أحمد لخضر غزال من المغرب.

في سنة 1997 منحت الجائزة مناصفة للجمعية الدولية للعلوم المستقبلية (فيوتيريبل) بفرنسا ولوكالة التأليف والنشر "شراع" بالمغرب.

وكانت الجائزة، سنة 1998، من نصيب كل من أحمد بنيسف أحد أساتذة فن الرسم بمدارس تطوان وإشبيلية، وللمصطفى الرزرازي أول مغربي ينال شهادة للدكتوراه من جامعة يابانية.

وفي سنة 1999 منحت جائزة التواصل الثقافي شمال- جنوب لكل أطفال العراق، ولرجل من إيرلندا (دانيس هاليداي) نبيل، مستقيم ونظيف. استقال من منصبه كمنسق للأعمال الإنسانية للأمم المتحدة في 31 أكتوبر 1998 احتجاجا على الآثار الوخيمة التي أحدثها الحصار المفروض على العراق والذي خلف من الأطفال فقط أكثر من 500000 ضحية .

في سنة 2000 كانت الجائزة من نصيب البروفيسور كيشي فوجيوارا من اليابان وللآنسة آمال بوجمعة أول طفلة مغربية تزداد سنة 2000.

وفاز بها سنة 2001 الشهيد محمد جمال الدرة (ومن خلاله شهداء فلسطين)، ذاك الطفل ذو الثانية عشرة من العمر الذي اغتاله الصهاينة بدم بارد في 30 شتنبر 2000. ومنحت مناصفة معه لطلال أبورحمة الصحفي بفرانس 2 الذي أرخ بكاميرته لحادث الاغتيال الرهيب هذا.

ومنحت الجائزة سنة 2002 للبروفيسور ريكاردو بتريلا (من إيطاليا) وهو أستاذ للاقتصاد بالجامعة الكاثوليكية بلوفان والمستشار بالمفوضية الأوروبية، وكذا للدكتور سعيد ذو الفقار الموظف السامي باليونسكو لمدة ثلاثين سنة دون احتساب العشر سنين (من 1981 إلى سنة 1990) التي قضاها كسكرتير عام لجائزة أغا خان للمعمار وهو الذي يشتغل حاليا السكرتير العام ل "تراث بلا حدود".

كما منحت الجائزة سنة 2003 لإيغناسيو راموني (فرنسا) مدير جريدة لوموند دبلوماتيك ولعبد الباري عطوان (فلسطين) مدير تحرير جريدة القدس العربي.

منحت جائزة "التواصل الثقافي شمال- جنوب" لسنة 2004 للأستاذين خير الدين حسيب من العراق وجان أوبيرغ من الدنمارك، وبذلك يكون اسكندنافيا ملتزما وباحثا عربيا متميزا هما المكرمان هذه السنة.

عودة الجائزة في طبعتها الثالثة عشرة لهذين الإسمين إنما هو تكريم للدراسات حول السلم والمستقبل والوحدة بما هي المفتاح الأساسي للتواصل الثقافي.

أما جائزة التواصل الثقافي شمال- جنوب لسنة 2005 فقد حجبت في سنتها الرابعة عشر لما اعتبره الدكتور المهدي المنجرة ان السنة كانت من أحلك لحظات البشرية على المستوى تدني التواصل بين ثقافة الشمال والجنوب.

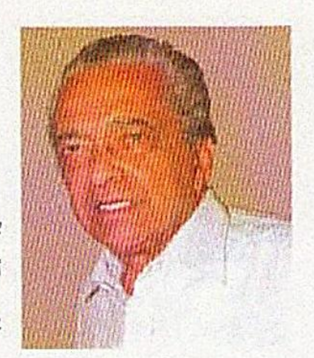
المهدي المنجرة
Mahdi Elmandjra
www.elmandjra.org
17-01-2007

محتويات الكتاب

II - القيم والخلق والإبداع

III - قيم وذاكرة

قيمة القيم



لايمكن أبدا استنساخ الثقافات . إنها تستطيع أن تتواصل وتغني بعضها البعض في إطار احترام متبادل لمختلف أنماط الحياة، غير أن عولمة منظومة القيم من طرف القوة العسكرية العظمى في العالم يعرض هذه الفرصة لخطر داهم. لقد بدأت تنبعث، من جديد، في العالم الثالث نزعة مقاومة لكل أشكال العدوان الثقافي الذي تمارسه كثير من الدول الغربية ويعني هذا أن مجال الأفكار والإبداع لا يمكن أن يخضع إطلاقا لقوانين "التبادل الحر"، كما أن الاستحواذ على حقل الثقافة لايشبه ،بأي حال من الأحوال، بسط السيطرة على ساحة معركة حربية.

يتضمن هذا الكتاب في ثناياه ثلاثة فصول : يتناول الأول منها العلاقة بين القيم والمجتمع. ويدور الثاني حول الروابط الخصبة القائمة بين القيم والإبداع. وينصب الفصل الثالث والأخير على موضوع الذاكرة، فيبرز أهميتها كقيمة تقاوم النسيان وتصده، وتجعل اقتسام المعانات والآلام واقعا ملموسا. إن السلام، في حقيقة الأمر، لايتحقق إلا عبر تواصل ثقافي رفيع المستوى، مجرد من كل الأهواء والأكاذيب وأنواع الميز في العلاقات الدولية، كما أن احترام حقوق "الآخرين" سيضفي طابع النسبية على مفهوم "الحقوق الكونية" دونما إلحاح على ضرورة تكييفها مع كونية مختزلة وتافهة في تاريخ البشرية.

إن العديد من الدول الغربية نصبت نفسها حامية لقيم حقوق الإنسان . لكنها تنتهك هذه القيم، بشكل سافر، هنا وهناك ، وبدون محاسبة ولا عقاب. ولهذا، فعندما تصبح حياة مواطن من دول العالم الثالث عموما أو مواطن من العالم الإسلامي خصوصا، تساوي قيمة حياة مواطن أمريكي أو إسرائيلي، فانه سيكون بوسعنا، عندئذ، أن نقر باقترابنا من هذه "الكونية" التي طالما تبجحوا بها كثيرا. إن الاعتداءات الوحشية الأخيرة لإسرائيل، والدعم الأعمى وغير اللائق الذي حظيت به من طرف الغرب، فضلا عن التخاذل والجبن غير المقبولين للحكومات العربية، كلها تبين أن ثمة مسافة شاسعة تفصلنا عن هذه الكونية المنشودة.

كتبت هذه السطور ونحن نصطلي بنار "حرب قيم" شرسة تشكل امتدادا وحشيا وهوسيا ل "الحرب الحضارية الأولى" . وهكذا، فان مستقبل الإنسانية سيكون، بلا ريب، رهينا بالقيمة التي سنمنحها للحياة الإنسانية بدون تمييز وفي إطار احترام متبادل للقيم باعتبارها تمثل تلك "الجينة" التي تضمن للإنسانية استمراريتها وبقاءها في ظل الكرامة . ومن هنا أهمية الحديث عن "قيمة القيم" .

المهدي المنجرة

الرباط في 20 يوليوز 2006

www.elmandjra.org



ISBN : 9954-8401-6-8

40 درهم